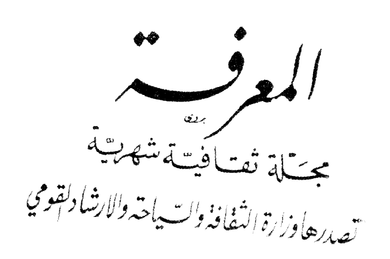
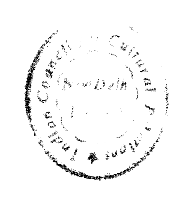
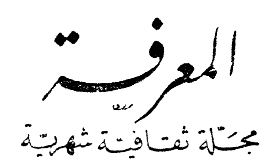




رئيس التحرير
أديب اللجمي

العدد ٩٠ - آب (اغسطس) ١٩٦٩





● **المراسلات باسم رئاسة التحرير**

جادة الروضة – دمشق

الجمهورية العربية السورية

● **الاشتراك السنوي :**

– في الجمهورية العربية السورية : ١٢ ليرة سورية

– خارج الجمهورية العربية السورية : ما يعادل ١٢ ليرة سورية مضافاً اليها أجر البريد (العادي او الجوي) حسب رغبة المشترك .

● **يرسل الاشتراك حوالة بريدية او شيكاً او يدفع نقداً الى :**

محاسب مجلة المعرفة – جادة الروضة – دمشق

● **يتلقى المشترك كل سنة كتاباً هدية من منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي**

ثمن العدد :

١٠٠ قرش سوري	١٠ قروش صاغ
١٠٠ قرش لبناني	١٢ قرشاً سودانياً
١٠٠ فلس أردني	١٥ قرشاً ليبياً
١٢٠ فلساً عراقياً	٢ ريال سعودي
٢٠٠ فلس كويتي	٢ دينار جزائري
٢,٥ روبية	٢ درهم مغربي

في آفاق

الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية (١)

هيثم الكيلاني

ان المعنى الأساسي للمقاومة الفلسطينية
- وهذا ما يرهب اسرائيل ويفزعها على مصيرها -
هو أنها حركة تحرير للقطر الفلسطيني، لا حركة
تحرير للأراضي المحتلة ، بعد حرب حزيران -
فهذه أحد الواجبات الرئيسية للدول العربية
التي احتلت أراضيها - ولا وسيلة ضغط التأمين
الحل السياسي لمشكلة تحرير تلك الأراضي المحتلة.
لذا فان من الضروري توضيح الفكرة التالية:
ان المقاومة الفلسطينية لم تبدأ قبل حرب
حزيران فقط ، وانما بدأت في العشرينات من
هذا القرن ، حين انطلقت المقاومة بشكلها ،

(١) نشر القسم الأول من هذا البحث في عدد المعرفة ٨٩ (تموز - يوليو - ١٩٦٩) .

المسلح والسلمي ، لتناهض الغزو والاستيطان قبل قيام اسرائيل وبعدها . وليست حركة التحرير الوطني الفلسطيني « فتح » ومنظمة التحرير الفلسطينية وغيرهما من منظمات العمل الفدائي ، سوى استمرار طبيعي لارادة الصمود والمقاومة والنصر للشعب العربي في فلسطين .

ان الشعوب تخوض حروب التحرير ، مهما كانت قوة الاحتلال وطبيعة المحتل وارهابه . والفئة القليلة التي تبـــدأ حرب التحرير معبرة بذلك عن ارادة الشعب ، لا توازن بين قوتها وقوة المحتل ،بل توازن بين قوة الشعب وقوة المحتل، وتبدأ واثقة من النصر . فقد بدأت حرب التحرير الجزائرية فئة قليلة تصدت لأقوى جيش في أوروبا . وبدأت حرب التحرير الفيتنامية فئة صغيرة تصدت لأقوى جيش في العالم .

وكما كان الجيش الفرنسي ينتقم من دول المغرب العربي بعد اتهامها بأنها تدعم حرب التحرير الجزائرية ، وتفسح المجال للثوار في انشاء مراكز التدريب والتموين على حدودها ، وفي التسلل منها وإليها ، وكما اتهم الجيش الاميركي فيتنام الشمالية بأنها وراء حرب التحرير في فيتنام الجنوبية، وانتقم منها بالغارات الجوية، فان اسرائيل أيضاً تتهم الدول العربية المجاورة بأنها وراء الثورة الفلسطينية . وهنا يبرز دور هذه الدول وواجبها ، في تحمل هـــذه المسؤولية ، مهما كانت أبعاد الانتقام الاسرائيلي ،الذي تمثل حتى الآن بالغارات الجويةوقصف المدفعية والهجوم البري على بعض الاراضي العربية ثم الانسحاب منها ، وقد يبلغ حد غزو جديد واحتلال أراض جديدة .

وتنصب اسرائيل في كل ليلة نحو ألفي كمـين تنتظر الثوار ، بعد أن أنشأت أسواراً مكهربة في بعض المناطق . ونشر معهد الدراسات الاستراتيجية

في لندن دراسة جاء فيها أن اسرائيل مضطرة الى تجميد أحد عشر لواء (أي نحو ٤٠ – ٤٥ ألف جندي) تحت السلاح للتصدي للمقاومة الفلسطينية ومجابهة الثوار. وتؤكد هذه الدراسة أن هذا التجميد يكلف اسرائيل في كل يوم نحو مليون ونصف المليون من الدولارات ، مما يزيد في عجز ميزان المدفوعات الذي ارتفع من ٤٢٥ مليون دولار في عام ١٩٦٧ الى ٦٠٠ مليون في عام ١٩٦٨ .

على ان الخسارة الكبرى التي أنزلتها الثورة باسرائيل هي ذلك الانسحاق النفساني والجسماني الذي تفرضه حرب العصابات ، فقد قال كاتب اسرائيلي : « من المرعب حقاً الآن تعرف كيف ومتى ومن أين ستأتي الضربة القادمة في الظلام المخيف . حتى النهار لا يحول دون الرعب عند ما تسير على أرض هادئة قد قد يزلزلها لغم في أية لحظة » .

ان العمل الايجابي الذي أقض مضجع اسرائيل بعد حرب حزيران هو العمل الفدائي ، لان استمراره ونموه واتساع رقعته ، لم تكن ايجابية في حد ذاتها – فقط – ، بل كانت ايجابية أيضاً بما أحدثته من تأثير في الرأي العام العربي ، إذ أشارت الى طريق الخلاص من جهة ، ودلت على طبيعة الامكانات والطاقات العربية من جهة اخرى .

وتأثيرات العمل الفدائي الفلسطيني وتفاعلاته عربياً ، هي أخشى ماتخشاه اسرائيل والاستعمار . ولهذا نجد أن أهم المحاولات التي قامت بها الدبلوماسية الغربية خلال عامي ١٩٦٨ و ١٩٦٩ هي ابراز العمل الفدائي الفلسطيني في صورة العقبة الوحيدة في طريق السلم ، وفي الوقت ذاته تحاول الاعتداءات الاسرائيلية المتكررة تعزيز هذه الصورة لتؤدي الى احداث هوة بين العمل الفدائي الفلسطيني وبعض الحكومات العربية . ذلك ان اسرائيل تدرك ان أخطر ما يهددها من

العمل الفدائي ، ليس التخريبات التي يحدثها وانما مدلولاته السياسية ، أي بروز الكيان العربي الفلسطيني الذي يغير حينئذ من طبيعة المشكلة في نظر الرأي العام العالمي ، إذ أن الصراع الفلسطيني الاسرائيلي في هذه الحالة يتخلص من الوان الخداع والتضليل واللبس التي لازمته في الماضي ، فلا يعود صراعا بين مائة مليون عربي ، وبين مليونين من اليهود – كما تحرص اسرائيل على تقديمه – بل يصبح صراعاً بين مليونين من الغزاة الصهاينة ، ومن ورائهم قوى الامبريالية ، وبين الشعب الفلسطيني ومن ورائه القوى العربية . وهذا ما تريد اسرائيل والامبريالية تجنبه ، فهي لا تريد بروز الكيان الفلسطيني ؛ لأنه يطرح مشكلة الأرض التي تنسف دعوى اسرائيل من أساسها . وفي الوقت ذاته فان اسرائيل وقوى الامبريالية لا تريد أن يعزز العمل الفلسطيني بالتضامن العربي ، لذلك تخطط لعملياتها الانتقامية فوق الدول العربية المحيطة بها ، هادفة الى خلق ردود فعل محلية تتناقض مع التضامن العربي . وتؤدي الى تقوقع كل نظام عربي داخل حدوده فيضعف بمفرده ، ويضعف الجميع من جراء ذلك .

لقد غدت المقاومة الفلسطينية – بعد هزيمة حزيران – العمود الفقري للحركة العربية التحررية ضد الاستعمار الاستيطاني في اسرائيل . واكتسبت بذلك مشروعيتها ووزنها الفعال ، عربياً ودولياً على السواء .

ولا يستطيع عربي ، أيا كان موطنه ، وأيا كان وضعه الاجتماعي وتنظيمه الحزبي ، واتجاهه الفكري أو السياسي ، أن يقف موقفاً معادياً أو سلبياً من حركة المقاومة . ذلك أن الاختيار هنا حاد وقاطع ، ليست له هوامش جانبية تمكن أحداً من اتخاذ موقف « بين بين » ، فإما « مع » حركة المقاومة ، « ضدها »

ومن هنا تبرز « المقاومة المسلحة للاحتلال الاسرائيلي » كعمود فقري لحركة الجماهير العربية كلها . ويصبح ، بالتالي ، تجمّع هذه الحركة حول « العمود الفقري الحي » هو الاختيار الطبيعي والحتمي ، الذي لا بديل له . وهو أمر بدأ يتحقق تلقائياً بالفعل . ان الجماهير العربية تتجاوب – تجاوبا عفويا – مع العمل الفلسطيني لأنها لاتعتبر تحرير الأرض المغتصبة مسؤولية فلسطينية محضة ، وإنما هي مسؤولية عربية يشكل الفلسطينيون فيها الطليعة . لذا فإن الجماهير العربية تشكل القاعـــدة الرئيسية الكبرى التي تقوم عليها الثورة الفلسطينية ، وهي في الوقت ذاته ، أداة ضاغطة أو مؤيدة للسلطات الحاكمة في الأقطار العربيـة ، حسب مـدى تجاوب تلك السلطات وصدق مواقفها واستعدادها لتلبيـــة مطالب الثورة الفلسطينية .

ان أعمال المقاومة ، اذا ما توسعت وبلغت حد تجريح العدو وافلاقه وبث الذعر في نفسه ، والحد من سيـــل الهجرة والرساميل والسياحة – اذا ما بلغت هذا الحد ، فانها قادرة على أن تجبر اسرائيل والصهيونية والاستعمار على اتخاذ أحد مواقف ثلاثة :

١ – فهي إما أن تقبل بمطالب العرب في إزالة نتائج العدوان ، وكأن حرباً لم تكن . وهذا أمر مستحيل .

٢ – وإما أن تساوم لتأخذ أكثر مانستطيع وتعطي أقل مايمكن . وهنا تقف منظمات العمل الفلسطيني والجماهير العربية في مواجهة مبادئها وأهدافها ، وليس لها الا الرفض والاستمرار في الكفاح .

٣ – وإما أن تعمد الى ارتكاب عدوان مسلح جديد ، يقضي على قواعد المقاومة في قلب الدول العربية المحيطة بها ، ويعيد اليها – الى اسرائيل – القدرة

على فرض شروطها وحلولها بالقوة . وهذا هو أقرب المواقف احتمالاً ، ان لم نقل انه الاحتمال الواقعي الوحيد ، لانه يتفق والطبيعة العدوانية للكيان الصهيوني الاستعماري .

لقد واجهت الثورة الفلسطينية عدداً من التحديات والصعاب ، أولها إهمال وجودها في الحيز الدولي ، وسترها بغطاء كثيف من الكتمان يغطي على عملياتها . ولكن سرعان ماتجاوزت الثورة هذه الصعاب . فوسع العمل الفدائي نطاق عمله ، وتكاثرت بؤر الانفجار في ميدان القتال ، وهبت الجماهير تعلن ارادتها على التحرر ، فتتظاهر وتقطع كل حوار مع العدو ، وتتحدى رصاصه بالصدر دريئة ، وبالصوت اعلاناً للحق ، وبدعم الفدائيين وسيلة .

لقد توفرت للثورة الفلسطينية معظم العوامل والعناصر التي تمنحها النمو والتطور . وبذلك انقلب التحدي الاسرائيلي الى تحد فلسطيني ، وشرعت نداءات بعض أهل الحق والحرية في العالم ، وبخاصة في أوروبا وأميركا ، تنطلق سائلة متسائلة : ماذا يجري في اسرائيل ؟ وكان من نتيجة ذلك أن تدفق عدد كبير من مراسلي الصحف وأجهزة الاعلام ، الى المشرق العربي ، يسعون وراء معرفة الحقيقة ، ليجيبوا الانسان الغربي عن سؤاله . وكان من نتيجة ذلك أيضاً أن جعل ديان – كما ذكرنا – مدة الاسابيع القليلة الموعودة ، حرباً طويلة الأمد .

لقد قصدنا من هذا التحليل والتقييم للمقاومة الفلسطينية المسلحة ، ان نبين أهميتها في استراتيجية الردع الاسرائيلي ، ونوضح تمحور الجهد العسكري الاسرائيلي بعد حرب حزيران حول تلك الاستراتيجية ، لتحقيق اهدافها التي لم تستطع بلوغها ، بالرغم من مرور أكثر من عامين على هزيمة حزيران .

التفوق :

تواجه اسرائيل خصومها وهي أقل منهم نفراً ، وكيانها يتصف – من الناحية الجغرافية – بالهشاشة والهزال . وحتى تعالج اسرائيل هذا الوضع الصعب المعقد ، فلا بد لها من أن تلجأ الى دراسة نواحي القوة فيها ، حتى تنميها وتطورها وتستثمرها الى أقصى مدى ممكن ، لتبلغ حداً من التفوق كافياً لتحقيق أهدافها المرحلية . وقد استندت الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية الى النقاط التالية لتكون عماد تفوقها :

١ – التفوق السلاحي ، وبخاصة في سلاحي الطيران والمدرعات فقد أدركت اسرائيل ان طبيعة الارض المكشوفة ، وبخاصة في النقب وفي مسرح عمليات سيناء ، وفقدان الغابات والجبال الكثيفة في بقية الحدود ، تفرض على الدولة التي ستحارب في هذه المناطق ان تحوز على التفوق الجوي المطلق الشامل . فهي اذا أطلقت أرتالها المدرعة عبر كثبان الصحراء دون أن تكون هناك مظلات واقية من الطائرات المقاتلة تحميها وتوفر لها حرية العمل ، فإن دباباتها ومصفحاتها ستشتعل تحت نيران طائرات الطرف الآخر .

وقد عبر عن هذا الاتجاه في التفوق السلاحي في الطيران والمدرعات ، الضابط الاسرائيلي « يهودا والاش » رئيس قسم العلوم الحربية في الكلية العسكرية في تل أبيب . فقد حاضر هذا الضابط في مدينة برن سويسرا في شهر تموز ١٩٦٨ ، حول حرب حزيران ، وتحدث عن الدروس التي استخلصتها القيادة العسكرية من حملتها في سيناء عام ١٩٥٦ ، فقال :

« لقد تولت الطائرات البريطانية والفرنسية حماية تقدم الجيش الاسرائيلي وتوغله في الأراضي المصرية ، لذلك رأت القيادة الاسرائيلية منذ ذلك الحين

ضرورة تعزيز سلاح طيرانها ، للدفاع عن نفسها في أية مناسبة أخرى ، ولحماية قواتها في أية عملية عسكرية قادمة . وأما الدرس الثاني الذي تم استخلاصه من حملة سيناء ١٩٥٦ ، فقد كان ضرورة تقوية فرق الدبابات والآليات المصفحة في في هذه المنطقة الصحراوية ، على أن تدعمها فرق مشاة مدربة خصيصاً للعمل في في الصحراء ، وعلى أن يتم تموينها جميعاً بواسطة طائرات الهيليكوبتر . في حرب حزيران وضعت القيادة العسكرية قطعات من المدفعية الثقيلة والخفيفة خلف وحدات المشاة . وأما خطوط النار الأولى فقد تولتها وحدات فدائيـة خاصة اسمها (وحدات الصدمة) مدربة على جميع أنواع أساليب الهجوم الأرضي والمظلي » .

وتعتمد اسرائيل على سباق التسلح لانهاك العرب ، وعدم افساح المجال لهم لبناء قوتهم الاقتصادية لتكون قاعدة لبناء القوة العسكرية الذاتية . كما تهدف الى التأثير في تطور العرب الاجتماعي ، لتبقيهـم في مرحلة التخلف الاقتصادي والاجتماعي ، بسبب نفقات التسلح الباهظة المستمرة . بينما تستطيع اسرائيل ان تتسلح – بمختلف أنواع الاسلحة وأحدثها – من مستودعات الدول الغربية المشايعة لها ، وعلى الأخص الولايات المتحدة ، دون أن تدفع ثمن هذه الاسلحة ، لأن الجاليات اليهودية في الخارج والصهيونية العالمية وعطف الاستعمار تتكفل بهذه الاعباء المالية .

٢ – وتعتبر اسرائيل اسلوب النفير والتعبئة والحشد لديها أحد أسباب تفوقها . وهي تحافظ بشكل مستمر ومتطور على هذا الاسلوب العلمي الدقيق .

٣ – التفوق التكنولوجي . وقد رأينا مظاهر التقدم العلمي والتكنيكي واثره في المعركة ونتائجها . وتعتمد الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية على هذه

الناحية اعتماداً كبيراً لأنها تضمن لها – في حال استمرار التفوق – سد النواقص والثغرات في البنيان العسكري ، واستثمار الآلات والتجهيزات الموجودة الى أقصى حد ممكن .

نقل المعركة الى أرض العدو :

تقوم الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية على أساس عدم التنازل عن أي شبر من الأراضي التي احتلتها في مراحل مختلفة وعلى أساس نقل المعركة الى أرض العدو . فكل مكسب تناله من جراء الاحتلال والتوسع تعتبره « حقاً تاريخياً » تدافع عنه بقوة السلاح . ان تاريخ الاستعمار الاستيطاني الاسرائيلي في فلسطين منذ أواخر القرن الماضي حتى اليوم يؤكد هذا الرأي ، ويجعله أساساً من أسس الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية . والسبب الرئيسي في ذلك هو المطامع والاهداف التوسعية المحددة في الخطة الصهيونية ، والوضع الجغرافي الخاص باسرائيل في المرحلة الحاضرة .

ان اسرائيل لم تسه قط عن مشكلة ما تسميه بالحدود الآمنة ، فمشكلتها الأساسية هي مشكلة جغرافية . إذ ان مساحة الدولة لا تحقق الحد الأدنى من الشروط العسكرية اللازمة لقيام دولة ما ، وبخاصة في عصر السلاح طويل المدى . ففي المنطقة الوسطى التي يبلغ طولها نحو مائة كيلو متر ، نجد ان العرض يتراوح بين ١٤ و ٢٥ كم ، وبخاصة ان مساحة هذه المنطقة لا تزيد عن ٢٠ ٪ من مساحة الدولة ، بينما يقطنها نحو ٨٠٪ من السكان . ان الدبابة تستطيع أن تجتاز عرض اسرائيل في خصرها حتى « ناتانيا » في خلال ١٥ دقيقة ، ان لم يعترضها عارض في الطريق . وتقع مدينة القدس على مدى البندقية الأردنيـــة . وفي اقصى الشمال

وأقصى الجنوب لا يزيد عرض الدولة عن عشرة كيلو مترات . أما اكبر عرض فيبلغ ١٠٤ كلم بين البحر الميت والبحر الأبيض المتوسط . وهي مسافة ليست كبيرة في جميع الاحوال .

ولإسرائيل – بشكلها الطولاني غير الطبيعي – حدود برية طويلة مع الحدود العربية ، تبلغ – قبل حزيران – ١٠٣١ كلم . وطول هذه الحدود :

مع لبنان	٧٨ كلم
وسورية	٧٦ كلم
والاردن	٦١٢ كلم
والجمهورية العربية المتحدة	٢٠٦ كلم
وقطاع غزة	٥٩ كلم

وازاء هذه الاحوال الجغرافية والعسكرية، تبدو الفترة الزمنية الواقعة بين وقت الانذار الجوي ووقت بلوغ الطائرات العربية أهدافها قصيرة جداً ، وتستطيع هذه الطائرات ان تقلع من قواعدها الجوية العربية وتقصف اهدافها في دقائق قليلة . فالمسافة الجوية تبلغ :

بين القاهرة وتل ابيب	٤٣٠ كلم	بمدة ٤٣ دقيقة .
بين فايد وتل ابيب	٣١٠ كلم	بمدة ٣٠ دقيقة .
بين العريش وتل أبيب	١٥٠ كلم	بمدة ١٥ دقيقة .
بين عمان وتل ابيب	١١٠ كلم	بمدة ١١ دقيقة .
بين رياق في لبنان وحيفا	١٥٠ كلم	بمدة ١٥ دقيقة .
بين دمشق وحيفا	١٤٠ كلم	بمدة ١٤ دقيقة .
بين المفرق في اردن وحيفا	١٢٠ كلم	بمدة ١٢ دقيقة .

هذا اذا كانت سرعة الطائرة ٦٠٠ كلم في الساعة . أما اذا كانت سرعة

الطائرة تساوي سرعة الصوت، فإن المدة الزمنية اللازمة لاجتياز هذه المسافات الجوية تبلغ نصف المدة المذكورة .

ولهذه الأرقام مغاز واعتبارات عسكرية هامة ، وبخاصة ان اسرائيل بوجودها وعدواناتها المستمرة واهدافها التي تسعى الى بلوغها نشوب القتال بمعارك محدودة متواصلة وبمعارك واسعة متواترة ، هادفة من وراء ذلك الى تغيير هذا الواقع الجغرافي الصعب والمعقد .

ولكي تواجه اسرائيل هذا الواقع الجغرافي والعسكري ، نجد انها تسلحت بالأسلحة التي تساعدها على الحركة والمفاجأة ونقل القتال الى خارج اراضيها . فسلاح الطيران قادر على التدخل السريع والتسلل العميق وتخريب الطرق العربية . وسلاح المدرعات قوة قادرة على الحركة السريعة ونقل القتال الى خارج الحدود ، والاختراق السريع والعميق . وسلاح المظليين قادر على احتلال المراكز الهامة الخلفية ، وضرب عقد المواصلات ، وشل القيادات ، ونشر الذعر ، وانشاء جذور خارج حدود اسرائيل تستقطب جهود القوات المسلحة العربية . وقد ركزت اسرائيل جهودها على هذه الأسلحة الثلاثة ، واعتنت بها تدريباً وتسليحاً وانتقاء عناصر .

ولكي تواجه اسرائيل – ايضاً – هذا الواقع الجغرافي والعسكري ، كان لا بد لها من أن تبعد المعركة عن ارضها ، وتدفعها الى الأرض العربية قدر استطاعتها ، وذلك في الميدانين البري والجوي . قال بن غوريون في خطاب القاه في الكنيست يوم ٢ كانون الثاني ١٩٥٦ .

« اننا نجلس جميعاً من المطلة الى ايلات في القارب ذاته ، وعلينا جميعاً تقع مسؤولية مصيره . ان الدفاع عن تل ابيب وحيفا يبدأ على حدود اسرائيل .

ان اسرائيل بكاملها منطقة حـدود . وعندما تكون المنطقـة المجردة من السلاح والمحددة بوقف اطلاق النار مفتوحة لدخول مخربين ومجرمين ، فانها لن تبقى مغلقة في وجه اولئك الذين يدافعون عن انفسهم » .

ولقد توسلت اسرائيل — بنقل المعركة الى ارض العدو — بالهجوم والمبادأة . فقد قال بن غوريون في خطاب القاه يوم ١٧ تشرين الاول ١٩٥٦ :

« ان الانسان يلجأ الى عمليات هجومية عندما يقوم بالدفاع عن نفسه ، لأن الهجوم هو أفضل أنواع الدفاع . عندمـــا يتوجب ان ندافع عن أنفسنا لا نستطيع القيام بذلك ونحن جالسون في بيوتنا ، انما يجب علينا ان ننقل الحرب بهجوم فعال الى معسكر العدو » . وكان الجنرال عـازار وايزمن رئيس شعبة العمليات يلح في مناقشاته في هيئة الأركان العامة ومجلس الوزراء — أثناء مناقشة خطة العمليات لحرب ١٩٦٧ — على « ان أحسن خط دفاعي عن تل أبيب يقع عمودياً فوق القاهرة ودمشق » . وقد نشرت صحيفـة « جيروزاليم بوست » في عددها الصادر بتاريخ ١٣ تشرين الأول ١٩٦٨ حديثاً للجنرال موشيه ديان . فقد سأله محرر الصحيفة :

« أرجو ان توضح مـاذا عنيت بقولك — قبل حرب الايام الستة — إن القوات المسلحة الاسرائيلية ليست قوات دفاعية ، بل هي — وبالمعنى الإيجابي للكلمة — قوات عدوانية » .

فأجاب ديان :

« ماعنيته هو ان جيش الدفاع الاسرائيلي ليس — الواقع — جيشاً دفاعياً بالمفهوم العسكري للكلمة . انه — في تكتيكه العسكري وبخاصة في روحه المعنوية — ليس قنفذاً مايكاد يرى الخطر حتى يلملم نفسه تحت ريشه وينتظر

الضربة . ان جيشنا بالأحرى كالثور الذي مايكاد يحس بالخطر حتى يشحذ قرنيه إستعداداً للهجوم . ولم يحدث قط أن كان جيشنا في وضع دفاعي . وهذا مهم من الناحية النفسية . فأنت باستطاعتك ان تقاتل في وضع الدفاع حتى لو لم تكن الروح المعنوية مرتفعة . على الأقل بسبب وضعك اليائس . لكنك لاتستطيع الهجوم والتقدم للاستيلاء على مواقع العدو اذا كانت تنقصك الروح القتالية العالية . ان المشاكل التي كان على جيش الدفاع مواجهتها والتغلب عليها ليست كيفية تأمين الملاجىء والمعاقل والخنادق ، بل كيفية عبور الاردن واختراق سيناء وصعود الجولان . ان الحواجز والخنادق والأسلاك الشائكة والمعاقل سمات ملتصقة بالجيوش العربية » .

ان الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية ،إذ قامت على أساس نقل المعركة الى أرض العدو ، وعدم التنازل عن أي شبر من الأرض كسبته ، إنما تهدف الى رفع معنويات سكانها وقواتها المسلحة ، والمحافظة على هذه الروح المعنوية قوية عالية .

الامر الواقع :

ان التفكير العسكري الاسرائيلي القائم على مبادىء الهجوم والحرب الصاعقة والمبادأة والمفاجأة ، يعتمد – كأساس من أسس استراتيجيته العسكرية – على ان « الأمر الواقع » له من القواعد والنتائج المضمونة مايستدعي اللجوء اليه في تحقيق الأهداف الاستراتيجية « إذ ان الكسب المؤقت يمكن تحويله – – بالصمود ومرور الزمن – الى كسب دائم ،إذا لازمه جهد دبلوماسي وسياسي ودعائي منظم وموجه في المحافل الدولية وأمام الرأي العام العالمي . ولقد أثبتت

معظم الوقائع - بالنسبة لاسرائيل وأهدافها وتاريخها - ان هذا الأساس سليم في أغلب الأحيان . فقد تمكنت اسرائيل - بتحديها لقرارات منظمة الأمم المتحدة ومجلس الأمن وغيرها من المؤسسات الدولية ، وبتحديها أيضاً الرأي العـام العالمي - من تحقيق مكاسب عدة ، ومن الاحتفاظ بهذه المكاسب .

استثمار الموقف الدولي :

تنطلق إسرائيل في تخطيط استراتيجيتها العسكرية من أسـاس استثمار الظروف الدولية . وتدرك اسرائيل حقائق الموقف الدولي والتوازن العالمي ، وبخاصة مايتعلق بضرورة تحديد الهدف بدقة ووضوح . إذ ليس بمقدور أحد ان يحقق أهدافاً غير محدودة ، حتى بالقوة العسكرية . وقصارى مايستطيع أي طرف ان يحققه هو بلوغ هدف محدود أي ان النصر لايقاس بالمدى الذي يستطيع الاندفاع اليه وإنما بالحد الذي يرضى بالوقوف عنده ، طالما ان هذا الحد يحقق له الهدف المرحلي الذي عينه لنفسه ، ولا يخل - في الوقت ذاته - بالتوازن الاستراتيجي العالمي القائم .

ان وضوح الرؤية الاسرائيلية للموقف الدولي وعوامله واتجاهاته واحتمالات تطوره مرتبط كل الارتباط بالاجهزة التي تملكها الدول الاستعمارية والدول المشايعة لاسرائيل ، وبخاصة الولايات المتحدة وانكلترا . وتسهم الصهيونية العالمية واجهزتها المالية والدعائية والاعلامية والسياسية في رسم خريطة الموقف الدولي وتطوراته وسير اتجاهاته وتحولاته ، ووضعها أمام اسرائيل . ان الاستراتيجية العسكرية الاسرائيلية لاتتحرك لتطبيق خططها إلابعد ان تتوضح أمامها صورة الموقف الدولي والتوازن العالمي ، حتى اذا وجدت ان لظروف

الدولية تسمح لها بتحقيق أحد اهدافها،أو بعضها ، هرعت الى تطبيق الخطة بخلق الظروف والأحوال المناسبة لتنفيذ المرحلة المقررة من خططهـــا الاستراتيجية العسكرية . لقد تمكنت اسرائيل من إقامة كيانها وتثبيت وجودها في حرب عام ١٩٤٨ ، والحصول على بعض المكاسب في حرب عام ١٩٥٦ ، وتوسيع حدودها والحصول على بعض المكاسب الأخرى في حرب عام ١٩٦٧ بفضل استثمارها للموقف الدولي وللظروف السائدة في العالم آنذاك . ان هذا الاستثمار ليس سوى هدية يقدمها الاستعمار والصهيونية الى اسرائيل . لان الوجود اليهودي في فلسطين مرتبط ـ اصلاً ـ بالدعم الخارجي الدولي . وتجد اسرائيل في الولايات المتحدة وانكلترا ودول حلف الاطلسي والدول التي تدور في فلك الاستعمار خير عون لها في دعمها ومساعدتها على استثمار الموقف الدولي الى اقصى الحدود الممكنة . كما تجد في هذه الدول ملجأ يحميها من كل نقد دولي يوجه اليها في أحد المحافل الدولية بسبب سياستها العدوانية التوسعية المستمرة .

وتسعى الصهيونية ـ في دعمها لاسرائيل ـ الى التنسيق بين المطامع الاستعمارية المتضاربة للدول الكبرى ، وتوجهها لمصلحتها حسب الظروف ، بحيث تقنع كلًا منها بأنها ستخدم مصلحتها ، وتعمل على توسيع نفوذها ، مع التوفيق بين المصالح والمطامع الاستعمارية المتناقضة في سبيل التمتع بالحماية والدعم الخارجي الاجنبي ، وضمان الوضع الدولي لمصلحتها لتأمين سلامة الدولة وأمنها ، على غرار التصريح الثلاثي الصادر عام ١٩٥٠ لحفظ حدود اسرائيل ، والبيان الاميركي الصادر عام ١٩٦٧ لحماية كيان اسرائيل ، وشتى الاتفاقات السرية والعسكرية مع الدول الكبرى الغربية لتأكيد هذه الحماية الدولية ، في جميع الظروف والمناسبات .

وتركز الصهيونية - بالنسبة للدول الكبرى - على الفوائد السياسية ، والاستراتيجية ، والاقتصادية التي تجنيها تلك الدول من وجود اسرائيل ودعمها لها من حيث أن هذا الوجود - في جوهره وحد ذاته وطبيعته - خدمة لمصالحها في المنطقة . أما في المحافل الدولية وامام الرأي العام العالمي ، فتسعى الصهيونية والاستعمار الى ابقاء « القضية اليهودية » ماثلة لإثبات وجود اليهود في المنطقة العربية ، وعدالة قضيتهم ، وضرورة ازالة الظلم التاريخي والاضطهاد الذي لحق بهم ، والتنويه « بالحق التاريخي » لهم ، وأنهم شعب مناضل صارع النازية والفاشية ، وكان ضحيتها وضحية اللاسامية المزمنة في العالم ، وان استقرار اليهود في فلسطين قد أعمر الصحاري وحضّر القفار ، وان انجازاتهم العملية في فلسطين هي ادلة لدعم وجهة نظرهم ، فهم شعب تقدمي يسعى لخير المنطقة العربية في الشرق ، ويعمل لخير الانسانية وسعادتها ورفاهها ، بما يقدمونه من علم ، وفن وخبرة ، ومال لغيرهم من الشعوب .

وتجهد الصهيونية في استقدام رؤوس الاموال الأجنبية ، ومشاركة الشركات العالمية الكبرى في الاستثمار الاقتصادي في فلسطين لكي تربط الدول الكبرى بمصير اسرائيل ، اذا ماهددت مصالح تلك الشركات العالمية بالخطر العربي ، بحيث يصبح الصراع بين العرب واسرائيل نزاعا دوليا وليس صراعا محليا فحسب .

وتسعى اسرائيل - في مجال استثمار الموقف الدولي وايجاد الصيغ القانونية الدولية لمعنى العدوان وتفسيره وتبريره - الى عزل الدول العربية في الميدان الدولي ، وفي المؤتمرات ، وابعاد الانصار عنها ، وتجميع الخصوم عليها . وتعقد اتفاقات سياسية واقتصادية وعسكرية مع الدول الكبرى لتحفظ كيان

اسرائيل اذا ما طرأ عليه خطر عربي أو خارجي ، وتحاول الخروج باسرائيل الى الآفاق الدولية من تلك العزلة السياسية والاقتصادية التي اقامتها الدول العربية حولها .

وترسم الصهيونية لنفسها خططاً واضحة لبلوغ غاياتها بالتدريج . ويتضمن تحقيق الهدف السياسي عنـــدها مراحل متعددة في أزمات معلومة ، ولكل مرحلة أغراضها المناسبة ، وشعاراتها الملائمة للظروف السياسية والمواقف الدولية. ويصمم الهدف المرحلي بعد تقدير الاوضاع تقديرا صحيحا واقعياً. وتبعا للحاجات الملحة القائمة ، ووفقا للفرص السانحة ، والامكانات والوسائل المتوفرة لبلوغه مع استخدام الاعتدال تارة ، والتطرف والقوة تارة أخرى حسبما تقتضيه الظروف الدولية ، مستفيدة في ذلك كله من الموارد المالية ، ووسائل الدعـاية ، وأجهزة الاعلام العالمية ، والقوة العسكرية ، مع الاستفادة من آثار الحرب النفسية التي شنتها منذ زمن طويل ، والمستمرة في توجيهها نحو خصومها .

ان قيمة الاتفاقات السياسية التي تتوصل اليها الصهيونية — وبخاصة مع العرب — تكمن في مقدار ما تحققه من ضمانات لحقوق سياسية يهودية مزعومة . والتمسك بهذه الاتفاقات مرغوب فيه مؤقتاً ، لكي تصبح الحقوق المكتسبة ثابتة ومستقرة لا يمكن دحضها ونقضها سياسياً ، بحيث ينتج عنها وضع سياسي جديد يمكن الانطلاق منه للمطالبة باتفاق جديد وعلى اسس الوضع الحاضر . وهذا ما يسهل عملية الهجرة والاستيطان التي هي الجوهر الفعـال في الحركة الصهيونية ، ومحور العمل المستمر ، كما يخلق للاستراتيجية العسكرية المناخ والظروف الدولية المناسبة لتنفيذ المرحلة المقررة .

والمفاهيم الاخـلاقية — في السلوك الصهيوني — لا يمكن ان تسري في

العلاقات الدولية ؛ وبخاصة اذا كانت تمس -- من قريب أو بعيـــد - المصلحة الصهيونية الاستعمارية . وإن العمل غير الاخلاقي هو المبـدأ الاساسي والشعار السائد المستقر في اذهان الصهاينة عند تعاملهم مع غير اليهود« والاقوام » الاخرى من البشر - وبخاصة مع العرب - . فالغاية تـبرر الواسطة في العمل السياسي الاسرائيلي ، ويطبق ذلك على أوسع نطاق وأبعد مدى .

لقد كانت الفترات الزمنية الـتي سبقت حرب ١٩٥٦ وحرب ١٩٦٧ مجالات خصبة لـكي تستثمر اسرائيل - بمعونة الاستعمار والصهيونية - الموقف الدولي الى اقصى حد ممكن . ففي مرحلة التحضير الـتي سبقت العدوان الثلاثي وجدت اسرائيل ان الأمور التالية كافية لخلق مناخ دولي مناسب :

١ - لوعة فرانسا وانـكلترا نتيجة لتأميم قناة السويس في ٢٦ تموز ١٩٥٦

٢ - حقد عدد من الدول الاستعمارية - وخاصة الاوروبية - على تأميم القناة ،الذي افقدها بعض الواردات المالية التي كانت تأتيها من الشركة الاستعمارية التي اقامتها تلك الدول في السويس .

٣ - حقدانـكلترا علىالثورةالمصرية التيأجبرتها على الجلاءعن مصر ، وفقدانها اهم موقع استراتيجي كانت تتمتع به وتستثمره في مركز تلاقي القارات الثلاث .

٤ - حقد فرانسا على الدول العربية - وبخاصة مصر - لدعمها للثورة الجزائرية التي مضى عليها - آنذاك - نحو عامين ،وهي تقوى ويشتد ساعدها ، ولم تستطع فرانسا - بعد - ان تخمد نارها وتقضي عليها .

لقد استثمرت اسرائيل هذه العوامل في الموقف الدولي ، وتلاقت مع فرانسا وانـكلترا ، ووضعت الدول الثلاث خطة العدوان ونفذتها في ٢٩ تشرين الاول من عام تأميم القناة .

اما في عام ١٩٦٧ ، فقد استثمرت اسرائيل سياسة التعايش السلمي الدولية ،والتوازن العالمي ، والهجمة الاستعمارية الشرسة التي ظهرت بوادرها ونتائجها في بعض مناطق العالم ، وانهيار بعض الانظمة التقدمية المتحررة في آسيا وافريقيا ، والمناهضة للاستعمار ، كما استثمرت - في الوقت ذاته - قضية اغلاق خليج العقبة في وجه الملاحة الاسرائيلية ، فاستغلت اجهزة الاعلام الصهيونية والاستعمارية هذه القضية ، وعرضتها أمام الرأي العام الدولي وفي المحافل الدولية ،وكأن الجمهورية العربية المتحدة قد قامت بخرق القانون الدولي ، واعتبرت عملها عدوانا على سيادة اسرائيل وحقوقها المشروعة لتبرير العدوان المقبل ، ولخلق ظروف مناسبة واستثارات تكتيكية -على حد قول وزير خارجية اسرائيل - لشن عدوان على الدول العربية . وفي الوقت ذاته شنت هذه الأجهزة حرباً نفسية رهيبة على العرب في اوروبا ، وامريكا ، والمحافل الدولية، وأثارت ضجيجاً صاخباً حول حصار اسرائيل . وكان ذلك كله تضليلاً في اطار الاستراتيجية الشاملة للصهيونية والاستعمار ، يهدف الى تغطية العدوان العسكري الاسرائيلي وتبريره ضد البلاد العربية ، والى عرضه وكأنه كفاح حياة أوموت امام الرأي العام العالمي . وقد تم - فعلا - اتخاذ القرار في اسرائيل حول شن الحرب والهجوم على العرب قبل ان تبدأ الجمهورية العربية المتحدة بالاشراف على خليج العقبة وممارسة حقها وسيادتها عليه .

وعندما انتهت اسرائيل من استعداداتها العسكرية ، التي تساعد في التحضير لها امريكا وانكلترا ، انذرت امريكا الدول العربية حتى لا تقوم بأي عمل عسكري ، وقامت بالمبادرة لتفسح المجال امام اسرائيل لتوجيه الضربة الى العرب . لقد تم ذلك كله ، بعد ان هيأت الصهيونية والاستعمار المناخ الدولي والظروف الملائمة لكي تطبق اسرائيل احدى مراحل استراتيجيتها العسكرية المقررة .

الجدلية في الحياة النفسية

فيلهلم رايخ

ترجمة انطون شاهين

علينا أن نتساءل في هـــذا المجال ، عما اذا اكتشفت المعارف المادية للتحليل النفسي تلك الجدلية الماثلة في العمليات النفسية أيضاً . غير أنه في البدء نود أن نبعث في ذاكرتنا المبادىء الأساسية للطريقة الجدليـــة كما أقامها ماركس وانجلز ، وتابـع انجازها تلامذتها .

ان ماركس ، في جدليته المادية ، عارض جدلية هيغل المثالية ، هيغل المؤسس الحقيقي للطريقة الجدلية . بينما نجد هيغل ينظر الى جدلية المعاني كمحرك أولي للتطور التاريخي ، ذاهباً الى أن العالم الخارجي هو مجرد مرآة عاكسة للأفكار أو المعاني المستمرة في تطوير ذاتها جدلياً ، نجد ماركس

يقلب النظرة الى الحياة ، وفق العرف المادي ، رأساً على عقب . هذا يعني ، أنه أوقف بنيان هيغل الفلسفي «على قدميه» حسب تعبيره ، حين أعلن ، أن الأمور المــادية لها طابع الأولوية ، وأما الأفكار فتتعلق بها . ولدى استعارته النظرة الجدلية لمجرى الحوادث من هيغل ، أجهز في الوقت ذاته على المثالية الميتافيزيائية الهيغلية وعلى المادية الآلية ، التي سادت في القرن الثامن عشر . ان المبــادىء الأساسية المادية الجدلية هي :

١ - ليست الجدلية شكلاً من أشكال الفكر وحسب ، بل هي معطاة مع المادة مستقلة عن الفكر . هذا يعني ، أن حركة المادة تتم موضوعياً بصورة جدلية . ان الجدلي المادي لايدخل إذن الى المادة ، ما هو فقط في فكره ، بل هو يــدرك بواسطة الحواس والفكر - تفكيره الذي يخضع بدوره للقوانين الجدلية - مجرى الحوادث المادية الماثلة في الواقع الموضوعي ادراكاً مباشراً . ومن الواضح أن هذا الموقف يتعارض والكانطية المثالية معارضة كلية[١] .

٢ - لايتم تطور المجتمع ، وكذلك تطور الحوادث الطبيعية ، كما يزعم كل ضرب من ضروب الميتافيزياء ، سواء أكانت مثالية أم مادية ، من جراء «مبدأ كامن في التطور « أو » نزوع للتطور مستقر في الأشياء ، انما يتم بعامل التناقض الصميمي ، من الأضداد الماثلة في المادة ومن صراع الأضداد ، الذي لايمكن أن يجد حلاً في نمط الآنية المعطى ، ما لم تفجر الأضداد نمط آنية المادة المعطى ، لتخلق نمطاً جديداً ، تنبعث منه مجدداً أضداد جديدة وهكذا .

٣ - إن كل ما ينبثق عن التطور الجدلي لا يتسم موضوعياً بالخير أو الشر ، انما يتسم بالضرورة . بيد أن ما يدفع في البدء بعجلة التقدم الى الأمام في

---

(١) قارن لينين : Materialismus und Eunperiokrit z smus 1927 .

مرحلة من مراحل التطور ، في وسعه أن يغـدو بعدئذ عقبة في سبيل التقدم .
هكذا روّج نمط الانتاج الرأسمالي في البدء ، طاقات الانتاج التقنية رواجاً هائلاً،
إلا أن هذا النمط من الانتاج أضحى بعد ذلك عقبة في سبيل التطور تحت تأثير
التناقضات المستقرة فيـــه . إن الانعتاق من ربقة هذا العائق ، يأتي به نمط
الانتاج الاشتراكي .

٤ - من خلال وصف التطور الجدلي ، الناجم عن صراع الاضداد ،
نلمس أنه لا شيء يبقى على حاله ، بل كل شيء يصير ، يحمل لتوّه بذرة زواله في
ذاته . إن الطبقة ، التي تريـد أن تثبت دعائم سيادتها ، لا يمكنها قبول النظرة
الجدلية ، وإلا تتوقّع الحكم بالموت على ذاتها . إن البورجوازية الرأسمالية أدت
في تصاعدها ، حسب **ماركس** ، الى تطوير طبقة البروليتاريا ، التي تعني بدورها
غروب الطبقة البرجوازية ، تبعاً للشروط الحياتية التي تحيط بهذه الطبقة الجديدة.
لهذا السبب لا يقبل الاعتراف بالجدلية ، اعترافاً تاماً عملياً،سوى طبقة الكادحين،
بينما يتحتم على البرجوازية أن تبقى عالقة في مثالية مطلقة بالضرورة .

٥ - إن كل تطور هو عبارة عن تعبير ونتيجة لنفي مزدوج : نفي
النفي . كي نوضح هذا ، ندلي مجدداً بمثال حول التطور الاجتماعي . إن انتاج
السلع كان نفياً للشيوعية البدائية ، حيث كان يسود فيها انتاج قيم استعمال ليس
إلا . ويمثل نظام الانتاج الاشتراكي نفياً للنفي الأول ، إنه ينكر انتاج السلع ،
ويؤدي به هـذا النفي ، للوصول الى مرحلة أعلى ، تقضي بإثبات ما نفي قبلاً ،
بإثبات انتاج قيم استعمال ، الى مرحلة الشيوعية [1] .

---

(١) ان الشيء ذاته ينطبق على تطور الاشكال الجنسية ، وجملة الافكار الجنسية التي اتيح الكشف عنها مؤخراً . ففي المجتمع القديم الذي يزاول اقتصاداً مبنياً على شيوعية =

٦ - إن الأضداد ليست مطلقة ، بل يتداخل بعضها ببعض . فالكمية تنقلب إلى كيفية في نقطة معينة إن كل علة لمعلول حي في الوقت ذاته معلول لذلك المعلول بما هو علة . إن هذا ليس مجرد أثر متبادل بين ظواهر منعزلة عن بعضها انعزالاً تاماً ، إنما تداخل متبادل وتأثير متبادل . وأبعد من هذا ، ففي وسع عنصر من العناصر التحول المفاجىء إلى نقيضه ضمن شروط معينة (١) .

٧ - ان التطور الجدلي يتم عادة تدريجياً ، إلا أنه يغدوا قفزاً في مواضع معينة . إن الماء لا يتحول تدريجياً الى جليد بعامل التبريد المستمر ، إنما الكيفية: ماء تتحول فجأة في نقاط معينة إلى الكيفية : جليد . لكن هذا يعني ، أن التغير

= بدائية ، كانت الحياة الجنسية تراعى ويوافق عليها . غير أن هذا الاثبات ، الذي تلقاه الميول الجنسية ، ينقلب ، تحت عامل تطوير هذا المجتمع الى مجتمع منتج للسلع يمارس لاقتصاد خاص ، الى نفي يسود في البنية البشرية وفي المجتمع . ومن الضروري أن نفترض ، حسب قانون التطور الجدلي ، أن نفي المجال الجنسي وانكاره سينقلب مجدداً الى ايجاب جنسي في مستواه الأعلى ، ايجاب يتطلبه المجتمع وبنيته . ولا نرانا في الوقت الحاضر في تناقض حاصل بين الرغبة في الاطاحة بالاقتصاد البضائعي ، وبين الرغبة في المحافظة عليه وحسب ، انما أيضاً في صراع ، يتأزم تدريجياً ، بين النزعة الكامنة في المجتمع لزيادة شدة الضغط الجنسي ، وبين الميل الى العودة من جديد الى الحياة الجنسية الطبيعية بدلاً من التسوية الاخلاقية والضغط الجنسي .

(١) نكاد نلمس هذه الحادثة لمس اليد الآن من خلال حركة الجماهير الفاشية . ان انتفاضة جماهير الشعب الألماني المناهضة للرأسمالية ، التي وقفت موقفاً مناقضاً كل التناقض للدالة الموضوعية للفاشية ، نراها تنقاد خلف الفاشية ، منقلبة الى عكس ما كانت تأمله هذه الانتفاضة الشعبية لفترة من الزمن ، أي الى توطيد دعائم سيادة الرأسمال الالماني .

ان جوهر السياسة الماركسية يكمن في رؤية مسبقة لاتجاهات التطور الممكنة ، وفي تنشيط كل حادثة من الحوادث التي تتوافق والثورة الاجتماعية . لأنه اذا تمكنا من سبر غور التناقضات الداخلية ، الكامنة في كل ظاهرة اجتماعية مهمة ، في الوقت الملائم ، عند ذاك يغدو الحسبان المسبق لإمكانات التطور سهل المنال .

القفزي قد نشأ فجأة من لا شيء ، بل إن هذا التغير تطور تدريجياً بصورة جدلية الى تغير قفزي . هكذا تسعى الجدلية أيضاً إلى حل التضاد الماثل في المفهومين (تدرج ـ ثورة) [1] دون أن ترفعه . إن التدرج أو التطور يمهد السبيل أول ما يمهد ، لتغيير اجتماعي في النظام الاجتماعي (افقار الأكثرية ، التشريك . .) ومن ثم يقاد التغيير بطريقة ثورية .

ولنحاول الآن ، من خلال حوادث نموذجية جرت في الحياة النفسية الانسانية ، اثبات الجدلية الكامنة فيها ، التي لاتظهر إلى حيز الوجود ، حسب رأينا ، دون الاعتماد على الطريقة التحليلية النفسية .

ولنذكر في البدء مثالاً من أمثلة التطور الجدلي ، مثال تكون عوارض مرض العصاب ، كما فهمه ووصفه **فرويد** . ينشأ العرض العصابي ، حسب **فرويد** ، من جراء صد الأنا ، المكبل اجتماعياً ، لدافع من الدوافع الانفعالية في البدء ، ثم لكبت الأنا هذا الدافع . إن عملية كبت الدافع وحدها لاتؤدي الى وجود ظاهرة مرضية ؛ لابد من أن يخترق الدافع المكبوت حاجز الكبت من جديد ، ويظهر كعرض في شكل مموه . ان العرض يحتوي ، حسب **فرويد** ، على الدافع المصدود وعلى عملية الدفاع ذاتها . فالعرض يحسب إذاً حساب هذين الاتجاهين المتعارضين . لكن أين تكمن الآن جدلية تكوّن العرض ؟ إن هذه الحالة المصفحة بالتناقض ـ مطلب الدافع من جهة ، والواقع المعارض من جهة ثانية ـ الرامية إلى رفض الاشباع أو معاقبته : تطالب بوجود حل لها . إن الأنا في غاية الضعف لمجابهة الواقع ، بيد أنه في غاية الضعف أيضاً للسيطرة على الدافع . انّ ضعف الأنا هذا ، الذي هو بدوره ناجم عن تطور مسبق ، هذا التطور الذي

---

(٣) Evolution - Revolution .

يمثل مرحلة واحدة فقط من مراحل تطور العرض – يمثل الاطار الذي ضمنه يؤدي الصراع دوره . إن هذا الصراع ينتهي على النحو التالي : إن الأنا الواقع في خدمة المتطلبات الاجتماعية ، كي لا يذهب هدراً أو تنزل عليه اللائمة ، يكبت الدافع في الواقع تحت تأثير دافع ضغط الذات . ينجم الكبت إذاً عن تناقض ، لايمكن ايجاد حل له ، ضمن اطار الشرط السائد في حالة الوعي . وليست حالة عدم وعي الدافع وتجاهله ، سوى حل مؤقت لهذا الصراع ، وان كان حلاًمرضياً .

المرحلة الثانية : بعد عملية كبت الرغبة ، التي ينفيها الأنا ويثبتها في آن واحد ، يطرأ تغيير على الأنا بالذات . إن شعور الأنا يفتقر الى جزء من اجزائه (الدافع) من جهة ، ويكتسب جزءاً (الراحة العابرة) من جهة ثانية . لكن تحت تأثير الكبت ، لايمكن أن يتخلى الدافع عن الاشباع ، كما هي الحال في ميدان الشعور ، بل يتفاقم الأمر ، خاصة لأن الدافع المكبوت لايقع الآن تحت رقابة الشعور . إن الكبت يعمل على زوال ذاته بذاته ، لأن الطاقة النفسية تُردع بسببه وتتراكم تراكماً هائلاً ، كي تقتحم حاجز الكبت في نهاية الأمر .

إن عملية اقتحام الكبت الجديدة ناجمة عن التناقض : كبت – تجمع غريزي ، كما أن الكبت نفسه كان ناتجاً عن التناقض : رغبة الدافع – رفض العالم الخارجي (ضمن الشرط : ضعف الأنا) . لا يلاحظ ثمة « ميل » الى تكوّن العرض ، إنما في وسعنا أن نرى أن التطور ينشأ من التناقضات الكامنة في الصراع النفسي . وقد كان شرط اقتحام الكبت معطى مع عملية الكبت ، ألا وهو تراكم طاقة الدافع غير المشبع . هل عادت الأمور الى نصابها من جديد في هذه المرحلة الثانية لدى اقتحام حاجز الكبت ؟ نعم ولا . نعم ، بما أن الدافع عاود

بسط سيطرته على الأنا . لا ، بما أن الدافع قد تغير ، قد بدا في شكل مموه على صفحة الشعور ، تعرض . هذا العرض يحتوي على الدافع القديم ، لكن في ذات الوقت على نقيضه ، على صد الأنا للدافع .

هكذا نشاهد في **المرحلة الثالثة** (العرض) أن الأضداد الأصليـة قد عادت واتحدت في ظاهرة واحدة لا غير . هذه الظاهرة بالذات هي نفي (اقتحام) النفي (الكبت) . ولنتوقف مؤقتاً كي نبرهن على ما أوردناه بمثال واقعي مستمد من خبرة التحليل النفسي .

لنأخذ حالة المرأة المتزوجة ، التي كان ينتابها الخوف من مجرمين يودون الاعتداء عليها بالسكاكين . ليس في وسعها البقـاء وحيدة في غرفتها . إن مجرماً مريعاً قد قبـع في كل مخبأ وزاوية . أدت الدراسة التحليلية لحالة امرأة العامل هذه الى الأمور التالية :

١ — **المرحلة الأولى** : صراع نفسي و كبت

تعرفت هذه المرأة قبل زواجها على رجل حاول أن يغريها بشتى الوسائل ، رغبت في الادعان له ، لو لم تكن مردوعة من الناحية الخلقية . وقد استطاعت الانعتاق من حلبة هـذا الصراع ، ممنية نفسها بالزواج في المستقبل . في الواقع عقدت قرانها على رجل آخر ، دون أن تنسى الرجل الأول ، الذي أشاح بوجهه عنها . بيد أن مجرد التفكير به ، كان يسبب لهـــا اضطراباً مستمراً . ولدى مصادفتها إياه للمرة الأولى بعد زواجها ، تملكها صراع نفسي مريع ، بين الشوق إليه ، والمحافظة على الوفاء . إن هـــذا الصراع أضحى لا يطاق ، وليس له من مخرج ، في ظل هذه الشروط ، ذلك لأن شوقها للارتماء في أحضانه ، كان يعادل قوتها الخلقية . طفقت تتجنب مقابلته (الدفاع) ، الى أن غاب عن ذاكرتها

في النهاية ظاهرياً . إن هذا النسيان لم يكن نسياناً حقاً ، بل كان كبتاً . ظنت أن جرحها قد التأم ، ولم تعد تفكر بذلك الشخص على الاطلاق .

٢ – **المرحلة الثانية** : اقتحام الكبت

بعد مرور مدة على زواجها حصلت مشادة عنيفة بينها وبين زوجها ، لأنه غازل امرأة غيرها . في اثناء المشادة ، كانت قد فكرت – كما اتضح الأمر بعد ذلك بمدة طويلة – « إذا كنت أنت تسمح لنفسك بهذا ، فأكون أنا في غاية الغباء ، إذا لم أسمح لنفسي بذلك أيضاً ! » عندها ارتسمت أمامها صورة حبيبها الأول . إلا أن الفكرة كانت تحمل خطراً كبيراً في طياتها ، لأنها ستنفخ النار في رماد الصراع القديم . هكذا رمت بالفكرة عرض الحائط عمداً : لقد كبتتها من جديد . في الليل أصابتها موجة من الخوف ؛ لقد استحوذت عليها الفكرة ، بأن رجلاً غريباً يقترب من سريرها الهوينى ، راغباً في اغتصابها . هنا نلاحظ أن الدافع صار الى شكل بموه . وأبعد من هذا ، لقد نفذ الى الشعور ثانية منقلباً نقيضه : أي أن الرغبة نحو الرجل الغريب انقلبت الى خوف منه .

٣ – **المرحلة الثالثة** : تحليل العرض

إن هذا التغيير ، انقلاب الرغبة الى خوف ، يمثل أساس نشوء العرض . فاذا ما تناولنا العرض ذاته بالتحليل ، نجد من خلال تصوراتها ، أن رجلا غريباً يتسلل في الليل مقترباً من سريرها ، تحقيقاً لرغبتها المكبوتة ، ألا وهي خيانة الزوج (أظهر التحليل في حذافيره ، أنها قد تخيلت عشيقها الأول ، دون علم منها : لون الشعر وغيره ، تطابق وأوصاف العشيق) ، إلا أن صد الدافع كمن في العرض ذاته ، أي الخوف إزاء الدافع ، الذي بدا خوفاً من الرجل . وقد اختفى عنصر « الاغتصاب » من ساحة الخوف ، واستعيض عنه « بالقتل » . ان هذا يتفق اذاً وتغير مضمون العرض وتنكره ، الذي أضحى الآن واضحاً كل الوضوح .

لا نلاحظ في هذا المثال وجود أضداد منفصلة أصلاً عن بعضها ، تتحد في ظاهرها فحسب ، بل نلاحظ أيضاً أن الظاهرة قد تحولت إلى نقيضها ، الرغبة إلى خوف . ففي تحول الطاقة الجنسية إلى خوف — وهذه واحدة من اكتشافات فرويد الأولى الأساسية — تظهر الحقيقة التي تقول ، إن الطاقة ذاتها تولد ، ضمن شرط معين ، نقيض مايبدو لنا بالذات ، ضمن شرط معين آخر .

وهناك مبدأ جدلي آخر مستمد من الخبرة ، يتضح في مثالنا . إن ماهو قديم ، أي الرغبة الجنسية ، يظل ماثلاً فيما هو جديد ، أي في العرض . رغم هذا ، فان ماهو قديم ليس هو ذاته ، بل هو شيء جديد كل الجدة في الوقت ذاته ، أي خوف . إن التضاد الجدلي القائم بين الليبيدو والخوف يمكن إيجاد حل له على نحو آخر ، أي من التضاد القائم بين الأنا والعالم الخارجي [1] .

قبل ان ننتقل الى هذا الموضوع ، نود تبيان أمور جدلية أخرى في المجال النفسي من خلال بعض الأمثلة الوجيزة . في عملية تحول الكمية إلى كيفية نلاحظ : أن عملية كبت انفعال من ساحة الشعور ، أو مجرد ضغطه فقط ، تمثل للأنا لذة وارتياحاً إلى حد ما ، لأن الأنا يتجنب وقوعه في أزمة نفسية ؛ لكن

---

(١) إن التناقض في الرأي حول الثنائية الغريزية ، التي يطلق عليها اسم : الثنائية الاقتصادية الجنسية (وما قاله فرويد ، يمكن صياغته حسب المستوى العلمي ، على النحو التالي : أثبت فرويد ، التضاد الكامن بين الأنا والعالم الخارجي من جهة ، ثم أثبت بشكل غير متعلق بهذا التضاد ، الثنائية الداخلية لغريزتين أوليتين . ولبث فرويد متمسكاً بحزم بالطابع الإثنيني للعمليات النفسية ، الذي كان من اكتشافه . إلا أن الاقتصاد الجنسي يفهم الثنائية الغريزية الداخلية على نحو آخر ، لا على شكل مطلق ، إنما على شكل جدلي . علاوة على هذا فان الاقتصاد الجنسي يعيد الأزمات الجنسية الداخلية الى التضاد الأولي : أنا — عالم خارجي .

إذا حصلت فوق حد معين ، نجد أن اللذة قد انقلبت إلى « لا لذة » . إن إثارة عذبة طفيفة للمناطق الشبقية في الجسد ، والتي لاتشبع إشباعاً نهائياً ، تجلب اللذة، لكن إذا دامت هذه الإثارة مدة طويلة ، انقلبت اللذة إلى لا لذة .

هناك أيضاً حوادث جدلية هي **التوتر والاسترخاء** . يبدو هـذا الأمر جلياً في الميل الجنسي . إن التوتر الناتج عن هيجان جنسي يؤدي إلى ارتفـــاع الشهوة ، لكن في الوقت ذاته تضعف حدة التوتر من خلال الاشباع في الإثارة . إن التوتر ، يحمل في جنباته الاسترخاء . إنه يمهد السبيل لحصول الاسترخاء المقبل، كما أن التوتر الآلي لنابض الساعة هو مرحلة سابقة تهيء استرخاء النابض . عكس هذا نجد أن الاسترخاء يرتبط أحياناً بأعلى توتر ممكن – كما هي الحـــال مثلاً في العمل الجنسي ، أو في التوتر المريح الحاصل من مأســـاة مثيرة – بيد أن هذا الاسترخاء هو بمثابة أساس لحدوث توتر جديد .

في وسعنا تبيان مبدأ **هوية الأضداد** من خلال حوادث **الذات** النرجسي وليبيدو**الموضوع** . ليس حبّ الذات ، حسب **فرويد** ، والحب المتجه وجهة موضوع خارج الذات ، عبارة عن ضدين فحسب ، بل إن الحب الموضوعي ينشأ عن الليبيدو النرجسي ، وفي امكانه أن يعيد الكرة ، وينقلب في كل آونة إلى حب ذاتي . لكن بما أن كليهما يمثل اتجاهاً في الحب ،فكلاهما متماثل . وأبعد من هذا كذلك ، كلاهما يعود إلى مصدر مشترك ، إلى الجهاز الجنسي الجسدي ، إلى « النرجسية الأولى » . كذلك المفهومان « **الشعور** » و « **اللاشعور** » (وحدة المعنى) متضادان . إلا أنه يمكن الإشـــارة إلى أن كليهما ، يحمل طابع التماثل وطابع التضاد في الوقت ذاته ، والفضل يبدو في تبيان هذا للعصاب القهري . إن المرضى بالعصاب القهري يكبتون تصوراتهم من ساحة الشعور ، لدرجة أنهم يجردون

التصور من الانتباه فقط ، أي من الشعور بالانفعال لامتلاكه. فالتصور المكبوت هو ، في آن واحد ، مشعور به وغير مشعور به . هذا يعني ، أن في وسع المريض إعادة هذه التصورات ، إلا أنه لا يدرك معانيها .

إن المفهومين « **الهو** » و « **الأنا** » يعبران كذلك عن أضداد متماثلة : ليس الأنا سوى عبارة عن جزء يتميز تميزاً خاصاً ، بيد أنه يغدو في الوقت ذاته ، تحت تأثير العالم الخارجي ، خصماً للهو ، قريناً مشاكساً من الناحية الوظيفية .

لا يتطابق مفهوم **التقمص** مع حادثة جدلية فحسب ، بل مع هوية الأضداد أيضاً . إن عملية التقمص تتم ، حسب **فرويد** ، على الشكل التالي : أحدهم « يتشبه » بشخص المربي مثلاً ، هو في الوقت ذاته ، موضوع حب وكراهية ، أي « يتقمصه » المتقمص . في هذه الحالة تضمحل العلاقة الموضوعية عادة ، فالتقمص يحل مكان حالة العلاقة بالموضوع ، إذن هو يمثل نقيضها ، نفيها ؛ غير أنه في الوقت ذاته يحافظ على العلاقة الموضوعية ، مع اختلاف في الشكل ، إنه اذن اثبات أيضاً . هنا يكمن الصراع أو التناقض التالي : أحب الرجل (س) ؛ بما أنه يقوم على تربيتي ، يمنعني من القيام باعمال كثيرة ، لهذا السبب أكرهه ، بودي تحطيمه ، ازاحته ، غير أني أحبه أيضاً ، أتوق اذن الى أن أحافظ عليه . لا يمكن وجود مخرج في حالة التناقض الشائكة هذه الا على النحو التالي : « إنني أطالب بشخصه كلياً ، اتشبه به ، أتقمصه ، أقطع علاقتي معه في العالم الخارجي (العلاقة الموضوعية) ، لكن أستمر في المحافظة عليه في داخلي بشكل مختلف ، لقد أفنيته ، وايضاً احتفظت به » .

ضمن تلك الوقائع ، التي يستوعبها التحليل النفسي ، بفضل مفهوم اجتماع الضدين ، القائل بالنفي والإثبات في الوقت ذاته ، يوجد العديد من الظاهرات

الجدلية ، لا نذكر منها سوى ما هو أعمق أثراً وأشد بروزاً : ظاهرة **تحول الحب الى كراهية والعكس** . إن هذين المفهومين مطبوعـان بطابـع التماثل (وحدة المعنى) ، فاذا تمكن المرء من إقامة صلات عميقة مع إنسان آخر ، يمكن ان يعني الحب كراهية والعكس . إن الانقلاب إلى النقيض ميزة نسبها **فرويـــد** الى الدوافع بعامة . غير أنه لدى الانقلاب لا يضمحل ماهو قـديم ، بل يبقى في نقيضه ، محتفظاً به كلياً .

كذلك الضدان: **العصاب و الشذوذ** ،يجب أن يحلاحلاً جدلياً ، بحيث أن كل عصاب يمثل شذوذاً ، والعكس .

لننتقل الآن الى السؤال عن مدى ما أمـاط التحليل النفسي الستار عن الجدلية في الميدان النفسي ، وخاصة بالنسبة للتطور العام للفرد في ظـل المجتمع . وسنعالج السؤال الجوهري التالي : هل يمكن إرجاع الجدلية في المجال النفسي الى التضاد الاولي الماثل بين الأنا الغريزي والعالم الخارجي ؟

كنا قد أشرنا في حـديث سابق الى رأي **فرويد** حول الفرد . فالفرد من الناحية النفسية ، يأتي الى العالم ، في عرفه ، كحزمة من الحاجات تقابلهـــا دوافع ملائمة لها . بصفته كائناً اجتماعياً ، يوضع في كنف المجتمع مع تلك الحاجات وليس فقط في ظل المجتمع العائلي الضيق ، بل مباشرة ، من خلال الشروط الاقتصادية للوجود العائلي ، وجهاً لوجه في المجتمع الواسع . وبجملة بسيطـــة ، فان البنية الإقتصادية للمجتمع – تحت تأثير هـذه العوامل : انتماء طبقي للأهل ، الاحوال الاقتصادية السائدة في العائلة ، الايديولوجيات ، علاقة الاهل ببعضهم .. – تؤدي الى وقوع أثر متبادل مع الأنا الفطرية الكامنة في المولود . وكما أن هذا الوليد يغير وجه محيطه ، فإن المحيط المتغير يؤثر فيه مجدداً. وقد تشبع

بعض الحاجات ، وبالتالي يسود الانسجام. غير أن معظم هذه الحاجات لا تشبع وينشأ التضاد بين اشباع الحاجات والنظام الاجتماعي ، الذي تمثله العائلة (ثم المدرسة) . ينجم عن هذا التضاد صراع يؤدي الى حدوث تغيير . وبما أن الفرد هو الخصم الاضعف ، فان الأمر يؤدي الى حدوث تغيير في بنيته النفسية ان ضروب الصراع هذه ، الناجمة عن الأضداد ، والتي ليس بالإمكان حلها ، اذا لبثت بنية الطفل على حالها ، تنشأ كل يوم وساعة ، وتكون في الواقع العنصر الذي يدفع بالطفل الى الأمام . لا شك أن المرء يتحدث في التحليل النفسي عن استعداد ، عن اتجاهات للنمو وغيرها ، الا أن الوقائع التي وصل اليها التحليل بواسطة الخبرة حتى الآن ، حول نمو الطفل في سنيه المبكرة ، تؤكد التطور الجدلي ، الموصوف انفاً ، تؤكد حركة الأضداد من درجة الى درجة. يميز المرء عادة درجات في التطور الليبيدوي ، فيقال مثلاً : الليبيدو يجتاز درجات التطور تلك ، غير أن المراقبة العلمية ، أظهرت ، بأن أي مرحلة من مراحل التطور ، لا يمكن حثها وتنشيطها ودفعها الى الأمام دون خيبة في اشباع الواقع ، الموجود في مرحلة سابقة . هكذا تغدو خيبة الاشباع ، من خلال الصراع ، الذي يولد الخيبة في نفس الطفل ، محركاً للنمو . وسوف لا نعير ، في هذا البحث ، الجزء التطوري المتعلق بالوراثة ، اهتماماً ، كالاستعداد الكامن في مناطق الاثارة الجنسية ، وجهاز الادراك ، هذه الامور التي يصعب على المرء عرضها عرضاً خالصاً . لم يزل هذا الجزء ميداناً غامضاً كل الغموض بعد في البحث البيولوجي . والسؤال عن طبيعة جدليته لا يمت بصلة لموضوعنا . علينا أن نحسب حسابه ، إلا أننا نكتفي بجملة **فرويد** : « ان الاستعداد الفطري يشترك في عملية النمو كما تشترك المعاناة » .

تلعب خيبات الدوافع في خضم المعاناة ، الى الاشباعات ، دوراً هاماً ، بصفتها محركات النمو . فالتضاد القائم بين الأنا الفطري والعالم الخارجي يصير في نهاية الأمر الى تناقض صميمي ، بحيث يشرع عضو رادع ، في تكوين ذاته ، في الجهاز النفسي ، تحت تأثير العالم الخارجي : الأنا - الأعلى . فما كان يعد خوفاً من العقاب أصلاً ، يغدو ردعاً خلقياً . والصراع القائم بين الأنا الفطري والعالم الخارجي يستحيل الى صراع قائم بين الأنا الفطري والأنا - الأعلى . غير أننا لا ننسى ، أنهما يتسمان بطبيعة مادية ، فالأول تنفيذي مباشرة عن طريق الاعضاء والثاني أقيم في الأنا من أجل المحافظة والبقاء في آخر المطاف . إن غريزة حفظ الذات (النرجسية) تخفف من حدة الميل الجنسي والميل العدواني . هكذا تدخل حاجتان اساسيتان ، كما تكونان وحدة أصلاً في طور الرضاعة وكذلك فيما بعد في ظروف متعددة ، في تناقض مع بعضهما ، ويدفعان بعجلة النمو الى الامام من صراع الى صراع ؛ لكن ليس بمناسبة التقييد الاجتماعي ، بل حقاً بواسطته . اذا ما حدد النمو الصراع الداخلي والخارجي بشكل عام ، نرى أن المجتمع هو الذي يشبع الاهداف الفطرية ، كما يشبع العوائق الخلقية بمحتوياته وآرائه السائدة الراهنة . ففي وسع التحليل النفسي إذن اثبات جملة **ماركس** اثباتاً تاماً ، وهي ان الوجود يحدد « الشعور » أي يحدد التصورات واهداف الدوافع والافكار الخلقية .. وليس العكس . إن التحليل النفسي يعطي هذه الجملة مضمونها الواقعي بالنسبة لنمو الطفل . إلا أن هذا لا ينفي أن يسبب الجهاز الفطري كثافة الحاجات ، التي ترضخ لشروط جسدية ، وفروقاً نوعية للنمو . ان هذا ليس « بانزلاق مثالي » كما ذكر لي بعض الماركسيين في مناقشات جرت حول هذا الموضوع ، انما يتفق تماماً والجملة الماركسية التي تقول ، ان الناس يصنعون تاريخهم بأنفسهم ، فقط وفق افتراضات وشروط معينة ذات طبيعة اجتماعية .

اذا ترجمنا هذا الكلام الى لغة علم الاجتماع ، نجد أن موضوعة **فرويد** الاساسية حول معنى عقدة أوديب بالنسبة لتطور الفرد ، لاتعني سوى أن الوجود الاجتماعي هو الذي يحدد هذا التطور . فالاستعدادات الانسانية والدوافع، التي هي عبارة عن أشكال فارغة لتقبل المحتويات الاجتماعية، تجتاز الظروف (الاجتماعية) وأقدار الصلات بالأب والأم والمحبين، لتكسب الآن فقط شكلها النهائي ومضمونها.

إن جدلية التطور النفسي لاتكشف فقط ، أن ثمة نتائـــج متعارضة تتكوّن ، ناجمة عن موقف متأزم ، وقت تأرجح ميزان قوى الاضداد ، بل إن التجربة العملية تثبت أيضاً ، أن خصائص طبـع من الطباع يمكن أن تنقلب في مواقف متأزمة ملائمة إلى نقيضها . هذا **النقيض** الذي كانت تكمن بذرته لدى الحل الأول للصراع . ففي إمكان طفل قاس أن يغدو طفلاً شفوقاً رقيق الفؤاد، وفي استطاعة التحليل الوافي لحادثة الشفقة هذه الكشف عن القسوة القديمة. الطفل المغرم بالأوساخ قد يتشدق بعدئذ بنظافته ، وقد يغدو الفضولي انساناً كتوماً إلى درجة لاتطاق . والغرق في الماديات والأرضيات قد ينقلب إلى تقشف وزهد بسهولة : أي كلما ازدادت حدة نمو صفة من الصفات، كلما سهل انقلابها الى نقيضها في ظروف ملائمة (تكوّن رد الفعل) .

بيد أن ماهو قديم ، لايضمحل كلياً لدى التحول في مجرى التطور . وبينما نجد أن جزءاً من الصفات قد استحال مكوناً النقيض ، نجد أن جزءاً آخر بقي على حاله . غير أن هذا الجزء يعاني بعض تبدلات شكلية مع مرّ الزمن بسبب تغير الشخصية ككل . إن مفهوم **التكرار** الفرويدي يلعب في سيكولوجيا التطور النفسي دوراً كبيراً . ويتضح لدى دراسة عميقـــة له بأنه مفهوم جدلي

بحث .[1] إن مايتكرر هو في الواقع أبداً ماهو قديم وشيءما جديـد ، هو القديم في صورة جديدة أو دالة جديدة . هذا ماوجدناه لدى تحدثنا عن العـرَض. وكذلك هي الحال أيضاً في عملية **التصعيد** . فعندما يولع الطفـل باللعب بوسخه صغيراً ، ومن ثم يولع ببناء أبراج من الرمل الرطب ، ومن ثم عندمايكبر ، يلمس في نفسه رغبة جامحة للهندسة المعمارية . نجد في هذه المراحل الثلاثة ، أن العنصر القديم لبث على ماهو عليه ، لكن في شكل متبدل ، ودالة متبدلة . وثمة مثـال آخر حول الطبيب الجراح أو الطبيب النسائي . فالأول يصعد ساديته في إجراء العمليات الجراحية ، والثاني يصعّد لذة النظر واللمس الطفلية .

إن الحكم على صحة هـــذه الوقائع لايقدمه النقد المنهجي ، وانمـا النقد التجريبي وحسب . ان الذي لم يحلّل جراحاً ، لايمكنه معارضةهذاالرأي، بيد أن في وسعه الادلاء باعتراض عام من الناحية المنهجيـــة ، ألاوهو ارتباط نشاط الانسان وعمله بالشروط الاقتصادية الحياتية . لايزعم التحليل النفسيأكثر من أن هذه القوى أو تلك تعمل على التأثير في النشاط . إلى جانب هذا العامل الذاتي ، نجد أن شكل التصعيد يخضع لشروط اجتماعية في الواقع ، لأن المكانة الاجتماعية هي التي تقرر قبل كل شيء ، تصعيد المرء لساديته على صورة جزار أو جرّاح أو شرطي سري . وقد يحدث أن تسدّ الامكانات أمام التصعيد لأسباب اجتماعية ، مما يؤدي عندئذ إلى عدم الرضى عن المهنة ، التي أرغم المرء على مزاولتها من قبل المجتمع ارغاماً .

---

(١) نعني هنا بأن التكرار عملية جدلية فقط ضمن اطار مبدأ اللذة واللالذة . في الواقع يتوجب علينا عدم حصر هذا المفهوم ضمن هذا المبدأ،وقدعمدنا إلىذلكلأننا لمنرغب في فتح الباب مجدداً للميتافيزياء الواقعة خارجاً .

أبعد من هذا على المرء أن يتساءل عن كيفية توافق **الطابع العقلاني** البيّن للنشاط والعمل الانساني، مع **الطابع اللاعقلاني** الذي لا يمكن أن يغفله المرء[1]. إن الفنان يرسم، والمهندس يبني، والجراح يشق، والطبيب النسائي يفحص مرضاه كي يدفع ثمن معيشته، أي لأسباب اقتصادية معقولة. يعدّ العمل علاوة على هذا، عاملاً اجتماعياً، أي معقولاً. لكن كيف يتوافق هذا الأمر مع قول التحليل النفسي، إن العامل يصعّد دوافعه من خلال النشاط الذي يقوم به، وبالتالي يشبع هذه الدوافع؟ لا يقدر بعض المحللين الطابع العقلاني للنشاط البشري تقديراً كافياً. ففي وسع المرء أن يثبت هذا في نظرتهم الحياتية، التي لا تريد أن ترى في نتاج النشاط البشري سوى اسقاطات واشباعات للدوافع.

إن دالة النشاط الاجتماعية تقرر فيما إذا كان النشاط عقلانياً أم لاعقلانياً. إن تبدل طابع الانغماس في العمل من الميدان العقلاني إلى الميدان العبثي اللاعقلاني والعكس، يرتبط بمكانة الفرد حينذاك. إن عمل الطبيب ذاته، الذي يتسم باللامعنى في غرفة الفحص، يغدو في حياته الخاصة، لدى فعل الوصال مثلاً، ذا معنى. وما كان له معنى هناك، يفقد معناه، يفقد طابعه العقلاني، في هذا الموقف الخاص نفسه.

هذه التأملات تفسح لنا المجال كي نفترض أن التحليل النفسي، بفضل طريقته في البحث، يحاول سبر غور الجذور الغريزية لنشاط الفرد الاجتماعي، وبفضل نظريته الجدلية حول الدوافع، يحاول ايضاح الأثر النفسي للقوى المنتجة

---

(١) عقلاني: ماله معنى وغاية. لاعقلاني: ماليس له معنى وغاية، عبثي.

في الفرد . هذا يعـــني ايضاح **تكوّن الايديولوجيات « في رأس الانسان »** ايضاحاً مفصلا . بين القطبين : بنية المجتمع الاقتصادية والبنيةالفوقيةالايديولوجية اللتين استوعب المفهوم المادي للتاريخ لباقة علاقتهما السببية ، بين هاتين النقطتين النهائيتين يدرج الاستيعاب التحليلي النفسي لسيكولوجيـة الانسان الاجتماعي سلسلة من عوامل ارتباطية. في وسعه أن يشير إلى أن بنية المجتمـــع الاقتصادية لاتتحول بصورة مباشرة إلى ايديولوجيات « في رأس انسان » ، بل ان الحاجة الغذائية ، التي تتعلق في صورها الخارجية بالظروف الاقتصادية ، تؤثر في دالات الطاقة الجنسية ، التي هي ألين عريكة منها بكثير . وفي وسعه أن يشير أيضاً إلى أن التأثير الاجتماعي في الحاجات الجنسية يقود إلى ايجاد قوى منتجة جديدة على شكل ليبيدو مصعّد ، في سياق العملية الاجتماعية ، من جراء تضييق دائرة أهداف تلك الحاجات . ويبدو هذا تارة مباشرة على شكل طاقة عملية ، وطوراً بصورة غير مباشرة على شكل نتائج متطورة تطوراً عالياً للتصعيدالجنسي، كالدين والاخلاق عامة مثلا ، والأخلاق الجنسية خاصة ، وكالعلم وغيره .. وهذا يعني إدراج قيّم للتحليل النفسي في ميدان المفهوم المادي للتاريخ ، في نقطة محـددة كل التحديد ومناسبة لموضعها ، أي هناك حيث تبدأ المشاكل النفسية ، الـــتي تظهرها الجملة الماركسية القائلة : إن نمط الوجود المادي يتحول في رأس الانسان إلى أفـكار . إن العملية الليبيدونية الـكامنة في التطور الاجتماعي تتمتع اذن بطابـع ثانوي ، إنها تتعلق به ، وإن كانت تتداخل فيه بصورة حاسمة ، لدرجة أن الليبيدو المصعّد والمعتبر كطاقة عملية يصير الى قوة منتجة .

اذا عدت عملية الليبيدو في منزلة ثانوية ، فعلينا أن نبحث في المعـــنى التاريخي **لعقدة أوديب** . كنا قد وجدنا ، ان التحليل النفسي ينظر إلى العمليات

النفسية برمتها نظرة جدلية ، حتى تلك التي هي غير مشعور بها . غير أن عقدة أوديب بدت وسط هذه الظاهرة المتحركة وكأنها نقطة ثابتة . للأمر سببان : إما أن نعتبر عقدة اوديب واقعة معطاة كامنة في طبيعة الانسان، نازعين عنها الصبغة التاريخية ، فالتغير لايعتريها ، ولايخضع للتغيير . وإما أن الأمر يعود إلى أن الشكل العائلي ، الذي يعلل عقدة أوديب الآن ، لبث على ماهو عليه نسبياً منذ آلاف السنين . ان رأي الأول يعتنقه على مايبدو جونس (Jones) الذي زعم في نقـــاش له مع **مالينوفسكي** (Malinowski) حول العقـدة الأوديبية في المجتمع حيث تسود الحقوق الأموية ، بأن عقدة أوديب هي أصل وأساس كل شيء . Jons et origo إن هذا الرأي خاطىء دون ريب ، لأن الذهاب الى أن العلاقات التي تربط الابن بالأب وبالأم هي علاقات أبدية تبقى على حالها في كل مجتمع ، يتناسب فقط مع الرأي القائل ، بعدم وجود تغيير ما في الوجود الاجتماعي إن القول بأبدية عقدة أوديب يعني أن الشكل العائلي الذي أوجدها هو شكل مطلق وأبدي ، هذا يستدعي إلى الخاطر للحال ، أن الانسانية مطبوعة بالفطرة على ذات الشكل ، كما تبدو لنا الآن . إن فرضية عقدة أوديب تنطبق على جميع اشكال المجتمع الأبوي (حيث تسود سلطة الأب) . غير أن علاقة الأطفال بالأهل تختلف ــ حسب أبحاث **مالينوفسكي** ــ في المجتمع حيث تسود حقوق الأم ، بحيث أنه لايستحق اطلاق هذه التسمية عليه . ان عقدة أوديب ، حسب **مالينو فسكي** ، واقعة مشروطة اجتماعية ، يتبدل شكلها مع تبدل بنية المجتمع . لابد لعقدة أوديب من أن تزول في المجتمع الاشتراكي ، لزوال قاعدتها الاجتماعية ، العائلة الأبوية ، ولفقدان العائلة الابوية حقها في البقاء . إنها فقط مسألة تعريف وحسب . هل يريد المرء الاشارة إلى الميل للفسق بذوي القربى الواقعي ، كما

كانت الحال في العهود السحيقة، ويدعو هذا الميل «عقدةاوديب» ، أو أن يحتفظ بهذه التسمية لتطلق على رغبة في الفسق بذوي القربى خائبة ، وعلى المنافسة مع الوالد الحقيقي ؟ هذا يعني فقط قصر صلاحية قضية اساسية تحليلية على أشكال معينة في المجتمع ؛ لكن هذا يعني في الوقت ذاته ، تمييز العقدة الأوديبية ، على أنها حقيقة مشروطة ، على الأقل في أشكالها ، اجتماعياً ، وفي نهاية الأمر اقتصادياً . إن الفراغ الذي يسود أوساط علماء الشعوب ، حول مصدر الكبت الجنسي ، لم يزل على قدم وساق ، ولم يؤد إلى حل ما . إن **فرويد** الذي اعتمد على نظرية العشيرة البدائية الداروينية في كتابه « توتم وتابو » ، يستوعب عقدة أوديب على أنها علة الكبت الجنسي . بيد أن هذا الرأي لايعطي المجتمع ، الذي تسود فيه حقوق الأم ، حقه . أما موقف أبحاث **باخوفن ـ مورغان ـ انجلز** (Bachofen - Morgan - Engels) فتظهر امكانية اعتبارعقدةأوديب ـ أو بالأحرى الشكل العائلي الذي تنهض عليه ـ عكس الرأي الفرويدي ، نتيجة للكبت الجنسي ، الذي ابتدأ يوماً ما . مهما يكن من أمر : من المؤكد أن التحليل النفسي سيفقد امكانات أخرى في البحث في الميادين الاجتماعية والتربوية ، إذا ما أراد أن يزيل الصبغة الجدليةعن العقدة الأوديبية ، هذه الجدلية التي أماط الستار عنها في المجال النفسي .

الأقصوصة المصرية والحداثة

بقلم : صبري حافظ
– القاهرة

لاشك في أن الأقصوصة تعيش الآن ، ومنذ عدة سنوات خلت ، واحدة من أزهى فترات حياتها وأبهاها . ليس فقط لخصوبة العطاء الفني الذي أنجزته ووفرته وتنوع إتجاهاته . ولكن أيضاً لأنها قد حققت في السنوات الأخيرة قفزات تعبيرية رائعة وضعتها في مقدمة اللوحة الفنية المعبرة عن هموم هذه اللحظة الحضارية وعن أدق تفاصيلها . كما مكنتها من إستشراف هموم الواقع المصري وتقديم رؤية فنية واعية ولاذعة لأهم مافيه من مثالب وعثرات ، بصورة أعمق وأرهف مما قدمته بقية الفنون التعبيرية

مجتمعة . صحيح ان لهذه القفزات التعبيرية جذور جنينية تمتد في أعماق الأقصوصة المصرية لسنوات بعيدة . الا ان ماتعيشه الأقصوصة المصرية اليوم ، ليس مجرد استمرار عادي لهذه البذور الجنينية ، ولكنه في الحقيقـــة تجاوز وتخطي لكل ما أرهصت به هذه البذور من تغييرات ، لكل ماتنبأت به من أشكال واساليب تعبيرية .

لذلك كان من الطبيعي أن تلجأ أغلب المختارات الأدبيـة – سواء على صعيد النشر باللغة العربية أو على صعيد الترجمـة الى اللغات الأخرى – بداءة الى الأقصوصة لتغترف من منهاها الخصيب . وعلى مدى العامين الأخيرين شاهدنا عدداً من المختارات حاولت أن تجمع بين دفتيها نماذج من الأقصوصـــة المصرية الحديثة . كانت بدايتها تلك المبادرات الراغبة في تقديم صورة من الأدب العربي للقارىء الأجنبي ، والتي بدأها جونسون ديفيز بمجموعته (أقاصيص عربية حديثة) التي ترجمها الى اللغة الانجليزية ونشرها عام ١٩٦٨ ، ثم تلتها مجموعـــة أخرى اختارها وترجمها الى الانجليزية أيضاً الدكتور محمود المنزولاي وصدرت عام ١٩٦٩ تحت عنوان (القصة القصيرة اليوم) ثم أعقبت هاتين المحاولتين محاولات أخرى لنشر مختارات عربية للأقصوصـة الحديثة كانت آخرها محاولة (جاليري ٦٨) لتقديم صورة لواقع الأقصوصة المصرية في عددها الأخير عن (القصة القصيرة المعاصرة) .

وتحاول هذه المختارات أن تعكس صورة « أمينة دقيقة » لما في حقل الأقصوصة المصرية من « تيارات وملامح ومدارس » على حد تعبيرها . وهذه في الواقع محاولة طموحة بحق . تخلصت في البداية من أهم القيود التي كانت تستطيع أن تثقل حركتها وأن تحدد مجال الاختيار أمامها عندما تملصت من التقيد بضرورة

نشر أقاصيص لم يسبق نشرها من قبل . واعتمدت أساساً على الكم الوفير من الأقاصيص المصرية المنشورة تختار منه بيسر ودونمـــا قيود . ومن هنا كان من الضروري أن يتخلص اختيارها من كل العثرات بعد ما تحرر من ذلك القيـــد الثقيل الذي يستدعي التحجج دائماً بأن هذا هو أفضل الأعمال الراهنة التي لم تنشر بعد . أو التي وصلت الى تحرير المجلة . وأصبح المجال أمامها واسعاً ، بل ورحيباً لإختيار أفضل الأعمال التي أنجزتها الأقصوصة المصرية الحديثة في سنواتها الاخيرة، وأكثرها تمثيلاً لمختلف ملامحها وتاريخها .

لكن النتيجة التي تمخضت عنها هذه المحاولة الطموحة المتحررة من كل قيد ، جاءت في نهاية الأمر مثقلة بالعثرات والأهواء الشخصية . فبعض الأقاصيص التي ظهرت في هذه المجموعة لاتستطيع أن تبرر ذاتها فنياً . ولم يدفعها الى الظهور في مجموعة مختارات من خمسة عشر أقصوصة سوى المصالح والأهواء الشخصية . لأن قيمتها الفنية لم تكن تسمح لها بالظهور ، حتى في مجموعة من ثلاثين أقصوصـــة مصرية . كما أن الاختيار ذاته جاء محدوداً بنظرة ضيقة الأفق لم تستطع أن تجمع ، في مجال رؤيتها ، كل التيارات والإتجاهات التي يجيش بها حقل الأقصوصة المصرية اليوم . بل ركزت على تيار واحد دون غيره من التيارات الأخرى ، بل وعلى حسابها .

ومن البداية نجد أن الأقاصيص التي تضمنتها المجموعـــة لم تحقق الهدف الذي رغبت في تحقيقه والذي أعلنت عنه في تقديمها للعدد فقد حدد هذا الاختيار في اعتقادي ، نظرة أحادية الجانب لم تفتح عينيها برحابة ووعي على واقع الأقصوصة المصرية المعاصر . ومن ثم فقد أغفلت ، ليس عدداً من الكتاب الجيدين فحسب . ولكن أيضاً عدداً من التيارات والملامح الهامة في ميدان الأقصوصـــة المصرية

المعاصرة . بينما عمدت في الآن نفسه الا تضخيم بعض الاتجاهات بشكل سرطاني، وخاصة تلك الاتجـــاهات التي لا تحظى في واقع الأقصوصة المصرية اليوم بغير مكان شديد الثانوية . أو ربما بلا مكان على الإطلاق . ولو قالت المجلة في تقديمها أنها تحابى بعض الاتجاهات دون البعض الآخر ، وأنها تركز على تيار بعينه لأنه في إعتقادها يستحق هـــذا التركيز . لكانت في الحقيقة أقرب الى الأمانة مع نفسها . ولسمت الأشياء بسمياتها الحقيقية . لكن أن تحاول إلباس أهدافها ثوب الأمانة الموضوعية والعدالة المطلقة والنظرة النقدية العميقة التي تختار الأعمال لمكانتها الموضوعية ولأنها تمثل شيئاً له قيمة في الواقع . فهـــذه مماراة في الحق لا جدال فيها . وإلا فقل لي بالله عليك ما الذي تمثله في واقع الأقصوصة المصرية اليوم أعمال خليل كافت أو الإبراهيميين منصور وعبد العاطي أو جميل عطية ؟!.

فالقصص التي قدمتها هذه المختارات لا تقدم في الحقيقة سوى وجه واحد من وجوه الأقصوصة المصرية المعاصرة وهو ما يمكن تسميته تجاوزاً بالإتجاه الكافكاوي .. وليس المهم هنا هو التسمية بقدر ما تعنيه هذه التسمية من مضمون . فهذه التسمية تصبح في الواقع شيئاً لا قيمة له إذا لم نستطع أن نحـــدد دلالتها وفحواها . فهذا الإتجاه لا يتبنى رؤية كافكا وأسلوبه بشكل كامل – وإن كانت هذه الرؤية برغم كل شيء هي أوضح ما فيه - لكنه يمزج بين تعبيرية كافكا الشاعرية وبين المضمون الفكري والأسلوب الفني لأدب الإغتراب كما تقدمـــه الإنجازات العديدة الحديثة لهـذا الأدب والممتدة من البير كامو حتى سالينجر وصول بيلو . مضافاً الى هذا كله أمشاج من فهم مغلوط غالباً لرؤية همنجواي لقضايا العنف والجنس والمجالدة الجسدية ولبعض من أسلوبه في الرؤية البصرية التي تركز على الخط المباشر بين العين والموضوع وتهتم بملامح الأشياء الخارجية .. من

كل هذه الأشياء مجتمعة يكون هذا الاتجاه رؤيته في محاولة منه لتقديم جهامة العالم وإفتقاره العميق للمنطق وتنامى تيارات العنف فيه وسيطرة الأوضاع المغلوطة على مقدراته وإختلال سلم القيم فيه وميزانها . في مواجهة براءة الانسان وبساطته المتناهية . . هذه المواجهة هي التي تجعل هذا الانسان يعيش غالباً في بؤرة الدهشة الدائمة العاجزة عن الفهم . مما يدفعه الى أن يلوذ دائماً بالشاطىء خوفاً من الانخراط في دوامات التيار ، أو إحساساً منه بافتقاده خبرة مصارعة الأمواج . والى أن يؤثر العزلة ويكتفي بدورشديد الهامشية برغم رفضه الداخلي الدائم لهذه الدور وتوقه العارم لتجاوزه . وهذا الاتجاه لا يركز كثيراً ، بل غالباً ما يتعمد ، إغفال الحديث عن الدوافع الاجتماعية التي أدت الى فقدان هذا الواقع لشروطه الانسانية . ولكنه يهتم بهذا النفور الداخلي ، الذي يبدو وكأنه غريزي ، من العالم الخارجي . نفور يرجع دائماً الى إبتعاد الكثير من تفاصيل هذا الواقع وأسراره عن تصورات هذا الانسان ومدركاته . مكتفياً بالتعامل معه بأحاسيسه وحدها دون عقله . وبالوقوف دائماً في جانب الصورة دون التصور ، في جانب الحدس دون الادراك . . هذه بشكل عام هي ملامح ذلك الاتجاه التي آثرت مختارات (جاليري ٦٨) القصصية أن تبرزه وتؤكد سيطرته على واجهة الأدب الحديث . محاولة تقديم شتى الروافد التي ترتوى منه أو تصب فيه . ففي قلب هذا التيار يمكننا أن نضع أغلب قصص المجموعة بغض النظر عن مدى نجاح هذه القصص في إستكناه جوهره أو توفيقها في استخدام أدواته الفنية — وعلى مسافات متقاربة منه يمكننا أيضاً أن نضع أغلب الأقاصيص الباقية باستثناء قصة أو قصتين . فحتى الأقاصيص القليلة التي يمكن أن ندرجها في تيار الواقعية الاشتراكية بمفهومها الناضج والمتطور ، نلمس فيها مسحة باهته حيناً واضحة حيناً

آخر من هذا الاتجاه الكافكاوي المثقل بالاغتراب ... وبصفة عامة فان محاولة هذه المختارات لبلورة تيارات الحداثة التي تسري في أوصال الأقصوصة المصرية المعاصرة ، لم تبلور لنا سوى تيار واحد ، وخاصة من الناحية الفكرية .

والحقيقة أننا لا نستطيع أن ننكر أن هذا الاتجاه ، هو في الواقع وجه من وجوه تيارات الحداثة التي تعيشها الأقصوصة المصرية اليوم ، ولكنه ليس كل وجوهها . وقد كان على هذه المجلة التي تستهدف تجديد الكتابة واستطلاع وجه الأدب الطليعي الشاب - كما تقول دائماً على ظهر غلافها - أن تقدم هذا التيار الأقصوصي الى جانب غيره من التيارات العديدة التي تعطي مغامرة المصرية مع الحداثة كافة وجوهها . وما كان يحق لها أن تتجنب مثلاً ذلك الاتجاه الذي يعبر عن أصفى ما وصلت اليـــه الواقعية الاشتراكية من قيم فنية وفكرية معاً . والذي يبلور دور النحن الجماعية في صياغتها لشتى نزعات الأنا الفردية وفي كبحها لجماحها معاً . ويتقصى الروافد الحضارية للحدث الفني على خلال متابعته الحساسة وإلتقاطه الذكي لأدق جزئياته وأكثرها ايحاء بالدلالات . هذا التيار الذي يكاد ، لتباينه الشديد عن ذلك الأدب الفج الذي روجتـــه دعايات وكتابات اليسار الساذجة في الخمسينات ، أن يكون تياراً جديداً تعيش الأقصوصة المصرية لأول مرة مرحلة ميلاده على يدي أبو المعاطي أبو النجا ، وخاصـــة في مجموعته الرائعة (الابتسامة الغامضة) ، وعبد الحكيم قاسم ومحمد البساطي . وما كان لها أيضاً أن تتجنب ذلك الاتجاه الخصيب الذي يقف فوق الأرض التراثية الصلبة التي كونتها الأقصوصة المصرية في رحلتها الطويلة للبحث عن الشخصية المصرية في الفن والحياة . والذي يستشرق آفاق حياتنا الراهنة بكل ما فيها من توفر وإحباط . دون اللجوء الى أي من الحيل التكنيكية الحديثة أو المستهجنة . وبالتركيز على كل

الأساليب البنائية التي استطاعت برغم حداثتها النسبية أن تكتسب صفة التقليدية . والذي قدم فيه عبد الله خيرت وزهير الشايب وعز الدين نجيب والدسوقي فهمي وإسماعيل البنهاوي بعض الاستقصاءات الهامة والجديرة بالالتفات أو تتجنب كذلك الاتجاه الاصيل الذي ارتوى من رؤية همنجواي التراجيدية لإنسان هذا العصر في جسارته ومجالدته ونبالته في مواجهة الآلآم الجسدية والروحية بشكل عضوي حاد يتبنى مقولات علم النفس السلوكي عن الفعل وردوده . والذي قدم سليمان فياض ، في معظم الأقاصيص الجيدة التي قدمها وليس في الأقصوصة المختارة له في المجموعة والتي لا تمثل إتجاهه الأثير ذاك ، أهم ملامحه . كما تجنبت أيضاً ذلك التيار الذي حاول بلجوئه الى الاسطورة أن يعتمد على امتداداتها الأصيلة في الوجدان القومي ، وأن يستفيد من الرصيد الانفعالي الثري المرتبط بها . حتى يعبر من خلالها عن رؤيته لهموم واقعه . تلك الرؤية التي تدخل الرغبة في التنكر والتخفي ضمن مكوناتها الأساسية . والتي نلمسها في عدد كبير من القصص وإن لم يعيها كاتب نفسه بشكل كامل .. تجنبت كل هذه الاتجاهات وغيرها لتعبر عن تحيزها لإتجاه بعينه ، ولتحاول فوق الأعمال الفنية الناضجة التي قدمها هذا الاتجاه أن تفسح مكاناً وسط اللوحة ، لعدد من الأعمال المتهافتة أو الاعمال التي لم تصل بعد مرحلة النضج .

ولنبحث الآن نوعية المعطف الذي خرجت منه أقاصيص ذلك التيار والتي أثارها الاستاذ إبراهيم فتحيه في دراسته المليئة بالقفزات والتعميمات والتي تجنبت خوض نقاش حاد حول هذه المسألة مؤثرة استخدام بعض الفتات المتساقط من مائدة القاموس الطبي - التقلصات المهبلية والرمد الربيعي . الخ - أو بعض التعبيرات المستعارة - بخفة دم واضحة - من قاموس الزراعة وبقايا الكليشيهات

الاعلانية .. وكلها في الواقع أشياء غائمة المعنى مائعة الدلالة . وقد ملأ هذا المنهج التعبيري مقال الكاتب بإحالات عديدة غامضة عن أناس يقصـدهم ولايجرؤ على الإفصاح عنهم ، وكأنه يتجنب باستمرار تسمية الأشياء بمسمياتهاالحقيقية. وبالرغم من أنني أوافق على الكثير من الأفكار التي تناولها في دراسته وخاصة في جزئها التطبيقي الأخير ، إلا أنني أرى أن قضية المعطف التي أثارها وحاول فيها أن يهاجم يوسف ادريس - على الماشي – وأن يوازن بين الاتجاهين المتعارضين حول هذه القضية عندما قال ان عبارة محمد حافظ رجب « نحن جيل الاساتذة » لايقل نصيبها من الصدق عن نصيبها من المبالغة . « فهي تصدق في القول بان الاتجاهات الجديدة ليست مجرد استمرار لما سبقها ، ولكنها تغفل أنهـا تعلمت أو استفادت قليلاً أو كثيراً من التجارب القديمة » . « وان كتابنا الجـــدد ليسوا استمراراً للاتجاه التقليدي من ناحية الرؤية الفكرية ، ولم يقفوا عند اساليبهم في التعبير رغم انهم يقفون عليها » .. أقول أنني أرى أن هذه القضية في حاجة الى مناقشةواضحة لان أغلب تيارات الحداثة التي يمور بها وجدان الاقصوصة المصرية اليوم . هي – في اعتقادي – استمرار لتيارات أصيلة قديمة أو نمو لبذور جنينيةولدت داخل هذه التيارات القديمة وكانت في حاجة الى التطور والاستمرار .

أما إذا كان من الضروري ان نبحث عن معطف واضح تنحدر فيـــه تيارات الحداثة في الأقصوصة المصرية المعاصرة ، فإنني اعتقد أن الأقصوصة العربية الحديثة بأسرها ، لاالمصرية وحدها ، تنحدر من معطف يوسف الشاروني وخاصة من تلك المجموعة الرائعة من الأقاصيص التي بدأ نشرهـــا في أواخر الأربعينيات تحت عنوان (أيام الرعب) والتي نشرت معظم أقاصيصها فيمابعد في مجموعته الأولى (العشاق الخمسة) التي صدرت عام ١٩٥٤.. فمن هذهالاقاصيص

وخاصة من (دفاع منتصف الليل) و (الطريق الى المعتقل)و (سرقة في الطابق السادس) و (أيام الرعب) – التي غير يوسف السباعي عنوانها وعنوان المجموعة كلها بالتالي ، خضوعاً للمواصفات التجارية ، إلى (العشاق الخمسة) – و (هذيان) و (القيظ) وغيرها .. أطلت البذور الجنينية التي أثمرت الاتجاهات الجديدة في الأقصوصة العربية بأسرها . والتي تتلمذ عليها كل كتاب الأقصوصة العربية الناضجين .. من فؤاد التكرلي وسركون بولص في العراق ، الى زكريا تامر ووليد اخلاصي في سوريا الى غسان كنفاني في فلسطين إلى حليم بركات في لبنان .. ثم الى الجيل الجديد في الاقصوصة المصرية والتي تقدم لنا (جاليري ٦٨) عدداً من وجوهه البارزة . والحقيقة أن آثار يوسف الشاروني الكبيرة على الأقصوصة لم تظهر في مصر الا بعد وقت متأخر نسبياً . بل إنني أزعم أن أحداً في مصر لم يتنبه إلى الثورة الكبيرة التي أحدثها يوسف الشاروني في أدوات التعبير ومنهج وأسلوب التفكير والرؤية في الأقصوصة ، غير إدوار الخراط الذي بقيت أعماله في الظل – هو الآخر – لفترة طويلة ، والذي أضاف بمجموعته (حيطان عالية) ١٩٥٧ الكثير الى الثورة الكبيرة التي فجرها يوسف الشاروني في حقل الاقصوصة منذ أواخر الاربعينيات .. كان هذا في الوقت الذي تنبه فيه كثير من الكتاب في العالم العربي الى الثورة التعبيرية الكبيرة التي أحدثها الشاروني في الأقصوصة غداة وقوعها ، بل عشية انفجار شراراتها الأولى . وظلت مصر غارقة ، لسنوات طويلة ، حتى أذنيها في براثن ذلك الفهم الساذج للفن والحياة معاً ، والذي سماه دعاة اليسار القادمين الى الأدب من طريق السياسة ، الواقعية الاشتراكية ، والذي أله الكتابات الفجة والسطحية لعبد الرحمن الخميسي وعبد الرحمن الشرقاوي ومحمد صدقي وغيرهم . والذي ساهم ، وهذا هو الأنكى والأمر ، في خلق فاصل

عميق أدى إلى تأخير حركة البعث والتجديد التي تعيشها الأقصوصة المصرية اليوم عن موعدها أكثر من عشر سنوات. إذ كان يجب أن تبدأ هذه الحركة، كاستمرار ليوسف الشاروني في الخمسينات بدلاً من ظهورها المتأخر في أواخر الستينيات .

لذلك فان جهود هذا الجديد تتركز كلها ، في محاوله صادقة منه لأن يتخطى تلك المرحلة الساذجة في تاريخ الأقصوصة المصرية ، وأن يرتد الى يوسف الشاروني ليحقق استمرار الأقصوصة بعده ، وينطلق بها من النقطة التي تركها عندها يوسف الشاروني . وان كان لم يستطع بعد أن يتجاوز انتاج هذا الفنان الكبير في مرحلته الاخيرة والتي تمثل رائعته (الزحام) ذروة نضجها وتألقها .. اللهم الا في تلك الأعمال القليلة التي استطاعت أن تبلور لنفسها فهماً ذاتياً له طعمه الخاص وله اصالته ، مثل اعمال إدوار الخراط وبهاء طاهر وسليمان فيـاض وأبو المعاطي أبو النجا وابراهيم أصلان .. وغيرهم . وتؤكد هذه الأعمال الناضجة بالدرجة الأولى أن هناك جيلا جديداً من الكتاب يقتحم ميدان الأقصوصة ليقدم للقارىء فهمه الجديد وأصالته ورؤاه . وهو جيل جديد بحق. جديد في رؤاه وفي أفكاره وفي أسلوبه للتعبير عن هذه الأفكار والرؤى . ولكنه برغم جدته الكاملة تلك ليس مقطوع الصلة بأي حال من الأحوال بالأرض التراثية الغضة التي كونتها الأجيال السابقة من كتاب الأقصوصة المصرية في رحلتها نحو تأصيل هذا الفن في مصر ونحو بلورة ملامح قومية ومميزة له .

ولنحاول الآن استكشاف رؤية هذا الجيل من خلال تناولنا التطبيقي لبعض الأعمال البارزة التي تضمنتها مختارات (جاليري ٦٨) .. ومن أبرز هذه الأعمال في اعتقادي قصة (الخطوبة) لبهاء طاهر والتي نجد فيها بناء فنياً معجزاً ، شديد البراعة والعمق لموضوع ملىء بالشاعرية والتركيز . موضوع

يبدو للوهلة الاولى شديد البساطة ولكنه ما يلبث أن يتكشف بليونة ويسر عن مغامرة مرعبة في الاعماق البشرية . دون اللجوء ولو مرة واحدة لتلك الكلمات المبهمة عن الاحاسيس الغامضة التي تستشعرها الشخصية .
ولكنه يقدم لنا أعماق الشخصية والموضوع معاً من خلال الفعل والحدوث .
ومن خلال الحوار الذكي الحساس الذي تنكشف أمام ضرباته الهادئة القوية مساحات شاسعة من أعماق الشخصيات . والذي تتميز به كتابات بهاء الطاهر القصصية بشكل عام . وبدلاً من تكرار الكثير من الأفكار التي قدمها الاستاذ غالب هلسا في تحليله الذكي الرائع لهذه القصة المدهشة . أحب ان أقول بداءة أنني متفق معه جملة وتفصيلاً في رؤيته لهذه القصة وفي تحليله لأبعادها ولطبيعة فهمها لقضية الإغتراب كما أتفق معه ايضاً في تحليـــله الحساس لقصة إدوار الخراط (آخر السلة) والتي أعتبرها واحدة من أجمل الأعمال القصصية التي قدمهـا الأدب العربي الحديث .
ولما كنت قد تحدثت من قبل عن أعمال سليمان فياض ومحمد حافظ رجب ومحمد ابراهيم مبروك وأحمد هاشم الشريف وجمال الغيطـــاني الذي تفوق على نفسه في أعماله الأخيرة هو ومحمد البساطي ويحى الطاهر عبد الله والذي سأدرس أعمالهم الأخيرة كل على حدة في دراسات قريبة . فانني سأحاول أن أتناول هنـــا قصتي إبراهيم أصلان وعبد الحكيم قاسم بشيء من التفصيل لانهما في إعتقادي تقدمان ملمحاً بارزاً من ملامح الأقصوصة المصرية اليوم .

ولنبـدأ بقصة ابراهيم أصلان (في جوار رجل ضرير) .. وهذه القصة لاتمثل أنقى خصائص إبراهيم أصلان الفنية والمضمونيـة والتي تبلورت في أقاصيصه العديدة الناضجة مثل (رائحة المطر) و (بحيرة المساء) و (الملهى القـــديم) و (الرغبة في البكاء) و (التحرر من العطش) وغيرها . بقدر ماتمثل وطأة الإتجاه

الكافكاوي على أسلوبه الفني الأصيل .. وتصحبنا هـذه القصة في رحلة مع رجل لايحدث عن حياته شيء . أو بالأحرى تحدث بعض الأشياء التـافهة والتي تعمق إحساسه بالمرارة واللاجدوى . رجل كل متاعه تمثال وقوقعة . يبـدأ رحلته من ذروة الإدراك بلا معنى حياته ، وبأن من الضروري ان يضع حـداً لهذا الضياع فالوقت يمضي ومن ثم يبدأ رحلته . وهي رحلة تقف فيها القصة عند الشعرة الرقيقة الفاصلة بين العادي والمرضى ، في محاولة ذكية حساسة لإقتناص مجموعة من اللقطات السريعة المركزة التي تساهم في تجسيد التطورات الموقفية في سلوك الشخصية من جهة ، وفي بناء الحدث موضوع القصة من جهة أخرى . فهي تبدأ من ذلك التقرير اليقيني الحاسم (لم يحدث شيء) والذي يقدم الشخصية في ذروة وعيها بلا جدوى حياتها وإدراكها لطبيعة سلوكها . ثم تنتهي بها في النهاية بعد أن تحطم يقينها ووقفت مشدوهة عاجزة عن تفسير ماتراه أمامها بصورة إدراكية وإن سبرت كل اغواره بشكل حسي . هذه الرحلة الطويلة القصيرة معاً والتي تقدمها القصة في تسع لقطات صغيرة مركزة لاتقدم في شكلها المحبوك ذاك طبيعة القصة البنائية ، بقدر ماتقدم طبيعتها الفكرية وموقف بطلها من العالم ورؤية كاتبها له . فالبناء في هـــذه القصة جزء أساسي من موضوعهـــا . بل هو الوجه البنائى له . فأجزائها تضطرد في نمو مستمر من ثلاث كلمات في القسم الأول الى سطرين في القسم الثاني .. ويستمر النمو الكلمى في الإطراد حتى القسم السادس كمعادل بنائي للنمو الداخلي للشخصية ولتيقظ المساحات الغافية في أعماقهـا تحت وطأة الركود والملالة .. وعندما ينفلت منها العقال وتتخبط في دياجير وهم متربص لافكاك منه ، وهم قاتل قاس أشد ضراوة من الحقيقة ذاتها . يختل البناء نفسه ويتراوح بين القصر المفرط والطول المفرط ليؤكد لنا إختلال كل المعايير تحت ضربات

الخوف وفقدان الأمان . فهذه الرحلة التي تبدأ من رحابة الحياة التي لايحدث فيها شيء برغم إكتظاظها الرهيب بالبشر وتنتهي بهذا السطح الموحش المليء بالمخاوف والإستوابات الغامضة . هي في الواقع رحلة إنسان عصرنا الحالية دوما المشدودة أبداً بالقعود دونما أمل . هي الرحلة العاجزة الضئيلة التي تفتح العالم امامنا على اشياء أكثر رعباً وإيلاما من تلك التي رفضناها فيه وأردنا إجتيازها وتخطيها . فواقع بطلها الجديد ، ذلك المسافر الذي لاتصحبه سوى حقيبته ، أكثر بشاعة من ماضيه . وربما ، بل وغالبا ، ماستكون رحلته القادمة التي تركناها في نهاية القصة قبل أن يخوضها اشد قتامة من الإثنين . برغم أنها تبدأ بعد أن تحطمت القوقعة - وإن لم يتحطم التمثال بعد - من هول المكاشفة الحسية التي عاشها بطلها في لحظة النهاية . والتي كشفت اعماقه هو قبل أن تكشف طبيعة الرجل الضرير الذي يعكس عماه عمي البطل نفسه ومعاناته .

أما قصة عبد الحكيم قاسم (حكايات حول حادث صغير) فانهـــا في اعتقادي تمثل أنضج ماوصل اليه تيار الواقعية الاشتراكية من أعمال . انهاتكشف - عكس الكثير من أقاصيص الشبان عن خبرة عميقة بالحياة . وعن فهم كامل للأسلوب الذي تصوغ به النحن الاجتماعية ملامح الأنا الانسانية في شتى تذبذباتها من أقصى درجات التمرد الى أرسخ درجات التقوقع والانكماش . وعن قدرة بارعة على تصدير جذور وفروع الموقف الانساني المتناهية الصغر والتي تخفى حتى عن العين الخبيرة الفاحصة . إن القصة تقدم بأنضج اسلوب عرفته الواقعيـــة الاشتراكية حتى اليوم فهمها الذي يتبنى الرؤية العلمية للعالم والذي يكشف عن الجذور الاجتماعية لكل موقف إنساني . وهي تقدم كل هذا من خلال اقتناص التموجات والدوائر التي تحدثها سقوط حصاة ذلك الحادث الصغير (حادث موت

انسان) على عدد من الأسطح الساكنة . ومن خلال تشابك هذه الدوائر التي تحدث فوق اسطح مختلفة تبدو الوهلة الأولى وكأنها منعزلة بينما هي في الواقع شديدة التداخل والترابط ، يتكون موضوع القصة الرئيسي . وهو عجز أغلب نماذج البرجوازية الصغيرة عن مواجهة متمرد طائش من بينها . واكتشافها لتفاهة حياتها عندما سقط هذا المتمرد - ميتا - وحده ، محققاً أحلام الجميع على إختلاف نوعياتهم - في التخلص منه . وفي المأتم يكتشف الجميع ان هذا المتمرد الذي نبذته تلك الشريحة الهشة من الطبقة البورجوازية ، أقوى منهم جميعاً . لأنه استطاع أن يصنع لنفسه عالمـــاً كاملا من الأصدقـــاء الحقيقيين ، أكثر صلابة من عالمهم الحسن ذاك .. ومن ثم ينفتح باب المراجعة على مصراعيه وتولد جرثومة الشك الهلاكة في كل شيء ، فيراجع كل منهم تفاصيل حياتـــه ، ولكن دون أن يملك أي منهم القدرة على مواجهة مافي هذه الحياةمن عفن وزيف. ومن ثم يستمر الجميع سادرين في عماهم الحسي والعقلي معاً وتنحسر التموجات التي أحدثتها الحصاة فيعود للسطح هدوءه واستكانته . ولكن هيهـــات . فالحصاة التي حركت السطح قد استقرت في الأعماق .. هزت كل مافيها وأكان أفول زلزلته .

وتعمد القصة الى ما يمكن أن نسميه بالبناء السيمفوني .. الى مجموعة من الحركات التي تبدو مستقلة ومنفصلة . ولكنها تصنع بتآلفها وتنافرها معاً هذه السيمفونية المليئة بالأنغام . والتي تظل نغمتها الرئيسية شاخصة في خلفيـــة كل التنويعات النغمية التي تعزف على اللحن الرئيسي . تبدأ بتلك الحركة التي تقابل الحركة الاولى في صيغتي السيمفونية والسوناتا ، والتي تعد مفتتحاً نغمياً يقودنا الى عالم من الأنغام المتشابكة دون أن يكون له دور رئيسي في هذا العالم الرحيب .. وهذا المفتتح في القصة هو (الفتاة العمياء) التي تردد القرآن كأسطوانة مشروخة

والتي نحس من خلال قرون استشعارها بأرهاصات الحدث و كأنها عواء الكلاب المؤذن بقدم الزلزال .. إننا نسمع من خلالها تنبوء الميت بموته الوشيك و كأنه نبي . وبعد هذا المفتتح نداف الى عالم القصة مباشرة عندما تلقى الحصاة بسرعة ، و كأنها جمرة حارقة ، عبر سماعة التليفون « أخوك مات » فيرتجف السطح الساكن وتتهدل هشاشته الصلبة تحت وطأة الخبر وتحت الحاح الهواجس الليلية التي أنبتت بذور القلق وأجنته عندمابرز التساؤل .. ترى هل يموت هو الآخر؟!.. وعندما بدأ يرى في رأسه مشروع السفر الاجباري من الاسماعيلية الى القاهرة في الصباح .. ثم تتوالى الدوائر فوق الأسطح الساكنة (ففي تلك الفيلا البعيـدة) التي يسكن فيها صاحب المصنع الذي عمل عنده الميت فترة ، تحرك الحصاة نفس السطوح الهشة الساكنة ، ونلم مع كل حركة منهـا بشيء من تفاصيل حياة ذلك الثائر الفرد المتمرد على كل شيء الرافض لكل شيء . ويتفتح أمامنا بالتدريج عالمه الذي سيطل علينا في إكتماله المبهر في اللوحات الباقيـــة . . « عند بائع الأكفان » ومن خلال تلك « الوجوه المتزاحمة » حتى يبلغ ذروته عندما يتيقن الجميـع من أن هذا الذي رفضوه وتمنوا موته (لن يعود أبداً) .. فينطلق منهم ذلك الصراخ الكاسح الملتاع الذي يبدو لنا فيه و كأن كل واحد منهم يصرخ على نفسه .. على حياته المضيعة والتي انكشف زيفها تحت وطأة هذا الحادث الصغير الكبير ... وبالرغم من انتماء قصتي عبد الحكيم قاسم وإبراهيم أصلان إلى تيارات أخرى في الأقصوصة المصرية، فإننا نلمس فيها وطأة ذلك الإتجاه الكابوسي الثقيل .. والذي أوضحنا معالمه في بداية هذه الدراسة .

إدغار آلان پو

شاعر الحلم والواقع

د. أحمد سليمان الأحمد

أعمـــال إدغار آلان بو تختلف فيها الآراء والأقوال ، ولعلـّها ما برحت حتى يومنا هذا علـّةً للجدل والنقاش . بعضهم يرى فيها شيئاً لا يكاد يتخذ له مكاناً مرموقاً في تاريـخ الفكر الأمريكي،وبعضهم يرى فيه الصحافي الذي جاهـــد الحياة ، وعرف مرارتها ، وذاق فقرها ، ولجأ الى الخمرة يغرق فيها آلامه ، والى المخدرات تطفو من خلالها أوهامه .

ولكن كثيراً من النقاد ، وخاصة خارج أمريكا ، رأوا في إدغار آلان بو الكاتب العظيم ، والعبقري الذي لا يجارى ؛ كما اجتهد غيرهم في تفسير أعمال « بو » على ضوء نظرياتهم في عالم الطب أو التحليل النفسي، وإخضاع إبداعه الى نوع من المعادلات الرياضية .

وهكذا امتدت اللائحة التي تحمل أسماء من كتبوا عن إدغار بو ، حتى ليَبْعدُ ما كُتِبَ عنه أضخم ما كتب في الأدب الأمريكي عن شاعر أو كاتب. وحَسْبُنا الآن أن نحيطَ سريعاً بأهمّ خطوط حياته ، وأن نرسم سماته الانسانية، وأن نحدد أسس شهرته .

ولد إدغار بو في « بوسطن » في التاسع عشر من كانون الثاني (يناير) عام ١٨٠٩ ، من أبوين يعملان ممثلين متجولين . كانت أمه مغنية وراقصة مرموقة حائزة على تقدير الجمهور . وكان والده من أسرة لها باع في الوطنية كما في الأعمال التجارية . ولكنه آثر ، على كل ذلك ، العمل المسرحي . ففقد إرث العائلة ولم يربح مجداً في الميدان الذي اختار ، ذلك لأنه لم يصبح أبداً ممثلاً مجيداً ، وهكذا انصرف الى الخمرة لينسى الفشل الذي لازمه .

كان الشاعر ثاني إخوة ثلاثة شبّوا دون أن ينعموا بدفء الحياة العائلية، لأن والدهم لم يُعمَّرْ طويلاً ، ولأن أمهم كانت محمولة ، كي تؤمّن لهم الحياة ، على أن تواصل العمل في مهنتها ، متنقلة من مدينة الى مدينة . ورغم ذلك فقد كانت تجد نفسها أحياناً كثيرة بحاجة الى العون ، يقدمه لها زملاؤها على شكل حفلات خيرية ؛ الى أن اجتاحها المرض واحتملها الموت من غرفتها الحقيرة الرطبة في حي بائس محروم من أحياء مدينة ريشموند .

وتوزع الأطفال الثلاثة على بعض الأسر من الأقارب ومن ميسوري

الحال في المدينة ، وانتقل إدغار ، وهو في الثالثة من عمره ، الى منزل التاجر الغني ، جون آلان ، فأحاطه هذا الأخير ، هو وزوجته ، بعناية ومحبة فائقتين . وأفاضا عليه من حنانيهما ، خاصة وأنهما لم يرزقا ذرية . وكان صوت إدغار العذب حافزاً لأبويه الجديدين على أن يحملاه على إلقاء مقاطع من مؤلفات « سكوت » و « شكسبير » ، الشيء الذي أنمى فيه ، منذ الصغر ، محبة الأدب والتعلق بالجمال الفني .

وتطورت أعمال « آلان » ، ودعته للسفر الى انكلترا حيث اصطحب زوجته وولده المُتَبَنّى «إدغار» . وهناك ، على مقربة « من لندن » ، أقام الفتى في مدرسة داخلية وأبدى ذكاء وألمعية ، ولكن أساتذته كانوا يأخذون عليه ، أو على أبويه،أنهما مُسرِفان في تدليله ، وأنهما يبذلان له المال الوفير،الشيء الذي يجذبه الى أنواع عديدة من الأخطاء ، وربما الخطايا .

بعد خمس سنوات من هذا التاريخ ، كان على آلان أن يعود من جديد الى « نيويورك » ، وكانت أعماله قد أخذت تسير في دربٍ بعيدٍ عن الازدهار القديم ، ولكن الطفل واصل تردده على المدارس ، وتميز بين أقرانه بامكاناته الفكرية ، وجمالهِ ومهارته في المبارزة والفروسية والسباحة ، وأخذ ، المرة الأولى ، يتعلم كتابة الشعر باللغة اللاتينية ، كما استطاع أن يكتسب لنفسه ، دون كبير عناء ، المركز الأول في الصف .

في هذه المرحلة افتُتِنَ بأشعار « بايرون »و« مور » و « ورد زورث » و « كيتس » . وأقبل على علم الفلك يهبه ساعات طويلة . ومن على شرفة منزل أبويه كان يطيل التحديق في النجوم من منظار هناك ، وكان يتأمل ، طوال ساعات ، وجه القمر « الفضي الميت » .

كان إدغار بو قد بلغ السابعة عشرة من عمره ، وكان والده قد ورث ثروة كبيرة ، وكان الفتى يُعتبر الوارث الجديد لهذه الثروة ، وكانت أبواب البيوت الكبيرة إذ ذاك تُفتح له بهذه الصفة ، ولم يصرفه ذلك عن الاهتمام بدراسته وثقافته ، فكان يعمل بجد واجتهاد ، يقرأ كثيراً بالانكليزية واللاتينية والفرنسية ، ويتعلم الإيطالية والألمانية . ولكنه ، بالمقابل ، لم يُبْدِ أي اهتمام بالعلوم السياسية ، رغم أن هذه العلوم كانت تجتذب اليها إذ ذاك الكثير من الشباب المثقف ، وذلك بتأثير « جيفرسون » الذي كان يُعتبر « كونفوشيوس أمريكا » .

ولكن دراسته ما كان لها أن تسير سيرها الطبيعي . ذلك لأن جون آلان الذي ضم إليه الطفل إدغار بو بعامل الشفقة والإحسان لم يكن ليفهم هذا الفتى ، ولم يعد يسترسل في طيبته وكرمه إزاءه ، بل أخذ يرفض تأدية مايترتب على الطالب من أقساط ومصاريف في المعهد. ولجأ إدغار بو الى المقامرة وتكدست الديون عليه ، ورفض أبوه أو كافله أن يدفع ، واضطر الفتى الى مغادرة المعهد والمدينة تحت اسم مستعار .

وأقبل إدغار بو على الشراب ليخفف من ثورته النفسية . ولكن الخمرة كانت ذات تأثير رديء على صحته ، وكانت تقذف بـه الى مثل هوة الجنون . إنه الآن وحيد يجابه الحياة مفرداً ، كالبعير المعبد الذي عناه طرفة بن العبد ، وأصبح ما يريده ، وهو في الثامنة عشرة من عمره ، أن يثبت مركزه ككاتب. وهكذا ، في بوسطن ، حيث حط رحاله ، صادف ناشراً شاباً ، وافق على أن ينشر له ديوان شعر بعنوان « تيمورلنك وقصائد أخرى » .

صدر الديوان دون أن يحمل اسم مؤلفه ، ولم يصادف أي اهتمام من

القراء ، ولم يكلف النقاد أنفسهم عناء الكتابة عنه . وكان « بو » قد رسم نفسه من خلال سمات الفاتح الطموح العاشق. ومثلما عاد « بو » الى مدينة « ريشموند » ليجد صديقته « إلميرا » وقد تزوجت رجلاً غنياً ، عاد تيمور الى سمرقند ليتزوج « آدا » ويضع عند قدميها العالم الذي فتحه ، ولكنه وجدها ميتة .

وقف « بو » في مواجهة الحياة ، بلا مال ولا أصدقاء . وكان عليه أن يقرر وأن يقدم، فلم يجد حلاً آخر إلا بالانخراط في الجيش الأمريكي كجندي بسيط . وخلال عام ونصف العام رفع الى رتبة « مساعد » في الجيش . واتخذت فرقته مقراً لها في أحد مواقع ولاية « كارولين » ، ووجد «المساعد» المجال فسيحاً أمامه كي يحلم ويكتب .

وفي هذه الأثناء حملت المنون السيدة « آلان » ، ولم يصل النبأ إلى الشاعر إلا متأخراً ، فأسرع الى مدينة « ريشموند » ، والتقى من جديد بكافله القديم آلان ، وطلب مساعدته ، فتوسط له كي يدخل مدرسة الضباط في « وست بوينت » عام الف وثمانمائة وثلاثين . وهكذا أقبل على حياة جديدة ، وبدا أول الأمر طالباً مُجدّاً متفوقاً في كل شيء ، ما عدا الرياضيات ، ولكن تبرمه بالحياة والدراسة مالبث أن عاوده .

كان الفكر يشط به أحياناً ، أثناء تدريبه العسكري ، فاذا به يواكب رؤى سماوية ، كما قال عنه الجنرال كولوم . ثم ما لبث بعد ذلك ، وقد ضاق ذرعاً بهذه الحياة القاسية ، أن انصرف الى الشراب وحصلت مشادة بينه وبين وصيه آلان وأخذا يتبادلان الرسائل التي تحمل التهجم وتؤذن بانفصال لا مجال لتلافيه .

ويبدو أن « إدغار بو » أراد ، للمرة الأخيرة ، أن يستثير عاطفة وصيه

وهو يطلب اليه مبلغاً من المال ، فقد جاء في احدى هذه الرسائل :

« ماذا يهم اذا كانت حياتي ، التي لن تطول ، إذ أني لا أملك لا الصحة ولا النشاط ، ماذا يهم إذا كانت هذه الحياة ستنقضي في المرض والبؤس ؟ إنك ، إن لم تجبني خلال عشرة أيام فسأهمل دروسي ووظائفي في الكلية العسكرية ، وسأجعلهم يطردوني » . ولكن الوصي لم يرد على هذه الرسالة التي تحمل التهديد وتحمل أيضاً المناشدة الأخيرة لمروءة التاجر الغني . وطرد « إدغار بو » من الكلية . وتوجه الى « نيويورك » حيث نجح في إصدار ديوان جديد له ، دفع نفقات طبعه رفاقه في الكلية العسكرية . ولكنهم عندما اطلعوا عليه خيب رجاءهم ، إذ لم يجدوا فيه تلك القصائد النقدية والهجائية التي كانت تحمل اليهم الفرحة والبهجة أثناء دراستهم الجدية .

ولعل قصيدة « اسرافيل » هي أجمل ما اشتمل عليه هذا الديوان ، بل لعلها كانت اكثر القصائد تبشيراً بميلاد شاعر كبير . وقد ظهر إدغار بو من خلالها مثل الموسيقي الإلهي « اورفيه » ، يسحر القمر والنجوم ، ويتغلب بعبقريته على بؤس مصيره :

في السماء تستوطنُ روح
عروقُ قلبها تَصنع قيثارة
لا أحد يُغَنّي بروعة
مثل الملاك إِسرافيل ...
النجوم المترددة (كما تقولُ الأساطير)
تخمد تسابيحها ، وتتعلق بصوته ...
خرساء جميعاً ...

لو أستطيع السكنى
حيث يُقيم إسرافيل
ولو كان هو حيث أكون ،
لرُبما لم يكن بامكانه أن يُغنّي بمثل هذه الروعة
هذا النشيد الزائل ،
بينما ينساب لحن أقوى من هذا اللحن ،
من قيثارتي الى السماء !

بعد نيويورك عاد ادغار بو إلى أسرته في ولاية ماريلاند . كان وصيه قدأنكره . وهكذا عاد إلى عائلته ، ولكنه لم ينعم لديها بالحياة الرغيدة ، وكان عليه أن يقتسم هو وأخوه المريض غرفة صغيرة حقيرة . وفي هذا الجو أخذ يكتب قصصه الخيالية الوهمية مثل « مخطوطة وجدت في زجاجة » .

واستطاع ادغار بو أن يحصل على جائزة القصة الأولى ، ونشرت له خمس قصص في مجلة اسبوعية تصدر في فيلادلفيا . وأخذ يثبت أقدامه ككاتب . وكان قد بلغ الخامسة والعشرين ، وبدا باستطاعته الكتابة حول المواضيع المتعددة ، وأصبحت له شخصيته المتميزة وأسلوبه الخاص في الأدب . وانتقل من جديد الى مدينة « ريشموند » حيث غدا نائباً لمدير احدى المجلات . وفي هذه المدينة أيضاً تزوج ابنة عمه ، « فيرجينيا كليم » . وأقبل على الكتابة ، وأصدر اكثر من مجموعة قصصية . ولكن الحياة المادية كانت تجثم عليه بكل ثقلها ، وأصاب المرض زوجته ، وكان عليها أحياناً أن تبقى في سريرها متمددة لاتستطيع التنفس إلا بواسطة مروحة .

وقد فزع « ادغار بو » من مصائبه الجديدة الى الخمرة ، الشيء الذي

أفقده مركزه . وعاش حياة يائسة طوال عامين ، ثم هجر « ريشموند » إلى نيويورك حيث باع قصته « الشمس » الى احدى الصحف المحلية ، وكانت القصة تروي حكاية اجتياز المحيط الأطلسي بشكل يمت الى الوهم والخرافة . وقد أقبل القراء عليها حتى أن أعداد الصحيفة قد نفدت بسرعة ولم يستطع الكاتب نفسه أن يحصل على نسخة .

وأخذ يكتب في اكثر من صحيفة . وفي هذه الأثناء كتب قصيدته المشهورة « الغراب » . وقد اجتازت حمى هذه القصيدة البحار ، وترجمت الى جميع اللغات الأدبية تقريباً ، وكان مقدراً لها ، في الواقع ، أن تغدو قمة شامخة من قمم الأدب الأمريكي والعالمي .

إن النجاح الذي لاقته قصيدة « الغراب » قد جعلت من مؤلفها ، بين عشية وضحاها ـ كما يقولون ـ رجل المنتديات الأدبية في نيويورك . وتوالت عليه الدعوات إلى الحفلات والمحاضرات ، والتفت حوله جموع تطلب توقيعه . ولكن داء السكر كان يعتاده ، واستأثر به بقوة . وفجأته نكبة جديدة هي موت زوجته وقد عجلت تلك الحياة البائسة المحرومة بانقضاء أيامها في سرعة .

وقد كتب إدغار في هذه الأيام السود هيكل قصيدته الطويلة التي سيطلق عليها اسم « أنا بيل لي » .. وقد جاء فيها :

منذ أعوام طويلة ، طويلة ،
في مملكة ، قُرْب البحر ،
كانت تحيا فتاة يَعْرِفُها الناس
باسم « أنا بيلْ لِي »
وهذه الفتاة لم تكن تحيـا بفكرة غَـيْرَ فكْرة واحدة :

أن تحِبَ وأنْ أحِبها !

كنتُ طفلاً ، وكانت طفلة
في هذه المملكة القائمة على حدود البحر ،
ولكننا كنا نغذي في أعماقنا
شيئاً أكبرَ من الحب .
وكانت الأملاكُ المجنّحة في السماء
تتمنّى مثلَ هذا الحب

لذلك عصفتْ ريح ضبابية
بجميلتي « أنابيلْ لي»
وانطوى عليها قبر
في هذه المملكة القائمة على حدود البحر .

ومنذ ذلك العهد . لايتلألأ القمر
دون أن يحمل لي أحلاماً
أرسلَتْها « أنا بيلْ لي » . .
ولا تلوح النجوم إلاّ وأحِسّ في عيونها المتألقة
عينَيْ « أنا بيل لي » ؛
وهكذا ، طوال الليل ، أرقد الى جانبها ،
في هذا القبر القائم على حدود البحر ،
في قبرها ،
على مقربة من البحر الصاخب

ولقد علق الشاعر الفرنسي الكبير« مالارميه » على هذه القصيدة، فوصفها

بأنها من أجمل ما كتبه « بو » ، وأشار إلى أنها تكادُ لا تستسلم لقلم المترجم ، ذلك لأنه ليس في وسع هذا الأخير أن يحمل إلينا نقـــاء تلك الأبيات وتألقها ورشاقتها الطلية .

فقد الشاعر زوجته التي رثاها تحت اسم « أنا بيل لي » ، وكان فقدهـــا فاجعاً لم يكد يتحمله ، فهو عرضة لأزمات نفسية ونوبات عصبية ، وهو يقبل أكثر فأكثر على الخمرة وعلى المخدرات . ولكن كل ذلك لم يحل بينه وبين الإنتاج ، إذ كتب في هذه الفترة مجموعتيه الشعريتين : « اولا لوم » و « أوريكا » .

في المجموعة الأولى ، التي تضم أجمل أشعـــاره ، غنى الشاعر عواطفه وأحاسيسه وتوقف عند موضوع الموت :

لقد توقفنا لدى باب ضريـح
وقلت : اي شيء مكتوب هناك ايتها الأخت اللطيفة ،
فأجابت : « او لا لوم »
انه قبر « أولا لوم » .

إذ ذاك ، غدا قلبي من رماد ،
حزيناً مثل الأوراق الجافة ، الميتة ،
مثل الاوراق التي تذوي .. وتموت .
وصحت : لقد تم ذلك في اكتوبر ،
في مثل هذه الليلة من العام الماضي ،
وكنت مسافراً ..
وكنت أحمل أثقالاً مخيفة الى هنا ..

في هذه الليلة ، بين جميع ليالي العام ،

أيُّ شيطان أغراني بالمرور في هذه الأمكنة .
انني اعرف الآن جيداً ، هذه البحيرة المجهولة ،
وهذه البلاد التي ترود في غاباتها الأغوال ..

أما « أوريكا » ،وقد جاءت هي الأخرى على أثر موت فيرجينيا ، زوجة الشاعر ، فقد قدم لها بهذه الكلمات : « اهدي هذا الكتاب الى هؤلاء الـــذين آمنوا بالأحلام على أنها الحقائق الوحيدة ! » والشاعر في هـذا الديوان يحاول ان يفسر العالم وأن يجلو أسراره أمام الناس .

وانغمس إدغار بو في بعض المغامرات العابرة والسطحية لينسى ، أو لينقذ نفسه من الجنون كما قال أحد النقاد الأمريكيين . وكتب في هذه الفترة قصائد تبدو وكأنها صادقة ، وإن كان بعض المتتبعين لحياة إدغار بوقد أنكروا صدق الشاعر ، ورأوا فيه صاحب قلم ساحر يسخره لمآربه .

ولكن صحة الشاعر أخذت بالتدهور ، وتعددت النوباتُ التي تَعتَادُه . وكانت آخرها ، تلك التي احتملتْهُ معها ، فقد أصابتْهُ في « بلتيمور » ،خريف عام ألف وثمانمئة وتسعة وأربعين . وقد وجده الطبيب الذي خف لمعالجته في وضع محزن ومثير للشفقة . ولم يفق الشاعر من غيبوبته إلا في المستشفى ، ولعله لم يكن مرتاحاً الى عودته للحياة اذ توجه الى طبيبه قائلا : « إن أفضل شيء يمكن أن تصنعه هو أن تلهب رأسي بالرصاص ، وبعد ثلاثة أيام من الهذيان الشديد بدا عليه وكأنه هدأ قليلا ، ولكنها كانت الهـــدأة الكبرى ، اذ ما لبث ان اسلم الروح . وكتب صديقه القديم ومنافسه « غريسفولد » يؤبنه في احدى الصحف الأمريكية ، مازجاً بين الثناء على الشاعر وبين النيل منه ومحاولة تجريحه . فهو يقول : « لقد مات ادغار آلان وأول أمس ... وقليلون سيأسفون على ذلك ».

فقد كان له قراء ولكن لم يكن لديه الا القليل من الاصدقاء، بل ربما لم يكن له أصدقاء البتة . كانت تجربته القاسية قد حرمته من الثقة بالرجال او النساء . لم يكن باستطاعة أحد أن يتحدث أمامه عن الثروة دون أن يشحب وجهه رغبة وسداً . كان يعاني طموحاً مرضياً ، وليس رغبة نبيلة في حب او جاه . كان يريد فقط أن ينجح . ولكن علينا أن نعترف بأن من الصعب أن يتفوق عليه أحد ككاتب ، أما كناقد فلم يكن إلا لغوياً يتعلق بالترهات . » .

وبموت إدغاربو انطلقت اسطورته . قال عنه النقاد والرسامون اشياء كثيرة متناقضة . زعموه رفيع التهذيب ، مرهفاً ، شديد العناية بانافته ، وارادوه كريماً ، حنوناً ، مقتصداً في نفقاته ، دقيقاً في مواعيده ، لا يعرف الكلل في أعماله. ثم زعموه بعد ذلك طموحاً ، مدعياً ، مجرداً من الدوافع النبيلة ، منطوياً على نفسه ، سكيراً ، مغرقاً في السكر ، لا يعرف الوفاء لأصدقائه ، خلواً من الاخلاص والصدق ، لا يفكر بشيء ولا يهدف الى شيء الا سمعته الادبية .

وتناقضت الآراء أيضاً حول ثقافته ، بل لعله جمع في الواقع الكثير من المتناقضات . فهو ذو ثقافة واسعة شاملة ، ولكنها مع ذلك تشكو النقص الكبير . إنه يعرف الفرنسية معرفة جيدة ولكنه كان يخطىء في كتابة ابسط الكلمات . ولم يمنعه اطلاعه الأدبي عن أن يعزو مسرحية « اوديب في كولون » الى اسخيليوس ،وانما هي من تاليف سوفوكليس . وكان يقع في أخطاء مماثلة . وكان يرى بعض الناشرين أنه يستخدم استشهادات باللغة الألمانية ، في حين أنه لا يفقه منها شيئاً . أما معرفته باليونانية فكانت تستثير كثيراً من الشكوك . ولقد كتب اليه الدكتور شيفر قائلا : « لئن وجد لغز على الأرض ، فانت هو حتماً هذا اللغز » .

ولئن رأينا إدغار بو يلجأ كثيراً الى الاحلام ، هرباً من الحقيقة والواقع، هرباً من واقعه النفسي والصحي ، فانه كان أيضاً ابن عصره ، وابن محيطه . كان صحفياً ماهراً يهتم بالأخبار ، وكان يعرف جيداً كيف يقتنصها . يهتم بالمخترعات العلمية والمكتشفات الحديثة ،ولا يبقى بمعزل عن عصره . ولئن كان قد اختصم مع الكثيرين ممن يحيطون به ، فقد عرف كيف يكتسب أصحاباً جدُداً . وهكذا لم يشك في حياته قلة الاصدقاء والمعجبين والمدافعين عن فنه وعبقريته .

لقد وجد كثير من القراء في كتابه «أقاصيص خيالية» كاتباً يتحلى بخيال مجنّح ، وموهبة مرضية غائمة . ومع ذلك فان ادغار بو لم يكن صاحب ذلك الخيال المنطبق على الاسطورة ، إذ كان يستعير من كل ما يقرأ ، ليس فقط الجانب الواقعي من أعماله ، بل حتى أكثر قصصه ذهاباً مع الخيال .

إن إدغار بو هو منسق وفنان اكثر منه مبدعاً . انه يقتبس نماذج متنوعة هي في أغلب الأحيان غير معروفة ، ثم يكثف هذه المصادر ليستخلص منها قصة قصيرة أخاذة . انه يؤلف ، ويختار من المواد المستعارة ما يمكن الذكاء أن يتقبله بأكثر ما يكون من السهولة . وكان يحب أن يعالج – بنظام – أكثر المواضيع غرابة . وهذا ما كان يحبه « بودلير » وغيره من الكتاب الفرنسيين في القرن التاسع عشر .

والآن ما هي المواضيع التي عالجتها أعمال إدغار بو ؟ إن اكثر هذه المواضيع ترددا في اشعاره كما في أقاصيصه انما هي الحب ، الحب الشقي ، والأسى على الماضي ، الماضي الفردوسي الذي لن يعود ، وخاصة الموت . فمنذ مؤلفه الاول « تيمورلنك » ، كان الشاعر يُصعِدُ زفرته الأولى الخالدة :

أسعد الأيام ، وأسعد الساعات

التي ستراها عيناي ...

قد شاهدتها من قبل ..

وفي قصيدته « مقدمة » التي نشرت عام ألف وثمانمئة وواحد وثلاثين ، يلخص إدغار بو حياته مسبقاً هكذا :

أبداً لم استطع أن احب

إلا حيث الموت يمزج أنفاسه بأنفاس الجمال .

او حيث العُرُس والزمن والقدر

تسير بينه وبيني .

وطوال حياته ، يبدو الشاعر وكأن شبح الموت يخيم على أفكاره وأعماله . ولا غرو في ذلك ، فقد شهد الكثير ممن أحبهم يحتملهم هـذا الشبح الى حيث لا يعود منهم إلا ذكرى غائمة ولكنها تثير الأسى ، وتثير الفزع أحياناً كثيرة ، ولا يكاد الشاعر يتماسك في وجه ما تبعثه فهو يلجأ الى الهروب، الهروب من واقعه المرير .

ولكن الشكل قد يكون هو المقدم والمفضل لدى الشاعر . إنه يهتم بالفن أكثر من الجوهر . فإدغار بو هو قبل كل شيء فنان . وهو في ذلك إنما يكاد يكون من جماعة الفن للفن . لقد أحب الجمال ، والجمال الكلاسيكي بشكل خاص . ورأينا أفضل قصائده وأفضل أقاصيصه إنما هي عبارة عن روائع فنية ذات نقاء وموسيقية لا تجارى .

ولقد أشار « بودلير » في مقدمته لقصص جديدة غير عادية ، فذكر تأثير أشعار بو ،ورأى في هذه الأشعار شيئاً مغايراً لهذا الدفق المضطرم لدى بايرون ،

ولهذا الشجى المرضي ، المنغم الذي يمتاز به تينيسون ؛ إنها شيء عميق ألاّق كالحلم ، غامض متكامل كالبلور .

ولقد أضاف بودلير أن الفنان إنما يكون فناناً بمقدار ما يعي الجمال ويحسه . وهكذا رأينا هذا الشاعر المستهام بالجمال ، إنما لا يرتاح الى « العلم » ، هذا العلم المتمثل بالآلة والمادة ، بأمريكا الصناعية المتنامية التي كانت تخيفه . وبهذا المعنى كتب قصيدته الشهيرة « الى العلم » :

أيها العِلمْ ، أيها الولَدُ الحقيقي للزمن القديم
تحَوِّلُ كل شيء بعينك النفاذة ،
فلماذا تجعَلُ فريستَكَ قلبَ الشاعر
يا نَسْراً ... جناحاه حقائِقُ دكْناء ،
ألَمْ تنتزع مِنْ « ديانا » عربتها
وطردْت من الغابات
ذاك الذي يبحث عن ملجأ في بعض الكواكب السعيدة ؟

أَلَمْ تبْعدْ عَن الأمواج عَذْراءَ البحر ،
كما أبْعَدْتَني عَنْ الأحلامِ الصيفية
عند شَجَرَةِ الصُبارْ .

وكما أبدع إدغار بو في مجالات الشعر والقصة ، فقد طرق أبواب النقد ، بل أراد أن يكتب تاريخاً نقدياً للآداب الأمريكية . ولكنه لم يكن في يوم من الأيام ناقداً أدبياً معدوداً ، ذلك لأن أحكامه كانت سريعة وحاسمة . وقد أبدى كرماً واسعاً في المديح والثناء حيال بعض الأدباء ، فرفعهم الى السماء في حين كان ظالماً إزاء آخرين .

كتب عن الشاعر الأمريكي الرومانسي « لونغ فيلو » عام ألف وتسعمئة واثنين وأربعين يقول : « إن لونغ فيلو يجنح كثيراً الى التقليد ، حتى انني أحياناً لا أدري كيف يمكن فهمه . بـــل اني لأتساءل : أليس من الواجب أن ننعته بالسارق، العريق في الانتحال؟ » . ولا شك أن في هذا الحكم العنيف قسوة وظلماً تحملها الشاعر الرومانسي، عازياً عنف هذا النقد لطبيعة إدغار بو وحساسيته المرضية إزاء كل ظاهرة يرى فيها شيئاً لا يتناسب ومقاييسه الجمالية .

وكان إدغار بو مولعاً بالوقوف أمام المسائل المطروحة ، وإعمال الفكر فيها ، الى أن يجد لها حلاً . وكان يعتقد أن لا شيء يصنعه الذكاء الإنساني إلا وبوسع الذكاء الإنساني أن يهتدي الى أسراره . وذهب به هذا الزعم حداً جعله يتحدى القراء في أن يرسلوا إليه نصوصاً اصطلاحيـة مختزلة فيتكفل هو بحل رموزها مهما بلغت من الغرابة .

وانهارت الرسائل من شتى أنحاء البلاد ، وكانت تستخدم لغات أجنبية ، وكانت الكلمات والجمل تتسلسل دون فاصل، واستخدم أكثر من الغباء في كتابة تلك النصوص . الأمر الذي حمل الشاعر العالم أو العابث على هجر هذه الطريقة إذ كان عليه هكذا أن يقضي حياته كلها في حل هذه الأحاجي أو يظهر للملأ على أنه مدع غير قادر على الوفاء بوعوده .

وحمل هذه الهواية الى أقاصيصه ، فهو يطرح قضية ثم يتدرج مع القارىء في إيجاد حل لها . وهو أحياناً يستند في قصصه الى جرائم واقعية ، ثم يقترح حلولاً غير كافية . ولكن ، مهما يكن ، فقـــد بدا بعض أبطاله وكأنهم هؤلاء الذين مهدوا الطريق أمام البوليس السري الشهير شرلوك هولمز ومجموعة غيره من هؤلاء الرجال الذين يطاردون الجريمة في أغمض ظروفها ويجدون دوماً الحل المناسب .

ولكن إدغاربو لم يكن استاذ « كونان دويل » صاحب شخصية شرلوك هولمز فحسب ، بل كان أيضاً استاذ « جول فرن » و « ولز » وغيرهما ممن كتبوا ذلك الأدب الروائي الذي أطلقوا عليه اسم « العلم – الخرافة » .

ولعل من المفيد ومن المثير هنا أن نذكر بأن إدغاربو في روايته « أرتور غوردون بيم » قد حنا على نظرية « علمية » – خرافية في زمنه ، وهي أن الأرض جوفاء ، مفتوحة في القطبين وأن جوفها هذا صالح للسكنى ولا شك أن «جول فرن » قد أفاد من هذا الطريق الذي شقه إدغاربو فكتب من وحي ذلك قصته الشائقة : « أبو الهول في السهوب الثلجية » .

كما إن بو هو رائد الرواية الفلسفية . ولا شك أن ثمة ، قبله ، من استخدم المعطيات الفلسفية والعلمية . ولكنه كان أول من عرف كيف يوازن بين الرائع والايجابي بشكل يجعل معه من قصته حكاية مفيدة ، جذابة ، أخاذة أو مخيفة .

إن حكم الأجيال التالية على إدغاربو قد زودته عوامل عديدة، في طليعتها طبيعة إدغاربو نفسه . فقد عين منفذاً لوصيته رجلاً غير مؤهل للنهوض بذلك . فجاءت ترجمة حياة الشاعر على يده تغص بالأخطاء وروح العداء ، واستطاع الوصي أن يخلق اسطورة شاعر متطرف ، به مس من الشيطان ، وانتشرت الاسطورة سريعاً في العالم أجمع ، وانهالت الشتائم في أغلبية الصحف الانكليزية والأميركية على مؤلف قصيدة « الغراب » .

« أي مخلوق غريب وأية قصة رهيبة ! » صاح الدكتور جيلفيلان عام ألف وثمانمئة واثنين وخمسين . « تصوروا إنساناً موهوباً ، رائع الموهبة .. ومع

ذلك فهو دنيء ، سكير ، يحيا في الجحيم ويموت ، في مأوى للعجزة .. في روح بو كان يقيم إبليس ... وكان قلبه متعفناً بمقدار ما كان سلوكه شائناً » .

وكان لابد ان يمر جيل من الناس في اميركا حتى يعود الاعتبار الى « قايين » الآداب الاميركية . ولكن الشاعر الفرنسي الكبير ، بودلير ، كان قد أقام الشعائر الأدبية على ذكرى ادغار بو وذلك بعد بضع سنوات فقط من وفاته . قال بودلير :

« في عام ألف وثمانمئة وستة واربعين أو عام ألف وثمانمئة وسبعة واربعين اطلعت على بعض مقطوعات كتبها ادغار بو فعرتني رعشة عجيبة . وصدقوني أني وجدت في أشعاره وأقاصيصه بعد ذلك الأشعار والأقاصيص التي كنت أفكر فيها بشكل غائم ، غامض ، غير منتظم . وهذا هو إدغار بو قد عرف كيف ينغمها ويرتفع بها الى الكمال . »

كان هذا اللقاء بين الشاعرين ، في عالم الأدب وحده ، قد أثر في الشاعر الفرنسي كثيراً فأقبل طوال سبعة عشر عاماً على ترجمة زميله الاميركي . ولقد استوحى من إدغار بو قسماً من مذهبه الشعري واستلهمه في اكثر من مناسبة ، بل حاول أيضاً أن يكمل رسالته الادبية .

ولكن أثر إدغار بو لم ينحصر في « بودلير » أو في «مالارميه» من بعده . انه يمتد ابعد واشمل . وكم من الكتاب في زمننا يعترفون بهذا الأثر العميق الذي تركه في نفوسهم وفي أدبهم هذا الشاعر ، هذا الانسان العجيب الذي نعرفه بشكل ممتاز وبشكل رديء ، في الوقت نفسه .

انطباعات أندلسيّة

شوقي بغدادي
– الجزائر

عندما كنت أتأمل آلاف البشر حولي في شوارع إسبانيا وساحاتها ، بلغاتهم المختلفة ، وعاداتهم الخاصة ، وأزيائهم المتميزة ، كنت أفكر في الوقت ذاته ، أنه بالرغم من هذا التنوع العجيب ، والتباين الكبير ، فان هذا المخلوق الذي يسعى على قدميه أمامي هنا ، هو نفسه الذي يسعى في دمشق . ومع ذلك فما أبعد الهوة التي تفصلني عنه إذ أقف عاجزاً عن التفاهم معه ! وعندئذ فقط كنت أتصور أنهم مخلوقات من صنف آخر .

انتقال الملكيـة :

الأزهار .. الزيتون .. الزيت .. مئـات بل آلاف الكلمات العربية كنت أقرؤها بحروفها اللاتينية . وأسمع الاسبان ينطقون بها محرّفة على طريقتهم الخاصة ، فأكاد أهتف بهم : « هذا خطأ .. هذه الكلمة لا تُلفظ بهذا الشكل .. إنها لغتي التي تتكلمون بها ! » ولكن ما الفائدة ؟ لقد أخذوا كل شيء وانتقلت الملكية إليهم وصار من حقهم أن يلفظوا الكلمات كما يشاؤون .

الأعياد الحقيقية :

ليست اسبانيا بلاداً أكثر غنىً أو فقراً من بلادنا ، ليس هذا هو الفارق الحقيقي ، ولكنها أكثر قدرة على التمتع بالحياة . هناك يحتفلون بزهر البرتقال ، يحتفلون بالعنب ، يحتفلون بالربيـع ، بالصيف ، بالبحر ، بالجبـــل ، بالمناسبات الدينية والقومية ، وما أكثرها !.. كل شيء له عندهم عيد . وأعيادهم غير أعيادنا التي نقطعها بالزيارات ، والأكل ، والتسكع الفارغ ، والتثاؤب أمام الخطباء . أعيادهم بهجـــة شعب ينزل الى الشوارع والساحات يرقص ويغني ، ويسهر حتى مطلع الفجر . ولا يفرغ عيد ، حتى يهل عيد آخر ، حتى لتبدو السنة على مدارها سلسلة متلاحقة من مواسم البهجة .

قـــد نتشابه بالبؤس مع غيرنا من الأمم ، ولكن يبدو لي أننا أقدَر الشعوب على الاحتفاظ بـه حتى في الأعياد . إيه يا أمتي التي لم تتعلم بعد غير التزمّت ، والكآبة ، والسأم ، متى تتعلمين كيف يكون الفرح !

رياضـة الموت :

تقتحم الثيران عادة كلها حلبة الصراع بطريقة واحدة . يدخـــل الثور

الهائج عبر الممر الذي فتح له في اندفاع كمن يحسب نفسه منطلقاً الى العراء ، حتى إذا صـــار ضمن الحلبة ، توقف فجأة ينظر حوله وقد أدرك أنه محاصر ، ثم يهم بالعودة الى الوراء ، ولكنه إذ يجد الممر الذي دخل منه قد أغلق وراءه يعود الى الحلبة ، ويبدأ عندئذ بالتطلع الى المصارع الذي يترصده في الطرف المقابل بعطفه الارجواني . ذلك إذن هو خصمه ، ولابد من النزال . وهكذا ينطلق من جديد في اتجاه اللون الذي يتحداه من بعيد ، وتبدأ المعركة بـين الانسان والحيوان ، معركة لا تنتهي إلا بموت أحدهما .

ولكن مصارعة الثيران معركة لاتـكافؤ فيها حقاً ، ذلك أن الحيوان وحيد ، لا سلاح له إلاّ قرناه ، وقوّته البدنيـــة ، بينما يقف في الطرف الآخر الانسان ، مدعوماً بذكائه ، وأسلحته ، ورفاقه القادرين في أية لحظة على ان يتواروا عن الأنظار وراء الحاجز الخشبي عبر الفتحة الضيقة التي يعجز الثور بالطبع عن اقتحامها .

ويفهم الجمهور الذي يشاهد اللعبة هذا التفاوت . ومن هنـــا ينطلق في تقديره للمصارع ، إذ كلما تخلى الإنسان الذي يواجه الحيوان عن امتيازاته وتجرّأ على أن يتحدّى خصمه وجهاً لوجه في ثبات غـــير معتمد على شيء سوى جرأته وخبرته الخاصـــة ، أي بمعنى آخر كلما تناقص هـذا التفاوت بين الحيوان وبين الانسان ، ازداد تقدير الجمهور للمصارع بقدر ازدياد استمتاعه باللعبة . وفي هـذا الموقف ينتزع المصارع عادةً هتاف الجماهير التقليدي كلما كانت حركته في مواجهة الحيوان الخطير أكثر بروداً وتحدياً . وبقدر مايستطيع أن يثبت جسده المشدود إلى مكان واحد من الأرض وهو يدور بعطفـــه حول نفسه دورةً رشيقة خاصة لاتراجع فيها إلى الوراء ، مستفزاً خصمه في ثقة الانسان الذي لايرهب الموت ،

تتلاحق هتافات الجماهير . وتبدو اللعبة عندئذ فناً رفيعاً جديراً بالاهتمام . ولهذا السبب يفقد الجمهور اهتمامه بما يدور أمامه حين يتكاثر المصارعون على الثور وهم يتراقصون حوله هاربين من مكان إلى آخر ، فيتثاءب الناس مستأنفين أحاديثهم المنقطعة يتسلّون بها عن المنظر المبتذل الفاتر . .

إن الناس لا يأتون بالفعل كي يتلذذوا بقتل الثور ، وإنما بمنظر الانسان وهو معرّض للقتل مستقبلاً الخطر بشجاعة . إن جمال اللعبة كلها يكمن في هذا التحدي الرائع الموت ، تلك الصفة التي يتحلى بها المصارعون الكبار والذين يطلقون عليهم وحدهم في اسبانيا لقب الفنانين .

والثور يعتبر منتصراً إذا عجز المصارع عن قتله بأقل الطعنات ، بالرغم من سقوطه أخيراً تحت وطأة النزيف يرهق روحه . إن المصارع ، إذ يواجه الثور في النهاية بسيفه المشهر المصوّب إلى مقتل خصمه ، يعني أنه يقترب من نهاية اللعبة وأخطر مراحلها . وفي تلك اللحظة يكون الثور مرهقاً ، مطرقاً ، متردداً حيال القضاء الذي مايزال يتحداه رغم جهوده الكثيرة ، ويعرف المصارع هذه اللحظة تمام المعرفة ، ويُدرك بالتالي أنه إذ يصل بخصمه الى هذه المرحلة من الإعياء فانه يصل به ايضاً الى أكثر فترات الصراع تحدياً وخطراً . وهو موقف لابدّ منه ، لأن اللعبة تفقد كلّ جمالها لو أنّ الثور سقط على ركبتيه قليلاً ثم استرد قوته ونهض . معنى ذلك أن المصارع بالغ في استنزاف قوة خصمه ، وعندئذ يتصاعد صراخ الجماهير بالأسف والشفقة ، ذلك أن المصارع يهمّ بقتل حيوان عاجز عن الدفاع عن نفسه . فمن الواجب إذن أن يحسن المصارع اختيار اللحظة الحاسمة هذه بشكل يكون فيه الثور مرهقاً حقاً ، ولكنه مايزال يحتفظ بالقوة الضرورية للحركة والهجوم .

هنا تمتحن شجاعة المصارع الحقيقية ، إذ لابدّ لطعنة السيف كي تبلغ مقتلها من ان يبادر المصارع نفسه بالهجوم في هذه المرة ، مقـــترباً من الثور إلى درجة كافية يستطيع معها أن يغمدَ سيفه حتى المقبض ، فيصيب من الثور مقتلاً حساساً معيّناً بين الكتفين .

ويبادر الثور عادة بالنطاح في اللحظة التي يتحرك بها المصارع في اتجاهه ، وهكذا يحتاج الانسان إلى كل جرأته وخبرته كي يتم حركته في إصرار وسرعة ، فإذا تردد بسبب من حذر أو خبرة ناقصة ، فإن السيف لا يغوص عندئذ في مكانه المناسب ،أو يسقط جانباً على الأرض . وبهذا الشكل يضطر المصارع إلى إعادة الكرة ثانية ، وكلما تعاقبت المحاولات الخائبة ازداد استياء الجمهور وتحول إعجابه بالمصارع إلى ازدراء ونقمة ، كما تتحول مشاعره حيال الثور إلى الشفقة ، وترتفع الاصوات مطالبة بالرحمة : « ثور آخر .. ثور آخر ! .. »

إنهم يريدون حقاً ألاّ يموت الانسان ، ولكنهم يريدون أيضاً ألا يتعذب الحيوان . إن نزيف الثور مدة طويلة دون أن يسقط ميتاً حيال الطعنات الضائعة معناه أنه يتعذب كثيراً . ومتى بدأ هذا الموقف بالوضوح ، فمعنى ذلك أن اللعبة انتهت بالنسبة لجماهير المتفرجين . ويسقط الثور في النهاية ،ويجهزون عليه بشكل من الأشكال ، ولكن الجمهور يكون قد بدأ يزأر ناقماً،ويطلق الصفير مستهجناً ، وقد يصفق ساخراً للثور الذبيح الذي قضى وهو يسحب على الأرض خارج الحلبة كأنه هو الذي انتصر .

إن الاسبان إذ يعتبرون مصارعة الثيران لعبتهم الشعبية المفضلة ، فإنهم يقررون في الواقع أن اللعبة الوحيدة الجديرة بحياة الانسان تلك هي تعرضه لفقدان هذه الحياة . وهكذا يبدو في نظرهم أن الموت وحده هو المعيار الحقيقي لجمال حياة البشر .

الحمراء :

ليست كلمات الفخامة ، والروعة ، والعظمة ، ما يمكن إطلاقه على قصر الحمراء في غرناطة . إنها كلمات تليق بقصور مثل فرساي أو الارميتاج ،أو غيرها من معالم العمران في أوروبا . أما الحمراء فإن كلمات الرشاقة والرقة والنعومة وحدها ، هي التي تقفز إلى المخيلة حين يجد الانسان نفسه في رحابه . ولعله البناء التاريخي الوحيد في أوروبا الذي يوحي بمثل هذه الكلمات . وهذا هو سر نكهته الإنسانية الخاصة ، التي تفتقر إليها القصور الرومانية والمسيحية الأخرى .

ليس في قصر الحمراء تلك الأعمدة الفخمة التي تحجب الرؤية ، وتشعر الانسان بضآلته حيالها ، ولا تلك القاعات البالغة الاتساع ، السحيقة الارتفاع ، التي تبعث على الذهول والانطواء ، ولا تلك الأروقة المعقدة المتشابكة التي تثير الحيرة والضياع . ليس هنا غير الأعمدة القصيرة الرقيقة ، والغرف الأليفة ، والأروقة البسيطة . ومع ذلك فأنت تشعر بينها أنك أمام بناء خططه عقل متقدم ، ونفذته يد صناع . إن مشاعر الراحة والأنس والطمأنينة هي الانطباعات الأساسية التي تتركها زيارة ذلك القصر حتى لتشعر أنك في دارك ، وأن الألفة التي يواجهك بها تذكرك بضرورة المكوث والاسترخاء ، كمن يجد نفسه في بيته الخاص . وتلك مشاعر لا تثيرها زيارة القصور الأخرى ، حيث يجد الانسان نفسه في عالم محير عجيب يبعث على الاختناق ، بني لإثارة الدهشة ، وإظهار العظمة ، أكثر مما بني لبعث ذلك الشعور الانساني الخاص بالتآلف مع الحجر ، والراحة في السكنى . إن القاعدة الأساسية التي بنيت على أساسها تلك القصور هي التفكير فيما يشعر به الزائر ، لا التفكير فيما يحس به الساكن . ولهذا السبب كانت العظمة الملكية هي الهدف الرئيسي الكامن وراء كل عمود ضخم أو قاعة رحيبة أو بوابة ضخمة

في هذه القصور ، بينما كانت الرقة ، والبساطة ، وراحة السكان هي الغاية الكامنة وراء الأعمدة الصغيرة ، والقاعات المألوفة ، والأروقة المفتوحة في قصر الحمراء .

ولعلّ أجمل مايمثل هذا الشعور الانساني هو مايراه الداخل إلى أية غرفة في القصر حيث يجد أرض الغرفة أعلى قليلاً من مستوى النوافذ العريضة التي تبدأ كأبواب الشرفات من أسفل الجدار ، وتنفتح في جميع الاتجاهات بشكل يساعد الجالس في أية زاوية من الزوايا على أن يشرف على إطلالة حلوة مريحة كحديقة من شجر البرتقال ، أو نافورة بركة فوّارة ، أو واد فسيح من المروج الخضراء.

بلى ، لقد كان للقصر روحه الخاصة ، وعبقريته التي كان أثرها يظهر ملياً في عيون السوّاح الأجانب الكثر الذين كانوا يطوفون في المكان ، إذ تُحس بوضوح أن أرواحهم قد أصابتها العدوى ، فاستراحت من اعباء ، واطمأنت من ضيق ، وصار التلبّث ، والتأمل والشرود عند كل نقش ، وعبر كل نافذة ، ردود الفعل الخاصة التي تميز زوّار ذلك القصر من بين قصور الدنيا جمعاء .

في ساحة الأسود الصغيرة المغلقة اتخذت مقعداً في شمس الربيع أتأمل العالم يقبل على آثار أجدادي وهم يصغون إلى أدلائهم في خشوع ودهشة ، وأنا لاأخلو من هذا الشعور بالزهو الداخلي إذ أرى الجموع من مختلف الأمم ، تشاهد بأم عينها حضارتنا العريقة ، وتلمس لمس اليد أثراً مجيداً من آثارها الباقية .

ولكن .. ماأصعب أن تصغي إلى الناس يتحدثون أمامك عن شدة بأسك وعنفوانك وأنت مريض عاجز ! هكذا كنت أشعر وأنا أصغي إلى ثرثرة الأدلاء كبطل مشلول ينظر في حسرة ومرارة الى مدالياته الذهبية المعلقة ، ويسمع الى الناس حوله يتحدثون عن انتصاراته القديمة وهو قعيد الفراش ، عاجز عن الحركة .

حيث تتلاقى القُطُر ، يتوقف العالم قليلاً عن الحركة كي يتعلم الناس معنى الانتظار في وقت غير مناسب .

ثمة بشر الآن من كل الأجناس ، ترن لغاتها المختلفة في قاعة فسيحة ، عتيقة ، في محطة صغيرة ضائعة مثل هذه المحطة الاسبانية « لا أنسينا » في ساعة مبكرة من فجرٍ نديّ ممطر ، يتلاقون ، ويتبادلون النظر مرغمين ، كي يعرف الواحد منهم الآخر أكثر .

ثمة مدفأة من الحطب في زاوية ، ومرآة ضخمة مدخّنة في صدر القاعة ، وموائد عريضة من الرخام الأبيض السميك ، وهذا اللهاث الرائع لأقداح القهوة الممزوجة بالحليب وهي تروح وتغدو هنا وهناك ، وغمغمة اللغات المختلطة تهوّم في فضاء القاعة المُفْعَمِ بالدخان .

ثمة ساعة ونصف من الانتظار الارغامي ، وليس للناس من عمل سوى الشرب ، أو الأكل ، أو التدخين ، وتأمل بعضهم بعضاً ،فالجو بارد في العراء ، والبلدة الصغيرة نائمة سوى هذا الجانب الصغير من جسدها المسترخي قد ظل متوقداً بالنشاط لاستقبال الوافدين من أطراف العالم .

إيه .. ما أروع أن يحمل الانسان حقيبةً خفيفةً ، ثم يهيم على وجهه في هذا العالم الرائع الفسيح !

القصّة

المخمور

محسن غانم

أنا لم أشاهد من قبل مومساً، فمنذ شهر واحد هجرت قريتي الى هذه المدينة ، ولكن ها أنا ذا أقعي فوق صفة زرقاء أمام واحدة منهن . حذائي عند مدخل الغرفة ، قابع تحت كرسي مبرقش.. وبين شفتي لفافة تبغ أمتصها، وكأس خمر أرتشف منها بين حين وآخر ، فتجتاح نفسي موجة قرف ، وأود لو أجري بعيداً ، وأظل أجري الى مالانهاية ..

أدار صديقي المفتاح في القفل،فأحدث ضوضاء تشبه صوت تهشيم العظام ، وقف بقامته المديدة يدفع الباب بيد حذرة ، ويمط عنقه ، لينقل عينيه الصفراوين بيني وبينها ويقول :

ـ والآن ؟ . .

نفثت دخان لفافتها ، ووضعت ساقا فوق ساق وأجابت :

ـ صديقك فيلسوف . .

ـ لا انه شاعر . .

فاتجهت الى المغسلة وتقيأت كل مافي جوفي ،ثم عدت إلى جلستي و كأسي ولفافتي . قال صديقي يخاطبني :

ـ ماذا فعلت ؟ . .

ـ لاشيء . .

ـ عجبا ، لقد مضى عليك أكثر من ساعة . .

ـ حقاً ؟

ـ لاتتنبأ له . .

ـ لاأريد . . لاأريد . .

ـ الآن لاتريد ؟ تذكر أنك رجوتني طويلا لأتيح لك هذه الفرصة . .

ـ ولكن . .

ـ ولكن ماذا . . ؟

ـ هذه المرأة . .

ـ ألست صديقي . .؟

ـ نعم . .

ـ ألم أعدك بتحقيق رغبتك بالاجتماع بها ؟ . .

ـ نعم . .

ـ ألم أقل لك ، انها امرأة حلوة صغيرة متزوجة ؟ . .

ـ نعم . .

ـ فماذا حدث لك ؟ هل جننت ؟ . .

ثقل لساني في جوف فمي فلم أحر جواباً ، والتفت صديقي اليها فقالت :

ـ يريد أن يعرف كل شيء عني . .

ـ حسنا . . حدثيه بمايشتهي . .

ـ لا يصدقني . .

ـ ماذا قلت له . . ؟

ـ قلت انني متزوجة . .

ـ وبعد . . ؟

ـ وان زوجي عنين

ـ وماذا أيضاً . .

ـ لم يعجبه قولي ، وصرخ « زوجة خائنة ؟ » . .

ـ لماذا كذبت عليه ؟

ـ ظننت ذلك يثيره . .

ـ كوني صادقة معه . .

ـ أأقول ان زوجي مات . .

ـ لا بل قتل . .

ـ لكنه قتل لأجلي . .

ـ صارحيه بأن زوجك قد قتل وهو يدافع عن شرفك عندما حاول رجل أن يغازلك بوقاحة . .

ـ كفاك أيها المسكين ، لقد حكيت له كل شيء . .

ـ وماذا فعل ؟

ـ أخرج من جيبه موسى حادة ، وأراد أن يشوه بها وجهي . .

ـ المعتوه . .

ـ كان يقول وهو في قمة ثورته ، انه يود لو يضع فوق عيني جمرتي نار ، وينهال على ظهري بسوط ذي ثلاث شعب . .

لم انصت لحديثهما ، كنت أفرغ في فمي كأساً جديدة من الخمر ، وأراقب حركاتها فحسب ، رأيتها تنزع قميصها وترميه فوق السرير . ثم راحت تهامس صديقي ، ولاحظت قدمها تزحف فوق البلاط لتختفي تحت كرسيه ، ويده تمتد لتطوق كتفيها . . وسمعت . . ضحكاتها تخرج صفيراً محبوساً من بين أسنانها الصغيرة البيضاء ، وأنفها الدقيق الجميل . خرجا من الغرفة وتركاني ، فنظرت الى قميصها الحريري ، فوق السرير . . وسرت في عروقي رعدة عندما رأيت القميص يتحرك ببطء متجهاً نحوي . . لم أصدق عيني ، فأغمضتها برهة ، ولكن القميص استمر في زحفه . . جمدت في نهاية الصفة ، أحدق في الكتلة القماشية وأكاد أهلك رعباً . .

مددت يداً بطيئة ولمست طرف القميص بسبابتي ، فاجتاحني تيار غريب ، وعلق القميص باصبعي ، حاولت تخليص يدي فازداد التصاقاً والتفافاً حول معصمي وامتدت أذرعه وأطرافه كأخطبوط تلاحقني وتطوقني ، وترسل فروعهـــا الى عنقي . . ولم يلبث القميص أن جذب ســـائر أقسامه ليتقدم ويتشبث برقبتي ويطوقها . . .

صرخت مستنجداً . . يالعجبي ، لقد بح صوتي ، وتلاشت قدرتي على الحركة . . وددت لو أستطيع أن أعوي ، أن أموء ، أو أحشرج . . ولكن هيهات . . بدأ صدري يضيق بالهواء الذي أستنشقه ، وأمام ناظري ترتسم مئـــات الصور

الغريبة والأشكال والألوان ، وتتراقص على الجدران والسقف .. عم الظـلام الغرفة ... واسترخى جفناي،فلم أقدر على فتح عيني .. سكنت حركتي،فقدت سيطرتي على أعضائي .. وشعرت أنني أفقد الحياة ... أموت !..

دخل صديقي ورفيقته فرحين جذلين .. يده فوق كتفها، وأصابعه تعبث بخصلات شعرها ، وتدغدغ شحمة أذنها ...

قالت :

ـ لقد قضى صاحبك ...

فأجاب :

ـ أخشى أن تكون ماتزال فيه بقية ...

ـ هات عود ثقاب ...

ـ هاكه ...

أشعلت عـود الثقاب ، وقربته من يدي ثم وضعت النار على ذراعي ،فلم أستطع حراكاً أو صراخاً ...

قالت :

– اطمئن ، لقد مات ...

– يبدو كذلك ..

– هيا احفر قبره ...

– قبره جاهز منذ زمن بعيد ...

– جاهز .. ؟

– نعم ، ساعديني لنجره الى الحديقة ...

سحباني بقسوة ووحشية عبر الفناء ، وفي الحديقة كانت حفرة تفغر فاها لتستقبلني ، أدلياني في الحفرة وأهالا عليّ التراب ثم انصرفا ...

سمعت موسيقى غريبة ، وضوضـــاء تأتيني من سطح الأرض .. بدأ جلدي يتساقط ،وعضلات جسدي تتفسخ ،وجذور النباتات الشرهةتمتص مابقي مني .. خرجت ملايين الحشرات من جوانب القبر ، فانقضت على بدني ، ثم لف جسمي عدد هائل من الديدان .. حتى اذا لم يبق مني غير عظـــامي ، رحت في إغفاءة طويلة هادئة ... لاأدري متى استيقظت ... من غفوتي ، ولكنني وجدت نفسي منطرحاً على وجهي في أرض قفراء مملوءة بالأشواك والشجيرات والصخور السود.. نهضت وسرت ، فلم أعرف كيف أو إلى أين أسير ...

تذكرت أنني ميت ، فكيف لي ، ولماذا أعود الى الحياة؟لكن لم التساؤل؟ هذه هي الحقيقة ، فلأسلم بالواقع .. أنا ميت ، المهم الى أين أذهب ؟ ربما عرف أهل المدينة قصتي ، ورفضوا مقامي بينهم .. ثم صديقي ذلك الذي غدر بي ، قد يشاهدني .. وزوجتي وطفلتي ماذا حل بهما ؟ آه لو أعرف كم لبثت في مدفني ، أرى الدنيا هي هي لم تتغير ، كأنني لم أتغيب غير يومين أو ثلاثة ...

سرت باتجاه المدينة ، دخلتها من باب غريب لاأعرفه ، مشيت في شارع غاص بالمارة دون أن ألفت انتباه أحد ، أو أعرف انسانا ما .. عادت لنفسي طمأنينتها ، واستطعت أن ألاحظ شابين يتعانقان على الرصيف ، بجانب بائع فول سوداني .. أنا أحب الفول السوداني ، توجهت نحو البائع ، خاطبته ، فلم يبد عليه أنه يسمعني ، أخرجت نقودا من جيبي ، قدمت اليه كل مامعي ورجوته أن يطعمني شيئا من فوله ، فأدار وجهه كأنه لا يراني ...

لم أدر كيف وجدت نفسي امام بيتي . النوافذ مفتوحة والنور مضاء .. قرعت الباب وأنا أفكر بشيء أقوله مبررا تأخيري .. وصل مسامعي وقع أقدام في الداخل ، وبعد لأي فتح الباب . وظهرت زوجتي بشعرها الأسود

المتوسل اطـــارا حول وجهها ، وحدقت في عيني ، فلم تختلج في وجهها عضلة واحدة .

قالت :

ـ ماذا تريد أيها السيد !

ـ ماذا أريد ... ؟

ـ آسفة

ـ حتى أنت تنكرينني !

رمت في وجهي نظرة مطفأة وتابعت :

ـ أكرر أسفي ، أنا لاأذكر أنني عرفتك من قبل ... (واعجباه ، انها زوجتي ، وهذا بيتي ، أنا لست تائها ولا مخطئا ، فهل تغيرت سحنتي ؟) امتدت كفي ومسحت شعر رأسي منزلقة الى خدي وذقني ، ثم استقرت متهدلة بجانبي ...

قلت :

ـ لعلك لم تمعني النظر ...

ـ أرجوك لا وقت لدى للهزر ...

ـ وأنا أيضا ...

ـ هل من خدمة أؤديها لك ؟

ـ نعم .. أن تدعيني أدخل ...

ـ أجننت ؟ ماذا أقول لزوجي ؟

ـ زوجك ؟ من هوزوجك ؟ هل وجدت رجلاخلال هذه الفترة القصيرة؟

ـ لاتتدخل فيما لايعنيك ...

ـ لا يعنيني ؟ أنا هوزوجك الذي ما كاد يغيب عنك بضع ليال حتى تنكرت له .. أنا أبو طفلتك،أنا صاحب هذا البيت بما فيه ...

ـ لم يعد لدي شك بأنك معتوه كبير ...

ـ ابنتي ، أين ابنتي ؟ ...

ـ أنا لاأعرفك ...

ـ كنت دائما لاتعرفينني ...

ـ هيا انصرف أو أصرخ مستنجدة...

ـ تستنجدين بزوجك الجديد ؟

ـ نعم ..

ـ والأول ؟..

ـ مات ..

ـ مات .. ؟

ـ لا بل قتل في شجار مع رجل كان يغازلني بوقاحة ..

نظرت الى الداخل من فوق كتفها ، فاذا بي أرى صورة رجل غريب السحنة ، تنعكس في مرآة مثبتة في الجدار. حدقت الى الرجل في المرآة ،فحدق فيّ .. ابتسمت ساخراً ففعل مثلي.. عندئذ لم استطع كبح جماح عاطفتي،فطفرت الدموع من عيني حتى لم أعد أبصرها حولي ، فاذا الصورة في المرآة تبكي أيضاً ..

صرخت :

ـ طفلتي ، ابنتي ..

ـ ياهذا أنت رجل تعتعه السكر ..

واغلقت الباب بعنف شديد ..

الجبل

نواف أبو الهيجاء

مهر الدم الافق بخاتمه . خلف وراءه زحفاً عارماً من مقل مشويّة بشواظ من النار . اقف على السفح هادئاً . لحظات من محاولة نسيان كل شيء . الاحساس بالفراغ ، لحظة ، يخلق فيّ نهراً من صفاء افتقدته أعواماً طويلة . أبخرة هي المدينة تتصاعد الى السماء ، بجمرة متقدة تخيفني . لا شيء الا الموت .

منذ وطئت قدماي ارضها ، غريباً كنت ، في الشوارع المزدحمة بالناس وفي الأزقة حيث تندفع البنايات حبلى بالآلاف من البشر . شعرت بنفسي غريقاً في خضم بحر زاخر بالعجائب مثقل بالسفائن المدمرة . في وسط الزحام سرت : كتف هنا ، يد هناك . اقتحمني في الزحام وجه :

– من أنت !؟

هتفت بصوت عال :

– ضائع في المدينة !

ضحك الوجه ، انسكب في العينين ظل لشارات لقاء عتيق :

– مثلي ؟

مد الوجه لي يداً ، مددت له يداً . اندفع ، في غفلة، سيل هادر من الزحام.. غاب الوجه . غاب .. غرق .

بحثت عن الوجه ذاك سنوات وليال واياماً طويلة . فتشت عنه في الصور، في خبطات أقدام المارة، في السيارات ، والواجهات ،والبيوت الحبلى، في الساحات وفي الشوارع ، في عيون البشر .. فلم أجده .

والوجه الضائع مثلي نسيته ، نسيت الا الشارات المنسدحة في أرضية العينين ، نسيت إلا حمرة الشفتين وهما تلفظان الكلمات الثلاث :

– من أنت !؟ ... مثلي !؟

لكأني في لحظة ما ، وسط المرجل الكبير ، سمعت صيحات مجهولة أماكنها :

– أين انت ؟

– هيه ، يا ضائعاً في وسط المدينة !

– أيها الوحيد أين انت ؟

وحين كنت التفت تصدم عيني أمواج هادرة من زحام مصطنع ، وسط اضواء النيون وهي تخفق في قلب المدينة . وذات ليلة ، نسيمها ريح سموم ، غبارها يدمي العيون ، تعلقت أهدابي بالجبل . حلمت ، وانا بعد في اليقظة ، انني

أروض الجبل ، انني فارس ، امتطيه ، أسرجه ، اروح عليه واغدو .. اقفز من فوقه واثب على ظهره . حلمت به حين نمت حتى انني استيقظت وفي حضني بقايا من ترابه المرشوش فوق الصخور السوداء الكثيرة المتفجرة من باطن الأرض .

في الصباح ، رفضت ان اغتسل خشية زوال رائحة تراب الليلة الطويلة .

عدوت في الشوارع . خلال لحظات سريعة خاطفة انتقلت عيناي هنا وهناك ، وهنالك ، بحثاً عن الوجه الضائع في زحام المدينة فلم أعثر عليه . على حين غرة كنت اركب الجبل ، الهث . في غمرة الاحداث كانت المدينة تركع تحت قدمي . الجبل يتنفس بثقل . المدينة مخنوقة الأنفاس . الشمس تلعق اقدام الجبل . المدينة صاغرة .. أبخرة تتصاعد ، ودخـــان اسود يلفهـا من كل جانب . في البعيد رحلت عيناي الى البساتين الخضر . اخترقت تشابك الاغصان ، ارتطمت بالثمار المتدلية منهـــا . رأيت الشمس تسبح في عرسها ، احسست بالجبل من تحتي يتحرك :

ـ هيا أيها اللعين ، حلق بي .. دعنا نبحث عن الوجه الذي ازاحه الزحام فغاص في الخضم .

الاسطح والمداخن ، الحبال تئز من ثقل ما نشر عليها ، الريح تصفعني بغضب . اخترق الحجب السوداء ، انظر الى الاسفل ، الاحجـار الصغيرة تلك تضم الملايين من البشر . وأبتسم : الرجال نقاط مبعثرة هنا وهناك . رأيت كل الوجوه ، تفرستها جيداً بعد ان لكزت الجبل . بحثت مع الجبل عن الوجـه ، لم نجده . في اطراف المدينة رأيت جمعاً من سواد .

ـ اهبط الى الاسفل يا جبل .

ناخ الجبل . بينه وبين النـاس متر واحد . حملقت في الوجوه . وجوه مرصوفة كالتحدي ، عيون متقدة . كتلة ملفوفة بالسواد .. واجداث .

دنوت بهدوء من الكتلة .. هبطت برفق ، رفعت الرداء الاسود ، وحملقت . خر الجبل ساجداً . الوجه الغائب هنا ، يريدون ان يواروه التراب .

توقف كل شيء لحظة . الجبل فوق الرؤوس .. استطيع أن أرى احشاءه ، وصدره ، استطيع قراءة ما تقوله النهود المبثوثة في كل مكان ، من شوق وحنين وحرقة . فجأة هبط كل شيء . ابتلع الجبل المدينة . صحوت لنفسي . تحسست جسدي . بحثت عن الوجه ،لم اجده.. لم أمت بعد .

بانيابي وبأظافري ثقبت بطن الجبل وخرجت . كان في مكانه الأول . المدينة صاغرة تحت قدميه ، ولكنها لم تكن مجمرة متقدة . الشمس تلعق أطراف الجبل .

حين تجولت في المدينة كانت كالموت . الشوارع خالية . لاشيء. تعلقت أهدابي من جديد بالجبل . جميع الاحياء ابتلعها هذا النهم . أين الوجوه .

كل شيء ميت في المدينة . وكنت أحب الصمت .

بعد ايام كتبت هذه الرسالة ، طيرتها مع الريح للجبل :

« اسمع ايها الجبل ، ينبغي ان تفعل احد اثنين : إما ان تبتلعني مع الجميع الى الأبد ،أو ان تخرجهم إلي . »

انتظرت أياماً طويلة وليالي مؤرقة لأسمع إجابة الجبل . واخيراً ، وفي ليلة سوداء مظلمة مات قمرها ، هز الكون هدير . حين خرجت أستوضح الأمر لم تتعلق اهدابي بالجبل ، ولا بالضياء البخيل في قلب المدينة . كان في السماء وجه كبير ، كبير ، يصرخ :

– من انا ؟

وأجيب :

- مثلي !

مددت له يداً ، مد لي يداً ، وفجأة كان الجبل يبتلعه هو الآخر .

الشعر

غزل دمشقي

ممدوح عدوان

يا حلوتي التي أحبها
أحلم أنني أراها
وهي في النافذة المقابلة
أمر قرب بابها
أرفع صوتي وأنا أختلق الحديث
كي تسمعني
توقظ في قلبي الجراح الغافلة
وحينما يتعبني التجوال بين الأوجه المجاملة
أعود للخوف القديم أحتمي به
أستر وجهي بالتحية المخاتلة :
أسير بين السابله
كجمل في قافله

وبغتة

أسمع في الظلام صوتك الحبيب

أسمع تلك الصرخة المروعه

تنقع الأضواء والوجوه وسط الزوبعه

أسمع بسملات شيخ ،

همهمات من نساء ،

والكل يلهجون : « يا ستار »

أشق دربي راكضاً

بين الذين صعقوا

تسمروا

ورفعوا وجوههم إلى السماء

وحينما يتعبني الفرار

أسند رأسي خائفاً إلى الجدار

أسمع نبض قلبه

يرتج في الأحجار

حتى المذيع ارتجفت نبرته

فكاد أن ينهار

حين ابتدا ليقرأ الأخبار

* * *

وسط الزحام ،

خلف تلك الأوجه المبرقعه

في قاسيون ، في عبوسه ،
وفي الحجارة المتقعه
وفي وجوه النسوة الملتمعه
يرعبني التوجس المخيف
يرعبني الدم الذي يقطر فوق جبهة الوصيف
وفوقه أقدامهم تمر مسرعه
أهرب صوب بيتنا مرتجفا
واوصد الباب ورائي كي أنام
وحينما أغفي وفي العينين طيفك الأليف
يوقظني وقع النزيف .

* * *

يا حلوة تمددت على الدروب منهكه
كامرأة منتهكه
كان بنوها حولها يذوون في سكون
يخفي ضمورهم بريق البلدة المحنكه
ولا يرون أمهم ولا يرون جرحها
بل يسمعون النزف قطرة فقطرة
ومقلتاها ترقبانهم
ولا تقوى على مسح جبين
وهي ترى دماءهم خلف الخطى المرتبكه
وحدي بحثت عنك ،

يا سيفاً بلا ذراع
وحدي بحثت عنك في الأزقة المشققه
يا مجدنا الذي غفلنا عنه لحظة فضاع
وصار صورة على الجدران ملصقة
أبحث عنك علني أمسح عن جبينك الحنون
بعض طلاء القصة الملفقه
وحين لا أرى سوى تلك الرؤوس المطرقه
أخاف أن أطل فوق قاسيون
كي لا أراك صفحة من كتبي الممزقه
كي لا أرى الدم اليتيم في رمال ميسلون
فأحضن الوجوه والجدران
في أغنية اللقاء والوداع :
« يا أمنا المختنقه
على حبال المشنقه
إلى متى
إلى متى تبقين هكذا معلقه ؟ » .

حوارية بين المريد والشيخ

محمّد أحمد العزب
ـ القاهرة

ـ : ولدي
اهجر أشياءك واتبعْني فالدربُ بعيد
لا تنظر خلْفك فالدنيا قيءٌ وصديد
والجنة يا ولدي أبداً لم تُخلق إلا لمُريد ..
أو لشهيدْ !!

ـ : يا شيخي :
لا تغلق أبواب الجنّة في وجه الفقراء
يُلهيهم كدُّ الساعد عن حفظ الأوراد العجفاء
يلهيهم يا شيخي حتى عن حرب جيوش الأعداء
يا شيخي ..
قد يعبد إنسانٌ مولاه

بالعَرَقِ النازف تحت الشمس
ورْداً من أوْجاعٍ ومعاناه
ونشيدَ قتالٍ لليأس
يا شيخي ..
كلُ زمانٍ يختار
وقصور الجنّة من ذهبٍ ... لا من أحجار !!!

— : لكنْ يا ولدي ..
إن غاضتْ من ماء الدعوات الأنهار
وتعطّل فينا التذكار
وانكفأتْ في الظلمات بجنْد الحقّ خيولُ الأسرار
ماذا يجدي ذهبُ العالم يوم العرْض
ماذا يجدي للانسان
إن بَطّأ في الطرقات طويلاً حتى فات أوانُ الفرْض ؟؟

— : يا شيخي .. هَوْنَكَ ..
إنّي أُبْصر فيك الموجود الضائع
لا تهجرْني .
ما حرّكَ قوْلي بركاناً في الأرض ..
ولا شدّت كلماتي في الأفق زوابع
والكون هو الكون ..
بقايا خِرَقٍ .. وتكايا .. وجوامع
وكنائس تهزم صوت الله ..

وبيعاً اقباءَ فواجع
مملكة بغايا .. ومخانيث
وصحائف زورٍ ممضوغٍ وأحاديث
يا شيخي الواصل ..
لا تلعن دنيانا .. أبداً .. لا تغترْ
فوجودك قدّيساً مرهونٌ يا شيخي بوجود الشرّ !!

- : هذا زمن ممزوقٌ من عطفيه
فدماء الحق تسيل على كفّيْه
لو كان الأمر إليّ لما أبقيتُ على العالم برهه
ولكنتُ قضيتُ عليه .. قضيتُ عليه !!

- : يا شيخي .. عفوك ..
لكنّي لو كان العالم بين يديْ
لرفوتُ بأهدابي حلمَ السّاعين على الأرض الفقراء
وتشاطرنا كسرات الخبز وحسوات الماء
ولكنتُ مسحتُ بمنديل الرحمة أحزان العاصين
وغفرتُ لكلّ الخطّائين
فالعالم يا شيخي يكفيه من الأحزان الكونيّه
أنْ حُمّلَ وشْم نهايته من قبْل طقوس التكْوين !!!

- : الخالدُ يا ولدي لا يبدع إلاّ منتهاهْ !!!

- : حاذيْتَ .. ولم تدخلْ يا شيخي ..
فلماذا يُبْدعنا الله ؟؟؟



أنس داود
- القاهرة

طفلك يتفزّع في نومه

تهمس صرخات الرعب ، نذير الغارة في حلمه

زوجك تسعل

في عينيها نظرة حزن تسأل

هل تقضي الليلة في دفء الحجرة ؟

أم تجري وتهرول

عبر الباحة

عبر الطرقات

الى اعماق الخندق

حين تهب الأشباح الغضبى .

من كل طريق تتدفق

ورصاص وحرائق تشعل
في قلب القدس ، وفي الجدل

* * *

أعرف أن الصبح يجيء ولا تسأل
تمضي البيارات ،
وعبر الكرمة والمشتل
وتروم المرعى في مرعاي ولا تخجل
لكن اللغم هنا وهناك يتفجر
يرفض جرّارك
يرفض فأسك والمنجل
أرضي ، كرمتي الغناء
وزيتوني الأخضر
تعرفني
تعرفني الناعورة والجدول
وهناك وراء الكرمة بيتي يتسمّع
طلقات المدفع
ويزغرد حين تهرول في منتصف الليل
جباناً تتخفى
الموت وراءك ، قدّامك
فانتجع الخوف
هل تسمعني ؟

ترفضني الصحراء ،

ويلعنني المنفى

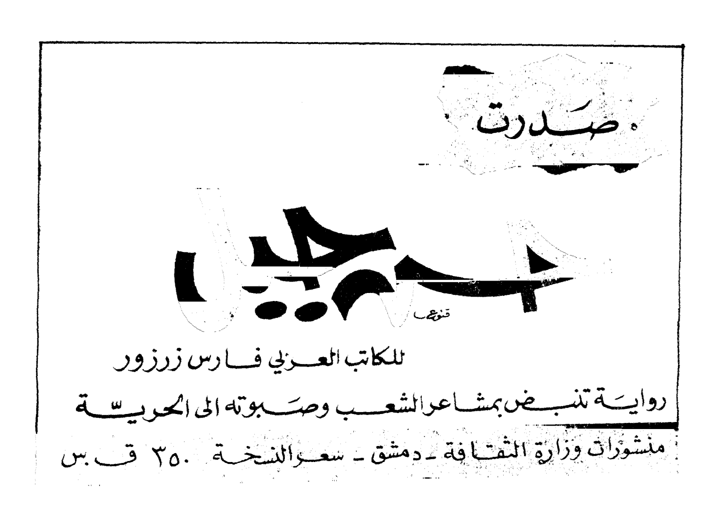
ويناديني عاري

أن أنسلّ الى بيتيَ زحفا

ان أقتل وأنا الطاهر كفّا

أن أقتل ألفا

أن أقتل ألفا



الزِّط

في أيام الدولة العباسية ثار الجائعون والعبيد واتخذوا الأهوار شمالي البصرة مركزاً لهم . وعرفت ثورتهم في التاريخ باسم : حركة الزط

احمد يوسف داود

- ١ -

مهلا أمير المؤمنين ! كلما ركلتني
أدير ظهري لك !!
أسقط لون الجبة المقصبهْ
أمرغه بالطين في شوارع المدائن المعذبة
وجهي على المستنقعات يجدل القصبْ
يقيمه سوراً .. وها إني وراء السور أرتقبْ !!

* * *

خيولك النجيبةُ الدهماءْ

كوكبة تمر إثر كوكبهْ
شددتُ فوق بطني الحجر
لعل إن مرت بي العمامة الخضراء
رميتها بضربة من سيفي الخشب
وبعدها احملني إلى التنور واصرخْ :
- إنه كفَرْ !!

* * *

مهلاً أمير المؤمنين كلما ركلتني
علقت شيئاً منك .. من حليك الصفراء في القصبْ !!

- ٢ -

رمت بدويتي ثوباً
فهاجت حوله الخيلُ
وأنّ الجائعون ! فغاص حتى القاع جامحها ..
وأرخى ستره الليلُ
وطاف بنا أمير المؤمنين وشدّ ! .
مهلاً .. إنه لايوقف السيلُ !!

- ٣ -

لعلك تذكرين إذا ..
قرأت حكايتي أختام مولانا

ورأساً راقصاً والنطع وهاج ..
بتغريد الدم الوردي !
« قبل الصبح صار الرأس سلطانا !!»
فمالك أنت ؟ ترتعشين مثل ذبالة الزيت
كأنك سوف تولد منك ثانيةً
على المستنقعات خيولهم وسرير مولانا !
ومعذرة ؟ سأنكش ليلة الضوء العميقة .. ليلةالنجوى
وتاريخاً من القصب المضمخ بالوحول ورهبة الموت

أمير المؤمنين يعلق الاختام في نهدينْ
وجارية تقلب عريها فوق احتلام السبحة البيضاءْ
وتقرأ في دواوين الهبات مناقب الأمراءْ
فشدي لي على جرحي
عصابة ثوبك البالي
لعلك صرت طعماً للسياط غداً
إذا لم تبق أحجار تقيم قصوره في هذه الصحراء
وأصدر أمره « لاتربطوا حجراً على بطن
ولاتبنوا بها بيتاً »
لعلك صرتِ درباً للخيول غداً
فأنت صبية ولدت بلا ثديينْ !!

— ٤ —

تجيء خيوله !! وحليه اتقدت . .

لتشعل ساعة القتل المباح وتصدر الفتوى

وماحلمت مدينتنا بغير القتل !ماحلمت بجارية !ولاتقوى !!

وصلّى ! ذات يوم سوف تسأله جواريه

عن الفتح المبين وكيف أخضعنا

ويبسم تحت ظل الثدي يلعننا

فنحن الكافرون لأننا جعنا !!

امير المؤمنين يفض سر الصمت عن دمنا

وأُأثر بالرؤوس السور . . سور مدائن المستنقعات !

وفارت النارُ

وأذن في المساجد صوته : « الله اكبر » !

نحن أخضعنا

وطافت إِصبع الله الرحيمة بالقبور فأصبحت مخضوبة حمراء

وراوغها أمير المؤمنين بخطبة عصماء

وفي كل المآذن ُعلق الريحان والغارُ

فنحن الكافرون لأننا جعنا !!

— ٥ —

ألقى أمير المؤمنين أمره

أن يشطبوا أسماءنا السوداء من سجل بيت المال

وغمزت جارية بعينها

وأسبلت رموشها الطوال

فقال للكتاب وهو حالم :

– ضعوا أخيراً هذه الكلماتْ

« في الشرع لايجوز للكفار او أبنائهم

شيء من الاحسان والزكاةْ

ومالهم وإرثهم حرامْ

فليستحل عقداً لجيد هذه السمراء أو خلخال !!»

الفارس ذو الشارة

الى الفدائي العربي أينما كان

عمر ابو سالم
– عمان

– ١ –

وانتظرناك طويلا ..
مذ بكيناك صغاراً .. وكبارا
ولعقنا جرحنا النازف من عشرين ،
كبريتا .. وقارا
بعد ما عشنا على الصمت حيارى
نلعن الحظ .. صباحاً ومساء
نتقي الغاصب بالسخط ،
بشارات العداء
نتلهى .. مثلما الأطفال بالعيد ،
ونستجدي السماء

ان تعيد العام بالخير علينا ،

والثواب

وتزيل الاثم عن أرواح موتانا .. وتكفينا

العـــذاب

– ٢

لم نكن نملك غير الدعوات ..

نتهاداها بحزنٍ .. يا ضياع السنوات

همّنا كان رضاء الأولياء الصالحين

واحتراف الوعظ والسحر بجمع الميتين

تُرى قد صيّر تناخيبة الأعوام تيهاً ،

لا يعي ..!!

ورضيناه متاهه ؟؟

أم ترى قد خدّر الخوف دمانا .. من سنين

فاتقينا ذلنا فيه .. أرخنا عنده ،

ميراث جيل المتعبين

والتففنا بعباءات التفاهه ؟؟

– ٣ –

وانتظرناك طويلا ..

أيها القادم من أرض الحقيقه

خوبياً .. شق في الليل طريقه
عمّد الجرح بعصف الريـح صاغه
وبه خط انتصارات عريقه
وأزاح الليل عن أبصارنا مذ ،
أدمنت ذل الحياهْ
واستطال الدمع في أحداقنا ،
رعباً تدلى كالشفاه
وتصبىّ .. كالعرق ..
من مزاريب الجباه .

– ٤ –

أيها الآتي إلينا كالفرح !!
في مزامير العباره ..
أشعل النار بقلب الليل ،
مزق وجهنا المجدور ... هبنا ،
نعمة النطق .. وعلمنا حواره
واطرح عنا دثار الصمت .. مزقه ولوّح ،
بمناديل البشاره
نادنا من آخر الأرض القصيه ..
لنلبيك النداءْ ...

ردنا للريـح .. للصبـح .. لأرض الأنبياء
وانزع السكين .. من عنق الضحيه
ومن الجرح .. وألوان الشقاء
بارك الأطفال بالضوء .. صبياً وصبيه
وافتح الأبواب .. أسمعنا نشيدك ...
في صهيل البندقيه .

- ٥ -

كبر الجرح بعينيك اتساعا
مذ تألقت كنجمٍ لم يعد يخشى الضياعا
ومنحت الأرض نبضك ..
بعد اغفاءة جرح .. ظل ينزو في ،
جبين الشمس حزنا والتياعا
وتحديت زمان السوط والجلاد .. فينا
واستبقت الخطو للأرض الوجيعه
حاضناً فيها مسافات الرجوعِ
مطفئاً حتى قناديل الدموعِ
وذبالات الفجيعه ..
أنت غسّلت جراحاتي بثأرك ..
ذدت عن عرض الوديعه

وبحد السيف .. قاتلت بصدرك

« أيها القادم من أرض الحقيقه

عربيا شق في الليل .. طريقه

عمّد الجرح بعصف الريـح صاغه

وبه خط انتصارات عريقه »

* * *

العاصفة الأخيرة

خالد محي الدين البرادعي
- الكويت

كطيرٍ مهاجرْ ..
يُنفّضُ عن جانحيهِ الترابْ ..
وأعياهُ تيهُ التجاويفِ ، والاغترابْ .
تُدافعهُ همهماتُ الرياحْ ..
وأحلامُه الطائراتُ .. تزورُ مهادَ الصباحْ
كطيرٍ مهاجرْ

حننتُ الى الموطنِ الأخضرِ ..
الى الدفءِ في واحةِ العنبرِ ..
كطيرٍ مهاجرْ

يلاحقني ، ألفُ ألفِ حنينْ
الى الدار بين جنينات ِخفقِ النجومْ ..
وراءَ ألوفِ المعابرْ .
وعبر الرؤى .. في خيالِ مسافرْ
أحنُّ الى صُبحكِ المرمريِّ ..
ربوع العطاءْ
وأصغي الى صوتكِ العبقريِّ ..
بألفِ اشتهاءْ .

* * *

أما وفرةٌ من نعيمْ ..؟
أما من غضارةِ عيشٍ ..؟
ومن سرمديٍّ اخضرارْ ؟

شُددتَ لهذا التمني ..
جُبلتُ بهذا الرجاءْ
قديماً .. قديما .
وفي القلب لينٌ ، وفي النفس إطلالةٌ للنماءْ .

وكنتُ كثيرَ الأماني .. جَهولَ المسارْ
ونام الظلامُ .. بعينِ التمنيِّ ..
يَشلُّ الرؤى .. تحتَ ذاكَ الأسارْ

فجاءَ صهيلُ جيادِ الأُلى . .
كحشرجةٍ . . بين أيدي احتضارْ .
ولاحَ بريقُ السيوفْ
كحزمةِ ضوءٍ . . تَمُرُّ بأنفاقِ غيمٍ كثيفْ .

وسالت جراحاتيَ الراعفةْ
وطال انتظارٌ ، ومَلَّ اصطبارْ .
إلى أن تَبَدَّى الخطرْ .
وَجُنَّتْ أبابيلُها العاصفةْ .
تَفُضُّ عن الظلِ ثوباً قديما
فيعرى . . وتظهرُ أبعادُهُ الخافيات
وفي العريِ . . يحلو الصفاءْ .

وَمَرَّتْ من الليلِ بعضُ قوافِلِهِ المظلماتْ .
تدوسُ على عاطرِ الأمنياتْ .

وأوغلَ سوطُ الأسى في الجراحْ
وطال فخاضْ . . .
وخاضت خيولُ الدجى في بحارِ الصباحْ
ومرَّتْ فلولُ الظلامْ . .
وشَلَّتْ أساطيرُها العاصفَةْ
وكانت أخيرَةْ . .
تجرُّ ذيولَ العفاءْ

وتَطوي المآسي بأثقالها
وتسحبُ بقيا ضفيرَةْ
لِلَيْلٍ طويلٍ طويلْ . .
وتكنسُ أعجازَ نخلٍ قديمْ
وفضلةَ نبتٍ عقيمْ
وتمسح عن وجهِ خصبِ الترابِ النديّ . . .
بقايا هشيمْ . .
كُسارَ شجيراتنا الميتاتْ
وأعقابَ عرشٍ . . . هزيلِ المقامْ

يذوبُ . . كَما دومَ تحتَ الحُطامْ
وَتمّ ارتحالُ الظلامْ .
وذابت ثلوجُ الشتاءْ .
ولاحتْ تقاطيعُ وجهِ النهارْ
لتمشي قوافلُنا الظافرَةْ
وتلمسُ راحَ الشفاءْ
جراحاتِنا الناغرَةْ
ويرجعُ طيرٌ مهاجرْ .

مع التيارات الفكرية

دورنمات

و «زيارة السيدة العجوز»

نبيل حفار
– لايبزغ –

يرى دورنمات[1] أن البشرية في عصرنا هذا أشبه ما تكون بسائقة سيارة تقود دوماً بانتباه أقل على طريقها الطويل ، لكنها لا تحب أبداً أن يصرخ الراكب بجانبها : «انتبهي!» و «هناك إشارة خطر !» و «عليك الآن أن تفرملي!» أو «لا تدعسي هذا الطفل!»،

(١) أثارت مسرحية دورنمات « زيارة السيدة العجوز » في الأوساط الأدبية الأوروبية والعالمية ، وما تزال تثير نقاشاً كبيراً جداً . وقد أخرجها مؤخراً للموسم المسرحي الحالي في لايبزغ المخرج الالماني هانزميشائيل بشتر ، الذي يعتبر من كبار مخرجي المسرح في العالم .
« المعرفة »

(١) ولد دورنمات في مدينة كونولفنغن Konolfingen في ١٩٢١/١/٥ ، وكان أبوه راهباً اصلاحياً . (١٩٤١ – ١٩٤٣) درس دورنمات في جامعة برن الأدب الألماني واللاهوت والعلوم الطبيعية وبدأ أولى محاولاته الأدبية ، ثم انتقل سنة ١٩٤٦ إلى بازل وتزوج من الممثلة لوتي غايسلر Lotti Geissler وبدأ بكتابة ونشر مسرحياته وقصصه . انتقل سنة ١٩٥٢ إلى نيوشاتيل Neuschâtel حيث يسكن حالياً .

وتكره أيضاً أن يسأل أحدهم عمن يدفع ثمن السيارة ، أو عن ذاك الذي قدم لها البنزين والزيت لسفرتها الجنونية ، أو إن طلب أحدهم رؤية رخصة قيادتها ، فقد تظهر بعض الحقائق غير المريحة . فمن الممكن أن تكون السيارة مسروقة من أحد المقربين ، ومن الممكن أن يكون ثمن الوقود مبتزاً من الركاب أنفسهم ، أو قد لا يكون هناك بنزين على الاطلاق ، وإنما دماء الجميع ، وعرقنا كلنا ؛ وقد لا تكون هناك أية رخصة قيادة . بل ومن الممكن أن يظهر أنها تجلس لأول مرة في حياتها خلف عجلة القيادة . من الطبيعي إذاً أن يكون السؤال حول مثل هذه الأشياء مؤلماً .

على عكس هذا ، تحب أن يطري لها الانسان جمال الطبيعة المسافرة عبرها ، وفضة نهر أو خرير آتٍ من بعيد ، وتحب أيضاً أن يهمس الانسان في أذنها بأقاصيص مسلية .

ولكن لا يمكن لكاتب عصرنا ، إن كان ذو ضمير واعٍ ، أن يهمس بمثل تلك الأقاصيص وأن يطري جمال الطبيعة . ومن المؤسف أيضاً أنه لا يستطيع مغادرة السيارة كي يلبي مطالب اللا شعراء أو اللا أدباء بأدب نقي صالح . القلق والغضب والخوف يفغرون فاهه ويحركون قلمه .

مضامين خفية :

تبدو مسرحية « زيارة السيدة العجوز » لأول وهلة سهلة الفهم ، سهلة الاخراج ، خاصة بعد قراءة ملاحظات كاتبها حولها . لكن ذلك الذي يحاول الوصول الى ما وراء الكلمات التي تبدو في الظاهر واضحة لا تستدعي أي شرح ، يصطدم بأقفال كثيرة وضعها ذكاء دورنمات ، وشكلتها براعته في التلاعب بظواهر

اللغة كوسيط تفاهم بشري في المجتمع ليغلف مراده بقشور تلمح للمضمون تلميحاً فقط .

في كثير من المحطات يقف (القطار السريع) وفي أخرى لا . ودورنمات يسأل عن السبب ؛ وتخطر له فكرة أو « وسيلة تكتسب بها الكوميديا بُعْداً Distanz »[1] . كنموذج لعالم أضحى فيه الازدهار الاقتصادي الظاهري Konjunktur مسخ إله ، اختار المؤلف بلدة صغيرة كان يقف فيها (القطار السريع) وانقطع الآن عن التوقف ترسل المليونيرة ـ أثرى نساء العالم ـ كليري تسخاناسيان Claire Zachanassian إلى هذه البلدة ـ مسقط رأسها غولين Güllen ـ التي تعاني منذ سنوات لأسباب غامضة من فقر مدقع خبراً بزيارتها ، لذلك يأمل السكان من الضيف الكريم مسنداً قوياً لوضعهم المالي ، ولهذا السبب يتحول التاجر البسيط إل Ill ـ عشيق المليونيرة في شبابها ـ بين عشية وضحاها لأكثر المواطنين أهمية ، لتوقعهم منه تأثيراً فعالاً على عواطف المليونيرة تجاه مدينتها البائسة . تصل الزائرة مبكرة عن موعدها مع حاشية كبيرة تتألف من : زوجها السابع موبي ، ووصيفها بوبي ، والمجرمين السابقين روبي وتوبي اللذين يعملان الآن في خدمتها كحملة لمحفتها ، ومن الأعميين المخصيين العجوزين كوبي ولوبي ، ومع تابوت جديد أيضاً في جملة متاعها .

بعد أن تزور العجوز بصحبة (إل) مطارح ذكريات شبابها في غابة كونراد فايلر Konradsweilerwald ، يدعو المحافظ وجهاء المدينة الى مأدبة غداء على شرف الضيفة ، ويلقي خلالها خطبة رنانة يثني فيها على صفات الضيفة ويمدح

---

(١) Friedrich Durrenmatt « Theaterschriften und Reden » Im Verlag Der Aiche Zurich 1966 Serte 180 . 183

حبها للخير وكرمها ، فتشكره المليونيرة بعبارات مواربة وتقدم تبرعاً سخياً مفاجئاً مقداره مليار ، نصفه للمدينة ونصفه الآخر يوزع على العائلات بالتساوي . لكنه سخاء مشروط ، فهي تريد شراء العدالة لقاء هذا المبلغ .

وبمساعدة حاشيتها تسرد العجوز قصتها على سكان المدينة : تبدأ هذه القصة عندما كانت في السابعة عشرة ، حمراء الشعر ، شديدة الاغراء ، ومغرمة بالشاب (إل) الذي يغويها وينكر من ثم أبوته للطفل الذي تحمله منه . يكشف وصيفها بوبي عن شخصيته ، فإذا به قاضي المدينة السابق ، ويكشف كوبي ولوبي عن أنفسهما فإذا بهما ياكوب هونلاين ولودفج شبار ، اللذين أقسما في المحكمة – بعد أن رشاهما (إل) بلتر خمر – بأنهما على علاقة بكليري ؛ وبذلك يستطيع (إل) كسب القضية والتنصل من فعلته ، مما يسبب اضطرار كليري للهروب من المدينة لتجد عملا في بيت دعارة في هامبورغ ، وما يؤدي لموت الطفل بعد عام من ولادته .

تتعرف كليري في هامبورغ على المليونير تسخاناسيان وتتزوج به ، أما (إل) فيتزوج من ابنة تاجر صغير . بعد سنوات طويلة تصبح كليري أثرى امرأة في العالم ، فتدخل القاضي في خدمتها كوصيف ، وتبحث عن (هونلاين) و (شبار) حتى تجدهما ، فتعميهما وتخصيهما وتضمهما بعد ذلك لحاشيتها الغريبة ، وتعود بعد خمسة وأربعين عاماً من بدء قصتها الى غولن لتأخذ ثأرها من (إل) الآثم الأول في حقها . تعد المدينة بمليار إذا قتل السكان (إل) . وباسم الانسانية وسكان المدينة يرفض المحافظ عرض المليونيرة وشرطها الذي فاجأه .

في الأيام التالية يؤكد سكان المدينة لإل أنهم بجانبه وأنهم لن يتخلون عنه ، لكنهم يبدؤون شيئاً فشيئاً بشراء احذية جلدية صفراء على الحساب وسجائر أفضل ، وحليب أفضل ، وكونياك بدلاً من الخمور الرخيصة . ويرى (ال) الخطر

الذي بدأ يحـــدق به من تعود السكان الفقراء الآن على مستوى معاشي مرتفع تدريجياً ، فيطلب من الشرطي – الذي يلبس الآن أيضاً حذاء أصفر ، ويلمع في فمه ضرس ذهبي جديد – اعتقال المليونيرة لأنها مسببة هـــذا الخطر ، لكن الشرطي لايرى في هـــذا أي داع للاعتقال ، فيلجأ الى المحافظ الذي يخبره بأن ترشيحه لمنصب محافظ في الانتخابات القادمة قد فقد مفعوله لفقدان المؤهلات الأخلاقية اللازمة لدى (إل) ، وينصحه الراهب بالايمان بخلود الروح بدل الجسد الفـــاني ثم يقول له بعد أن يشعر بخوفه الشديد : « اهرب ! اننا ضعفاء ، المسيحيون منا والكفار »[1] . يقوم (إل) فعلاً بمحاولة وحيدة للفرار من المدينة بالقطار، وفي المحطة يتجمهر حوله سكان المدينة ، وكأن تجمعهم صدفة ، فيتملكه خوف مفاجيء ولا يتحرك من مكانه الى ان يسافر القطار بدونه ؛ عندها يعرف (إل) ألا مخرج له مما هو فيه . أثناء هذا الحدث المتصاعد تحتفل المليونيرة بكل هدوء بخطوبتها الى زوجها الثامن .

حتى عائلة (إل) بالذات لم تنج من موجة الازدهار الاقتصادي ، وترى في خوفه وحجزه لنفسه في حجرته جنوناً هستيرياً ، لاعتقادها رغم كل شيء بطيبة كليري . المعلم هو الوحيد الذي يشذ عن الجميع ويقوم بمحاولة أخيرة عن طريق الاتصال بالصحافة العالمية لانقاذ (إل) من الشرك ، لكن سكان المدينة يمنعونه من فتح فمه .

يقرر وجهاء المدينة عقد اجتماع عام للسكان بحضور الصحافة والتلفزيون

---

(١) Friedrich Durrenmatt « Besuch Der Alten Dame » Aus « Komödien I » Im Verlag Der Arche, Zurich 1957

للتشاور في عرض المليونيرة ، لذلك يحضر المحافظ وبصحبته بندقيته محشوة ليخبر (إل) بعزم المدينة على قبول العرض ، وليعرض عليه الانتحار بدلاً من الفضيحة العلنية ، لكن إل يرفض أن يرفع عن السكان مسؤولية عملهم إذا أقدموا عليه ، رغم اعترافه بذنبه وتوقفه عن الكفاح من أجل النجاة !

بعد القاء المعلم — الذي ضعف وانضم لصفوف سكان المدينة — لخطبته الرنانة في الاجتماع المسائي أمام ميكرفون الاذاعة وعدسة التلفزيون ، حيث يعلن فيها عن قبول المدينة لعرض المليونيرة ، يخلي المحافظ والشرطي والراهب والطبيب والمعلم وآخرون أيضاً قاعة الاجتماع من السكان ورجال الصحافة ويقتلون (إل) ثم يعلنون على لسان الطبيب أنه قد مات بالسكتة القلبيـــة لابتهاجه الزائد بانتعاش مدينته .

وفي حين يشكر سكان المدينة — الفقراء سابقاً بسبب شراء المليونيرة لجميع معامل المدينة ومنشآتها وايقافها عن الانتاج — الله على النعمة الجديدة ، تغادر المليونيرة المدينة في القطار والى جانبها في التابوت جثة ضحية انتقامها التي ستنقلها الى قصرها في كابري كذكرى لحب ميت .

* * *

يقول دورنمات عن مسرحيته هذه : « إني أصف بشراً وليس دمىً ، حدثاً وليس رمزاً لحدث Allegorie ، أشيد عالماً ولا أعرض أخلاقاً كما يقال عني أحياناً » ويقول أيضاً : « كليري تسخاناسيان لاتمثل العدالة ولا خطة مارشال .. فهي فقط ما هي عليه ، أثرى امرأة في العالم ، وفي وسعها بواسطة ثروتها أن تمارس أفعالها بشكل مطلق ومريع تماماً كإحدى بطلات التراجيديا اليونانية ،

مثل ميديا مثلاً[١] . » .تمثل عجوز دورنمات في قوتها المبالغ في تأكيدها وفي عالمها الخاص المتحجر ،شخصية مسرحية رائعة ، أما في البناء المسرحي الفني لهذه الكوميديا التراجيدية ،فما هي إلا محرك الحدث أو الباعث على الحركة ، لقد أسبغ عليها دورنمات صفات تكسبها بعداً لا إنسانياً فأعطاها ساقاً اصطناعياً ويداً اصطناعية وغير ذلك ، وحلاها أيضاً بروح فكاهة مرة ، خصها بها وحدها دون باقي شخصيات المسرحية ؛ في حديث لها مع (إل) تقول له : « ليس في جسدي عضو إلا وبه جزء اصطناعي ، أصبحت لا يمكن قتلي[٢] . » وبهذا اصطبغ محرك هذا الحدث التراجيدي بصفات لا انسانية تساعد على فهمه وتفسيره . يدور الحدث الحقيقي بين سكان غولن وبين (إل) الذي يقدم لنا في البدء نموذجاً أخلاقياً لنوعية سلوك السكان ، فهو ذو نفسية تاجر بلا أبعاد ، منافق وبلا ضمير ، لكن الكاتب لا يتركه دون فضيلة إنسانية : فاعترافه بجرمه تجاه كليري الشابة نوع من الفضيلة ، وهو مستعد للموت تكفيراً عن جرمه ، لكن استطاعته الموت ليست فعالية انسانية بحال من الأحوال ،وان كانت نظرة انسانية . يدرك (إل) ان موته حق ، لكنه يرى أيضاً أن قتل سكان المدينة له غير حق ، فيصرخ في وجههم : « يجب عليكم أن تصبحوا الآن قضاتي »[٣]. كلمات مليئة بالاتهام واليأس والتهكم في آن واحد ، فقد قبلوا العرض جماعة سلفاً رغم علمهم برأيها : « أوجدت الانسانية يا سادتي لبورصة المليونيرين ، فبقدرتي المالية استطيع أن أبني نظام عالم كامل . جعل العالم مني داعرة ،فسأجعل منه الآن بيت دعارة . من لا يمكنه الدفع ، عليه

---

(١) Theaterschiften and Reden

(٢) Besuch der Alten Dame

(٣) المرجع السابق

مواساة غيره إن كان يريد المشاركة في الرقص . أنتم تريدون المشاركة في الرقص. مستقيم فقط هو ذاك الذي يدفع ، وأنا أدفع . غولن مقابـــل جريمة ، ازدهار مقابل جثة[1] . »

لم يستطع سكان غولن –من المحافظ إلى الفنان إلى المدرس إلى الطبيب حتى الراهب –مقاومة إغراء المليار الذي يعدهم بازدهار اقتصادي ، فباعوا أنفسهم ومثلهُمْ لقاء ظواهر التخمة البورجوازية التي لم يسببها إلا وجود الربح الفاحش أو وجود أمثال كليري تسخاناسيان الرأسماليين ، اللا أخلاقيين .

رغم قول دورنمات أنه يصف حدثاً وليس رمزاً لحدث ، يمكن للانسان بعد تحليل جزئيات متناثرة هنا وهناك في المسرحية الوصول إلى مضامين خلفية خفية تبرِزُ لدى ظهورها نقد دورنمات غير المباشر واللاذع في آن واحد للنظام الرأسمالي وللأخلاق الرأسمالية وتأثيرها على الفرد والمجموعة . لنأخذ هنا بعض الأسماء والاشارات الواردة في المسرحية : يتألف اسم المليونيرة Zachanassian من المقاطع التالية في هذه الأسماء : Zacharoff - Onassis - Gulpenkian حسب دورنمات ، وهي أسماء احتكاريين عالميين وأبطال مضاربات التجارة العالمية . وفي ضواحي مدينة غولن التي تحمل صفات سويسرية ، أو على الأصح صفات مدن منتصف غرب أوربا ، توجد غابة تحمل اسم كونراد فايلر ، السياسي الألماني الغربي الذي أعاد إلى ألمانيا الغربية بعد سقوط النازية سياسة سيطرة الصناعة الكبرى أو التمركز المالي . إلى جانب هذين هناك حفيدتا المحافظ (أدولفينة وهرمينة) اللتان تسميان باسميهما ، على عكس وجهاء المدينة من المحافظ حتى الرسام الذين يردون دون أسماء وإنما بألقاب مثل : المحافظ ، الرسام ، المدرس ،

---

(١) المرجع السابق

الطبيب ، الشرطي الخ . عن طريق هذه الاستعارة الذكية والنادرة يوصلنا دورنمات بطريق غير مباشر إلى ماضي المحافظ ، أي إلى علاقته الوطيدة بالنازية وبحكم أدولف هتلر ، هذه العلاقة التي يجب معرفتها لتفهم وتفسير الأحداث الجارية في غولين .

إذا عرفنا أن هذه الاسماء كلها من نتاج مخيلة دورنمات وربطناها الآن بمعنى مدينة غولين – الخيالية أيضاً – المشتق من الكلمة الألمانية Gülle وتعني قذارة البهائم في الحظائر ، وربطنا هذا الاسم أيضاً بالرقم ٤٥ الذي يرد كثيراً في المسرحية – كتبت المسرحية عام ١٩٥٥ وقبل ٤٥ عاماً من ذاك التاريخ بدأت البورجوازية الصناعية في ألمانيا تستعد للحرب لتصرف منتجاتها . كما يمكن أن يشير الرقم ٤٥ إلى عام ١٩٤٥ أي إلى سقوط النازية وسقوط سيطرة ألمانية الصناعية – لاستطعنا إكمال الدائرة والوصول إلى المضمون النقدي لهذه المسرحية التي أوصلت دورنمات إلى الشهرة العالمية ، ولفهمنا ظروف مدينة غولين وسكانها الذين لن يستطيعوا تغيير أوضاعهم بهذا المليار ، لأنه ليس هو الحل . الحل أعمق من هذا بكثير ، وأعمق جذوراً في ماضي المدينة وحاضرها ، أي حاضر الدولة الموجودة فيها ، من أن يقوم مقامه ازدهار اقتصادي ظاهري مرحلي . لكنهم لم يروه ولن يروه طالما أنهم يدعون أنفسهم دمى معلقة على حيطان السادة ملوك الصناعة وعالم البنوك .

بالرغم من هذا النقد السياسي الاجتماعي اللاذع لا يمكن اعتبار دورنمات كاتباً ثورياً ، فهو ينقد النظام الرأسمالي القائم على الفوارق الطبقية ، ويرفض قبول أو التزام نظام آخر يحاول إزالة هذه الفوارق ، كما التزمه بيتر فايس مثلاً . بسبب هذا التناقض كان بامكان النقاد البورجوازيين إسدال الستار على إيديولوجية دورنمات النقدية وعلى القيم الجمالية الصادرة عنها ، بحجة أنه يترنح بين التناقض والشذوذ .

التجربة الرائدة ونقطة التحوّل

في المسرح العربي السّوري

أحمد ماهر الرّوماني

في أيار الماضي ، وخلال المهرجان المسرحي الأول الذي أقيم بدمشق ، ومن خلال الأعمال المسرحية المختلفة التي قدمتها الفرق العربيـــة التي اشتركت في المهرجان ، برز المسرح العربي السوري كمسرح ناشىء أصيل يريد أن يأخذ له مكاناً مرموقاً بين المسارح العربية ، مؤذناً ببداية عهد جديد . وقد تجلت هذه الظاهرة بوضوح في كل من مسرح الشوك ومسرحيتي بائع الدبس الفقير والفيل ياملك الزمان . فحق لنـــا والحال كذلك ، أن نقوم هذه الأعمال ونتأمل مضمونها والهدف الذي ترمي اليه . ولن أتطرق في هذه الدراسة الى مسرح الشوك على اعتبار أنه لوحات نقدية لاتنتهج الأسلوب المسرحي المتعارف عليه ، وإن صنفت تحت اسم المسرح .

أمامنا اذن مسرحيتان هما « مأساة بائع الدبس » و « الفيل » . وقبل أن نعالج هذين العملين ونحللهما بدقة ووضوح ، لابد لنا من استعراض الأوجه المختلفة التي تحمل الانسان على الذهاب للمسرح وتشوقه على متابعة المسرحية باعتبار المسرح أقرب الفنون الى نفوس الناس وأكثرها اعتماداً على العنصر الانساني . يقول ملتون ماركس في كتابه «المسرحية»: يمكن الاستمتاع بالمسرحية باعتبارها من الروائع الأدبية كروايات اسيخلوس وسوفوكليس ويوريبيدس اليونانية ، أو مسرحيات شكسبير التي تعتبر مفخرة الأدب الانكليزي . وثمة وجهة نظر أخرى، وهي النظرة التاريخية للعمل المسرحي باعتباره امتداداً تاريخياً يتدرج من المسرح اليوناني ،فالروماني،فالمسرح الديني في العصور الوسيطة،فالمسرح الاليزابيثي،فالمسرح الكلاسيكي الجديد ،فالمسرح الحديث . ويدخل ضمن المنحى التاريخي في دراسة المسرحية النظر اليها باعتبارها انعكاساً لحياة العصر الذي كتبت فيه .

وقد يكون الدافع الذي يشدنا الى المسرح سيرة المؤلف وتطوره الفكري والفني باعتبار انتاجه وحدة متكاملة كمسرحيات شكسبير مثلاً[1] .

هناك أيضاً مقدرة المخرج وبراعته خلال تحكمه بالحركة والايقاع واللون والممثلين لتخرج المسرحية حية على المسرح . وقد تكون الناحية الفنية والبنائية ودراسة المسرحية ،باعتبارها شكلاً من أشكال الفن ،هو الجاذب لنا الى المسرح لمشاهدة الوسائل والطرائق المستخدمة وخطة المسرحية وبنائها .

وهناك أخيراً العامل المشترك وهو وجهة نظر الجمهور ، فقد يكون الجاذب ممثلاً مشهوراً أو مخرجاً بارعاً أو مسرحية معبرة أو مؤلفاً قديراً . اذا نظرنا

---

(١) تعتبر مسرحيات شكسبير وحدة متكاملة منسجمة تعبر عن تطوره الفكري والفني خلال حياته كلها .

الى كل هذه الأمور نستطيع أن نتفهم العمل المسرحي، وبالتالي نتوصل الى النتيجة التي أدى اليها فكرياً وفنياً .

كتب مسرحيتي «بائع الدبس» و«الفيل . .» الأستاذ سعدالله ونوس، وهو من الكتاب المسرحيين الجدد الذين نرى أعمالهم وللمرة الأولى على مسارحنا . فما الذي قدمه الينا ، وماذا كان يريد أن يقول ، وهل استطاع أن يتوصل الى الهدف الذي يرمي اليه ؟

انه في مسرحيته الأولى وهي «مأساة بائع الدبس » ، يصور لنا استغلال السلطة في بعض العهود من قبل بعض الأشخاص . وهو بعرضه لشخصية (حسن وحسان ومحسن) يعرض أمامنا نموذجاً للفئة التي تستغل السلطة الموكلة إليها ، بتعذيب الناس واضطهادهم . ونرى ذلك بوضوح حين يكون الدافع الى العمل، وهو الاضطهاد والتعذيب ، لا ينسجم مع الغاية من عمل هؤلاء الأفراد ، وهو خدمة الصالح العام وصيانة الحريات العامة . ولكن هل عبر المؤلف عن أفكاره بصدق ووضوح ؟ لنستعرض المسرحية بايجاز .

تبدأ المسرحية بمشهد يصور أحد الأحياء الشعبية ، تبدو جماعة من الناس، أناس عاديون نجدهم في كل مكان . وتبدأ هذه الجوقة بانشاد جماعي تعرض أمامنا القصة بقولها : « في الساحة دارت وتدور الحكاية، أمام أعيننا دارت وتدور الحكاية» وهكذا يستمر الانشاد الى أن يظهر خضور ، وهو بائع دبس فقير يظهر حاملاً صفيحتي دبس ، ينادي على بضاعته ورجل يتبعه لا يلبث أن يستوقفه ويبدأ معه حواراً طويلاً تتخلله اتهامات جريئة صريحة للأوضاع والأوصياء . ونرى الرجل وهو يتلاعب بخضور ببراعة واحكام ، ويجعله يعتقد بأنه مستاء من الأوضاع، وبأنه يوجه اتهامات مباشرة ولكل شيء . يبدو لنا ذلك واضحاً حين يقول خضور للرجل :

« أحتقرهم ؟ هل قلت أنا هذا ؟ . لكم تجيد العبث ، وانك لقادر على أن تلعب بي كما تشاء » . وحين يختلط الأمر على خضور يعتذر من الرجل ويودعه لأنه يريد أن يرى ابنه الذي ولد في ذلك اليوم . يقوم ذاك الرجل - ويدعى حسن - بالاتصال بدائرته ثم لانلبث أن نرى (خضور) يتخبط محاولاً التخلص من رجلين يجرانه الى مصيره المجهول .

ويتعالى صوت الجوقة ثانية « أطبق الفخ عليه — واحد آخر — هي دائماً نفس الحكاية — قد رأيتم كيف تجره السلاسل لهناك — حاملا خوفه يمضي لهناك — لاترفع صوتك .. لاترفع صوتك » .

ثم يتخلل الصمت مارش عسكري مؤذناً ببداية عهد جـــديد . ويظهر خضور في طرف المسرح محطماً يتعثر في مشيته و كأنما كان في زيارة لجهنم ، فيندب حظه وسوء طالعه ويقول : « منذ ستة شهور وأربعة أيام وأنا أذوق أقسى ألوان التعذيب ، يظنني أهلي مفقوداً » . ولا يلبث ذاك الرجل أن يظهر ثانية ، ولكن اسمه الآن أصبح (حسان) . ويتلاعب بخضور مرة أخرى ، وهو يتلوى ويتوسل أن يدعه وشأنه ، ولكن الحكاية تتكرر ويجرونه ثانية الى أقبية الظلام . يعود المارش العسكري ثانية معلناً بدء فتح جديد وسلطة جديدة فيتصايح الناس « أنباء .. أنباء » . ويظهر خضور ، هيكلا مفكك الأوصال ، عيناه غارقتان في وجهه و كأنه شبح رجل .

يقع أرضاً ، ويناجي نفسه ، ثم يبكي سوء حظه وتلاعب الأقدار به . ويعود الرجل ، وقد أصبح اسمه (محسن) . إذ ذاك يصرخ خضور يائساً : « ولكن يا للشيطان ! حسن ثم حسان وهاهو محسن .. أنا كما ترى ياصديقي الكريم أخرس اللسان أبكم » ويتلاعب بخضور ثانية ، وذاك يصرخ مستنجداً يائساً محطماً . وتنتهي المسرحية .

المؤلف كما نرى أشار الى اساءة استعمال السلطة ، وهو بذلك يطرح أمامنا مشكلة أساسية في الدول النامية قاطبة ، حيث يستغل بعض الأشخاص السلطات الموكلة اليهم ليحققوا بعض الأغراض الشخصية ، والهدف الأعم هو الرقابة الذاتية من قبل السلطة الحاكمة .

وقد تعرض كثير من الكتاب في القرن العشرين الى هذه المشكلة نرى ذلك بوضوح في مسرحيات برخت «محاكمة لوكولوس» و«الجلادون يموتون أيضاً» وغيرها ... ولا شك أن المؤلف قد خدم الفكرة التي يرمي اليها من طرحه الموضوع بهذا الشكل ، إلا أنه بالغ قليلاً في طريقة الطرح .

أما مسرحية (الفيل) فهي قصة شعبية قديمة تروى للدلالة على الأشخاص المتقلبي الأهواء ، المتأرجحين بين تباين القول والعمل . وقد أراد المؤلف أن يدلل على أهمية الايجابية والجرأة لدى جماهير الشعب الكادحة . أما المسرحية فترينا :

جماعة من الناس قد وقفوا يشكون سوء حالهم ، فيل الملك قد دعس طفلاً في عمر الأزهار ، الحالة لاتطاق والدورآت على الجميع ، يحتشد المسرح بجمع غفير ، كل يعلق على الحادثة الأخيرة ويستنكر وحشيتها . وأخيراً يخرج من بينهم رجل حاد النظرات رابط الجأش ويصيح : « ماهذا ! حالة لاتطاق ولا تحتمل ، ألا يكفينا ، فقر وعذاب » ويبدأ في اثارة حماستهم وتجسيم الحادثة أمامهم الى أن يصرخ بجرأة : « والآن؟ » . ولكنهم يتجاهلون السؤال ويقول أحدهم: « ماذا بيدنا؟ » . يجيبه زكريا ، وهو ذاك الرجل الجسور « بيدنا » وتبدو علامات القلق والحيرة واضحة على الجميع ، يتخبطون بين مؤيد ومحجم ، الى أن يتفقوا أخيراً على الذهاب الى قصر الملك ، وتقديم شكواهم اليه ، وشرح الأعمال الوحشية التي يقوم بها الفيل دون مارادع أو عقاب .

تعم الفوضى ، ولكنهم ينظمون صفوفهم أخيراً ويذهبون بقيادة زكريا .
يدخلون القصر خائفين مضطربين وعندما يسألهم الملك عن سبب مجيئهم ، يصرخ زكريا : « الفيل يا ملك الزمان » ،وكان المفروض أن يجيب الجميع كما تم الاتفاق مسبقاً : « قتل ابن محمد الفهد ، داسه في الطريق ، فصار لحماً مجبولاً بالطين ... الخ » .

ولكن أحداً لا يتكلم. ويعيدها زكريا مرات ومرات ،والملك مستاء وبوادر الغضب قد بدت على وجهه ، فيصيح بزكريا : « كاد صبري أن ينفد ، تكلم ماخبر الفيل ». عندها يجد زكريا أن لا فائدة من حملهم على الكلام ، فيقول للملك : « نحن نحب الفيل يا ملك الزمان ، ولكن لاحظنا أن الفيل دائماً وحيد . الوحدة موحشة يا ملك الزمان ... فكرنا أن نأتي نحن الرعية فنطالب بتزويج الفيل ، لينجب لنا عشرات الأفيال .. مئات الأفيال .. آلاف الأفيال . » وهكذا تنتهي المسرحية .

المؤلف يضعنا أمام شعب متخاذل ضعيف ،وهو يقصد بالتالي أن يتهمنا بالتخاذل والخوف .

لماذا نخاف ؟ الخوف يولد الظلم فيزداد الخوف ويشتد الظلم ، ولعله ضرب على وتر حساس ، وهو عدم تلاحم الشعب مع قضاياه المصيرية والاجتماعية ، وعدم كونه على مستوى حقوقه وأهدافه . فهو يريد أن يذكرنا بأن الحق يحتاج الى لسان يدافع عنه والى جرأة وطموح وايجابية . الايجابية المفعمة بروح التعاون والمشاركة . الايجابية الصريحة التي تعطي للانسان قيمته الانسانية ، وتخلق من تفاعله مع أولي الأمر الكيان الذي يسعى اليه البشر جادين لتحقيق أكبر قسط من العدالة والانصاف . انها ايجابيتنا مع أنفسنا ، مع الآخرين مع القادة . الايجابية الصريحة الجريئة التي تسعى الى الترميم والبناء لنصل الى المجتمع الأمثل .

الموضوع في كل من المسرحيتين كما نرى مرحلي تاريخي يعبر عن مرحلة معينة وفترة زمنية محدودة قد تتكرر ،إلا أننا لا نستطيع ان نعتبره أثراً فكرياً خالداً ، وان كان صادق التعبير واضح المرمى .

أما الحبكة فكانت في بائع الدبس بسيطة تفتقر الى عناصر التشويق من تصعيد للحدث والاستمرار به حتى يبلغ نقطة التحول المنطقية ، فنراها تعتمد على السرد والتعليق من قبل الجوقة . وإعادة الحدث في حلقات متتابعة فيها بعض التصعيد الدرامي . إلا أن الحبكة في الفيل أشد وأحكم . ويمكن أن نعتبرها ناجحة ومصورة للحياة التي تعبر عنها ، ولكن هل هي منطقية ؟ بما أن المؤلف قد اعتمد الرمزية في مسرحيته الثانية ، فهو بذلك يعرض أمامنا الشعب بهذه الصورة المتخاذلة السلبية ليخلق الايجابية في نفوسنا ، فهو بالتأكيد لا يرمي الى اليأس ولا يحاول تكريس السلبية بقدر ما يوحي لنا أن نحكم على الشعب بقساوة وشدة لنتجنب أخطاءه .

ننتقل الى الصراع ، وهو الأساس للعمل المسرحي والذي لا يمكن أن نتصور مسرحية بدونه . نرى بأنه يبدو رتيباً مكرراً ضمن حلقة واحدة في مسرحية (بائع الدبس) ، ونرى المؤلف هنا متأثراً بالقاعدة المسرحية اليونانية ، وإن تنكر لوحدة الزمان ، فهو يلتزم بالجوقة ويعتمدها لسرد الحدث المتصاعد وينطلق من الحدث المتهاوي ويشدد عليه الى أن يبلغ الذروة والنهاية معاً . أما في مسرحية (الفيل) فنرى عنده تطوراً في السبك والصراع . فهو يبدأ ككل المسرحيات العصرية بالموقف الاستهلالي ، فالحدث المتصاعد إلى أن يصل الى نقطة التحول وبعدها تكون الذروة ثم النهاية .

أما الشخصيات فقد كان رسمها رمزياً وهي تمثل في كل من المسرحيتين نماذج الأفراد . ففي مسرحية (بائع الدبس) هناك الشعب أو الرأي العام ممثلاً

بالجوقة وهناك رجل السلطة (حسن وحسان ومحسن)، وبائع الدبس الذي يمثل فئة من الشعب الساذج البسيط . ونرى بأن المؤلف قد أولى شخصية بائع الدبس عنايته القصوى ،ولم يركز على رجل السلطة نفس التركيز ،فكانت شخصية رجل السلطة ضعيفة التركيب وغير منطقية أو معبرة عن نفسها . أما الشعب فقد كان واضحاً ، معبراً عن الجو العام .

وفي تمثيلية (الفيل) هناك عامة الشعب وزكريا والملك. نجح المؤلف ولا شك في رسمه لشخصيات أفراد الشعب بنماذجه المختلفة . أما شخصية زكريا فقد كانت مشحونة بالحدة والتوجيه . وكان من الممكن أن تكون أكثر اقناعاً ومنطقية مع الهدف ، لو خفف من حدة مباشرتها . فهي كما أرى تعبر عن الدافع أو الحافز للشعب كي يطالب بحقوقه ، ويجب علينا بسبب رمزية المسرحية أن لا نعطي الشخصية مدلولاً واقعياً ، والا لتناقضت الشخصية مع الغاية التي وصلت إليها .

فزكريا لو تصورناه واحداً من أفراد ذلك الشعب،لرأينا أنه كان يدفع الشعب الى الاحساس بواقعه المؤلم ،ثم يحمله على المطالبة بحقوقه ، ولكننا نراه في النهاية يخذل الشعب ويتخلى عنه ، لأنه ليس على مستوى حقوقه التي يطالب بها ، ليصبح بعدها خادم الفيل الشرير .

لو تصورناه كذلك لوجب على المؤلف أن يعبر عن جرأة زكريا وشعوره بالغبن ، ولكان من الواجب أن يعطيه واقعية أكثر ؛ بأن يصرح هو بالمأساة وبالوضع السيء الذي يعانيه الشعب ، ولكن زكريا لم يفعل ذلك . فإذن ليس أمامنا إلا أن نفسر الشخصية تفسيراً رمزياً من خلال رمزية المسرحية ، فنعتبرها الاحساس الدافع الى الثورة ، فينتهي دور زكريا حين يواجـــه الشعب ملك

الزمان . لكن المؤلف يجمله -كما أرى- رمز المدين للشعب، والمعاقب له على تخاذله. ويمكننا أن نتصور ذلك، فكثير من الكتاب المسرحيين رمموا بعض الشخصيات وحملوها أكثر من معنى. نرى ذلك في مسرحية الدكتور فاوست[1] لمارلو و «المراعي الخضراء لكونلي » وغيرها . وهي بهذا الشكل تكون منطقية ومحققة للغرض الذي تخدمه .

أما شخصية الملك ، فمع أنها لا تظهر الا في آخر المسرحية ، إلا أنها كانت واضحة ومصورة للسلطة البعيـــدة عن مشاكل الشعب ، والتي لا تعلم ما يدور حقاً في الخفاء .

بالنسبة للأصول الفنية والبنائية، فالمسرحيتان من ذوات الفصل الواحد. والعرف القائل إن المسرحية يجب أن تكون ذات خمسة فصول - كما في المسرحيات الفرنسية الكلاسيكية والمسرحيات الإنجليزية حتى أواسط القرن التاسع عشر - مقتبس عن المأساة اليونانية[2] . وان العـــدد الطبيعي للفصول في المسرحية هو ثلاثة أو أربعة كما هي الحال في جل المسرحيات الحديثة . والفصل يشكل عادة وحدة تامة في ذاتهـــا ، وليس مجرد تقسيم اعتباطي مصطنع يقحمه المؤلف . ولكن مسرحيات الفصل الواحد مع ذلك كثيرة يعتمدها المؤلفون لأنها تستوعب الحادثة البسيطة والقصة الشائعة، وتعتمد خاصة في مسرح الهواة . نرى منها مثلا، الوردة والتاج، (ج . ب . بريستلي) «وتذكرة قيصر» (جوردون دافيوت) «ومالفوليو» (ستيفن وليامز) وغـــيرها ، وتعتبر مسرحية «التأهب

---

(١) نرى الصراع في مسرحية مارلو يدور داخل نفس الدكتور فاوست ، فهي تمثل صراع الخير والشر في ذات الانسان .

(٢) كانت المأساة اليونانية تتألف من خمسة حوادث اساسية تفصل بينها الأناشيد .

الزواج » لجورج برناردشو ملهاة كاملة من ذوات الفصل الواحد ، وإنْ قسمها المشرفون على الاخراج الى فصلين، لم يكن أي منها وحدة تامة .

أما الطريقة التي اعتمدها المؤلف في مسرحيته الأولى (بائع الدبس)، فنرى بأنه انتهج فيها منهجاً واقعياً ،الا انه عكس ملامح كلاسيكية . ولعل البعض يعجب من التقاء الواقعية بالكلاسيكية، الا انه يمكننا أن نتصور ذلك من خلال النص الذي يعبر عن واقع ما واضح ومشهور في جو كلاسيكي . فادخال الجوقة وسردها للقصة يذكرنا بالرسول عند اليونان، وبالجوقة اليونانية القديمة لدى سوفوكليس في كل من (أنيفون) و (إلكترا) ،مع بعض التطوير والاختلاف ومن المسرحيات الواقعية الممتازة التي يمكن أن نصنف مسرحية بائع الدبس معها،لأنها تنتهج نفس الطريقة ،مسرحية (مشهد من الشارع) لألمر رايس و (النهاية المغلقة) لدرني كنجسلي، وان عكست الاخيرة ملامح رومانسية .

اما مسرحية « الفيل » فهي رمزية.وللرمزية طرق عدة ، وتكون غالباً بسرد قصة خارجية حسية وقصة داخلية موازية لها . يحاول المؤلف في هذا النوع بلوغ مستوى المسرحية الرومانسية الأقدم عهداً ،وبالتالي اثارة الاهتمام بالمشاكل الجديدة .

ولا بد هنا من التأكيد على الفرق بين الرمزية كطريقة ومنهج للتعبير، وبين استعمال الرمز كوسيلة مسرحية . فمشاهد العاصفة والشبح في كل من (الملك لير) و (هملت) هي مشاهد رمزية، الا أن المسرحيتين ليستا كذلك ،لأن المعنى الداخلي لا يتجسد من أجل ابتداع قصة موازية للحبكة الخارجية .

ويجب أن نعلم بأن الرمزية ليست طريقة حديثة في المسرح المعاصر ،بل قديمة قدم المسرح . فهناك من المسرحيات الرمزية «حصن المثابرة» و «كل انسان» ولعل أفضل مسرحية رمزية يمكن أن نحدث بينها وبين مسرحية (الفيل) بعض التطابق

والتشابه مسرحية « الطائر الأزرق » لمترلنيك . فكما أن الفيل يرمز الى الأفراد الممثلين لجانب من السلطة ، فإن الطائر الأزرق يرمز الى السعادة التي يبحث عنها الانسان، ولكنه لا يصل اليها . فالمسرحية هناتشددعلى البحث عن السعادة أكثر مما تشدد على بلوغها، كذلك فإن مسرحية «الفيل» تشدد على المطالبة بالحق أكثر مما تشدد على بلوغ الغاية نفسها . اذا أردنا بعد ذلك أن نتعرض لسيرة المؤلف ، نرى بأنه شاب لم يبلغ الثلاثين من عمره، تعتبر أعماله هذه بداية تدرجه في التأليف المسرحي، فلا يمكننا أن نحكم عليه من خلال تطوره ، الا اذا علمنا بأنه كتب مأساة(بائع الدبس)أولاً ومنذ عدة سنوات، ثم كتب، ومن وقت قريب ،مسرحية (الفيل) .ومما لاشك فيه أن المسرحية الثانية تظهر بوضوح تطوره متأثراً بالأساليب المسرحية الحديثة وبالحبكة والصراع . بينما تبدو لنا مسرحية بائع الدبس وكأنها كتبت للقراءة أكثر مما هي للتمثيل، ويبدو بأن المؤلف من الكتاب الصحفيين أو من مؤلفي القصة ان صح التعبير، لأنه يعتمد اسلوب الحوار الطويل والمناجاة والسرد القصصي. فيجب أن نميز بين الأدب القصصي والأدب المسرحي . فهناك فئـــة من الكتاب ألفوا مسرحيات يطلق عليها تسمية مسرحيات (المخدع) كمسرحية (السنسي) لشيلي وهي تعتبر اليوم روائع أدبية ولكنها لا تصلح بطبيعتها للمسرح . فلا وقت لاضاعته في المسرحيـــة ، وعلى الكاتب أن يختصر ما أمكنه في الكلام ، ويطرح ما لديه بطريقة سريعـــة واعيـــاً بذلك الشكل المسرحي من ضغط وايجاز .

فوجبة الطعام في المسرحية تستغرق دقائق معدودة، والاحاديث والمباحثات تعرض في سطور قليلة . وأحاديث الحب والغرام كما نراها في روميو وجولييت

لشكسبير لا تدوم اكثر من خمس دقائق في المشهد الواحد . لعلنا أسهبنا بعض الشيء في استعراض الأوجه النقدية المختلفة للعمل المسرحي، ولكن لابد من ذلك طالما أننا افترضنا هذه الأعمال نقطة تحول ، ولأنها تعرض لاول مرة على مسارحنا . لنعالج الآن العناصر الاخرى بإيجاز، وهي التمثيل والاخراج والجمهور .

الرأي السائد في عالم النقد بأن الممثل يلي المؤلف في الأهمية عند عرض المسرحية . هناك اربع قواعد يجب أن نأخذها بعين الاعتبار لنعتبر ممثلا ما قد أجاد في أدائه لدوره .

أولاً تمثيله المقنع ، ثانياً مقدرته على احياء الشخصية وحملنا على الثقة به، ثم صوته ونطقه ، وأخيراً شخصيته المسرحية . هناك اثنان فقط استطاعا أن يدركا بعض هذه الأمور، أو لعلهما أدركاها جميعها، من بين الممثلين كافة الذين اشتركوا في المسرحيتين .

فرياض نحاس استطاع أن يحيا الشخصية فعلاً ، وحملنا على الثقة به على أنه نموذج شعبي ساذج وبسيط . كان أداءه جيداً، وكان صادق التعبير، ذكرنا بأدواره الجيدة في كل من (يوليوس قيصر) و (رجل الأقدار) واستطاع أن يسير بالدور بكل تفهم ووضوح حتى النهاية ، الا أنه جنح قليلاً الى الميلودراما .

أما الممثل الثاني فهو أسامة الروماني. يمكننا أن نقر بأنه يتمتع بالشخصية المسرحية البارزة ، ساعده على ذلك حدة التعبير في وجهه، ورد الفعل السريع في حركاته وتنقلاته، واستجابته للحوار الحسي . وقد أدى عرضاً جيداً استطاع أن ينتزع كثيراً من الهتاف والتصفيق في دوره (زكريا) ، ساعده في كل هذا نطقه السليم وصوته الواضح الرنان . ووصل الى حد الروعة وأعطى الشخصية حياة وجمالاً، عند تدرجه المتهاوي لدى مثوله مع الشعب أمام القصر، وبعد دخولهم الى

حضرة الملك . ظهر تقمصه للدور بوضوح ، بعد ذلك الموقف المتصاعد المشحون بالتوتر والحساسية المرهفة في بداية المسرحية .

أما بقية الممثلين ، فكلمة حق تقال ، بأنهم بذلوا جهداً جماعياً واضحاً ، ونستطيع أن نتنبأ بوجوه جديدة ستتبلور وتتكامل بالرعاية والتوجيه ، مادامت مؤمنة بدورها في بناء المجتمع ، أخص بالذكر سليم صبري ، فقد بدأ دوره بشكل جيد إلا أنه سار به بخط منكسر ، مجهول الدلالة . وصالح الحايك كان بصوته الجلي شفافاً ، وان كان ينقصه الإحساس الداخلي الأكثر حرارة والتصاقاً بالدور ، ولكننا مع ذلك لانستطيع أن نحكم على الممثلين بعيداً عن المخرج الذي يهيء جوا لمسرحية ويحرك الممثلين فيها ، والاخراج في مسرحية (بائع الدبس) نقل الينا ولاشك صورة شعبية حية ، وكان توزيع الأدوار مناسباً لشخصية خضور وبعض عناصر الشعب . وقد استعمل الدكتور رفيق الصبان ـ وهو مخرج المسرحية ـ اسلوباً رمزياً يجنح الى الملحمية ، إلا أنه لم يخدم النص بذلك ، فألغى محليته بامعانه في الرمز ، وحرك الممثلين ضمن أشكال كانت تبدو هندسية ، وأرتال عسكرية أحياناً ، وأرى أنه حمل النص أكثر مما يحتمل . فالمسرحية بحد ذاتها ذات نمط رتيب متدرج ، وكان عليه أن يجعلها أكثر حيوية ، وأن يتحاشى هذا العيب الواضح . الا أنه كرسه بجعله بطل المسرحية ـ وهو خضور ـ ملقى على الأرض طوال النصف الثاني من المسرحية تقريباً . وفي هذا تجاهل لأبعاد المسرح الثلاثة ، وليس له أن يستغل الأرض كبعد مسرحي . وفي الواقع ، كنا نأمل أن نرى من الدكتور رفيق الصبان أكثر من هذا بالاستناد الى اعماله الجيدة السابقة .

أما مسرحية (الفيل) فقد أبرزت لنا مخرجاً جديداً هو الاستاذ علاء الدين كوكش ، الذي كنا نعرفه مخرجاً تلفزيونياً ، ورأيناه في تجربته الأولى على المسرح ، فكان

ـ والحق يقال ـ رائعاً في توزيع الأدوار أو في تفهمه للنص أو في ابتداعه للحركات والتنقلات ، وبلغ درجة جيدة من التفهم والدراية في مشهد دخول القصر . وقد جنح قليلاً الى الملحمية حين أدخل الممثلين من الصالة وأعادهم إليها ، إلا أنه بالغ في تصويره لشخصية زكريا، فجعله يرتقي منصة عالية، فأضعف بذلك من قوة الشخصية وتأثيرها فيما لو جعله يقف بطرف المسرح مثلاً ، لأن الشخصية احساس ينبع من الشعب ويبقى ملتصقاً به ، وذلك لنبقى على تصورنا الأول .

مع ذلك، لا يسعني إلا أن أثني على هذا المخرج الشاب، وحبذا لو يساهم في أعمال أخرى لأنه يتمتع بموهبة أصيلة ، ومسرحنا الناهض بحاجة الى هذه الموهبة والى مثيلاتها من المواهب البناءة .

أما الفنيون فقد كان الديكور ناجحاً وخاصة في مسرحية الفيل ، كما وأن الإضاءة ساعدت على نجاح العملية ، أما الموسيقى فكان الأفضل ان تكون أكثر سرعة وحيوية في بائع الدبس .

وأخيراً يأتي دور المشاهدين وردود الفعل فيهم ، وقد بلغ رد الفعل أقصاه ، وكان الجمهور متحمساً متفهماً واعياً ، أدرك دور المسرح الحقيقي ، واستنفرت المسرحيتان كافة حواسه وشارك فيهما طيلة العرض . ثم صفق أخيراً وبحماس لكل مارآه .

هناك كلمة أضيفها أخيراً ، وهي : لماذا نعتبر هذين العملين تجربة رائدة ونقطة تحول ؟

ان التجربة الرائدة، هي التجربة الصادقة الواعية لحدودها المكانية والزمانية والمعبرة بصدق وإيجابية عن مشاكل البيئة التي أنجبتها . وخلال أعوام طوال، لعلها عشرة ، ومنذ بدأ المسرح يشكل ركناً بارزاً في مجتمعنا ، كنا نرى مسرحيات

مترجمة لكبار الكتاب تمثل عهوداً ومدارس وحضارات هذه المسرحيات، لها قيمتها الأدبية كآثار خالدة ولها قيمتها الفنية كمسرحيات مثالية ناجحة .

ولكننا في مجتمعنا النامي المتطور بحاجة الى مسرح محلي صميم ، يعبر عن مشاكلنا ويتبنى أفكارنا وأهدافنا كأمة متطورة تدرج في عالم الحضارة والتقدم الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، ومن ثم يرسم لنا الطريق . ظهرت بعض المحاولات، وقدمت بعض المسرحيات المحلية، إلا أنها كانت تعبر بشكل عام عن عهود ولت واتخذ بعضها شكلاً رمزياً مغرقاً في الغموض .

اننا بحاجة الى مسرح يتفهمه الجميع ويستقطب كل الناس ، لأننا نريد مجتمعاً نتنفس بأفراده كافة . فعهود الاقطاع قد ولت، وأزمنة الحكم الأسروي الوراثي أصبحت في ذمة التاريخ . كما وأن المسرحيات التي تعرض التجارب السوبرمانية ، لا تخدم أهدافنا بقدر ما تؤكد على ترسيخ الفوارق وتعلي من قيمة الفرد بعيداً عن الجماعة .

من هنا نرى بوضوح أن هاتين المسرحيتين كانتا بحق تجربة رائدة ونقطة تحول في مسرحنا المحلي، ومع كل ما يمكن أن يوجه الى هذين العملين من نقد فكري أو فني فلا يمكننا إلا أن نعتبرهما بداية عهد جديد يجب أن نتحمس له جميعاً ، لأننا نطلب المزيد .

تحليل العلاقات الدولية بالطرق الرياضية (١)

للباحث السوفييتي

اوستينوف

ترجمة محمود سلامة

يتمكن العلماء الاجتماعيون والسياسيون بفضل التقدم العلمي والتكنولوجي في الوقت الراهن من الاطلاع بدقة على كل مجريات العالم ، اذ أن تسهيلات الاتصالات الحديثة بما فيها الاقمار التي تدور حول الارض تجعل العالم يظهر أصغر، لدرجة أن الاطلاع على مايحدث في أنأى منطقة من الكرة الأرضية الآن لايستغرق سوى بضع دقائق . وهذا الحجم الهائل من المعلومات السياسية الخاصة والعامة التي يتطلبها هذا الاطلاع ، يجعل من الضروري استخدام طرق جديدة لحفظها « وتصنيفها » . وهذا يعني أولاً وأخيراً استخدام الحاسبات الالكترونية . وبما أن انشطار الذرة أدى الى خلق قوى مدمرة تواجهها جهود كبيرة من قبل العلماء والسياسيين، لذلك فكما تستخدم الطرق الرياضية في المجالات الفنية والاقتصادية والاجتماعية، تستخدم أيضاً في السياسة والعلاقات الدولية .

واضافة لمعالجة د. يرمولينكو D. Yermolenko في مقاله « علم الاجتماع ومشاكل الصراع الدولي » (٢) جانباً واحداً من هذا الموضوع ، فإن على العلماء أن يجابهوا

---

(١) عن المجلة السوفيتية : « العلاقات الدولية »

(٢) مجلة : International Affairs - Moscow N - 8, 1968

المشاكل الحالية ،وأن يستنبطوا طرقاً رياضية لتحليل العلاقات الدولية والتنبؤ بها ،وأن يضعوا صيغة لاستخدام هذه الطرق .

حيث يفترق الجمعان :

من المفروض أن يسبق اتخاذ اي قرار في أية ناحية من نواحي النشاط العام ، كما في التكنولوجيا ، بحث علمي يعتمد الطرق الرياضية الكمية . وقد يكون ذلك احدى بديهيات عصرنا الحاضر ، لأن هناك قوانين موضوعية تنتظم كل الحقول بما فيها علم الاجتماع وهي بحاجة للتوضيح والأخذ بعين الاعتبار حينما يراد حل مشكلة ما حلًّا علمياً .

فالنظرية العلمية ليست وسيلة لبناء نماذج فحسب ، بل هي نفسها نموذج خاص بأهداف دراستها . وخلافاً للنموذج المباشر « مثلًا حجم مصغر » فان نموذج النظرية غير مباشر ، أي أن هذه النظرية عبارة عن جهاز مركب من عناصر عديدة متداخلة مع بعضها ، تماما كالمعادلات التي تصف هدف الدراسة .

هذا الجهاز يعتبر معلومات متكاملة ومحددة ، فهو لا يمكن أن يفكك لعناصره ،لأن اتصال هذه العناصر ببعضها يجعل من الصعب فصلها ، وهذا مايدعو لدراسة شاملة لكل العناصر والصلات التي بينها وذلك باستخدام التحليل العلمي كما وصفه لينين بقوله: « إن علينا ألا نعتبر الحقائق المنفصلة فحسب ، بل مجمل الحقائق دون أي استثناء » .

وللمادية الديالكتيكية الفضل الكبير في تشكيل مهمات وطرق أجهزة البحث . فالابحاث التي قام بها كارل ماركس ولينين في جهاز العلاقـــات الاقتصادية في المجتمع الرأسمالي الذي كان في منتهى التعقيد والتغير المستمر ، توضح لنا مهمات وطرق هـذه الاجهزة . وان بناء ودراسة النماذج - وخاصة المعقدة كالنماذج الاجتماعية - يتطلبان الاعتماد على فروع عديدة من الرياضيات الحديثة : الطرق الرياضية،وحساب الاحتمالات، والتحليل الترابطي Correlational Analysis ،ونظرية المعلومات Theory of Information، ونظرية القرارات Theory of Decisions ، ونظرية اللعب Theory of Games .. وهذا الاعتماد يتطلب حل مشكلة التقييم الكمي لكل المؤشرات بما فيها المؤشرات الكيفية. وبدون ذلك يستحيل مقارنة أو فهم النتائج التي يحصل عليها ، ويكون بالتالي من غير الممكن تطبيق الطرق الرياضية .

بوجه عام يمكننا القول : إن القياس هو الاجراء الذي يمكن من مقارنة الغرض المقاس بغيره ما ، كما يمكن من التعبير عنه بالأرقام . إلا أن التحليلين الكمي والكيفي

لا يمكن فصلها عن بعضها ،رغم أن العلماء البرجوازيين يقومون بهـــذا الفصل ، لكن القياس في هذه الحالة ليس اجراء كمياً فحسب .

وفي مقارنة الاشياء بغية دراستها ليتم القياس على مراحل : التبويب والترتيب والتقييم الكمي و « التدريج » والبحث عن التعابير الكمية النسبية .

فاذا تيسر لنا أن نفهم أصل الظواهر فهماً كاملاً ،وأن نأخذ بعين الاعتبار مختلف الأوجه الحقيقية التي تعكسها هذه الظواهر ، والمعلومات التي تنتج عنها ، يصبح بالامكان أن نقيم تقييماً كمياً ليس فقط للظواهر الموضوعية بل وللظواهر الذاتية أيضا ، وحتى أمور أخرى ، كأن نعرف الرأي الذي يحمله شعب تجاه شعب آخر،والمستوى الثقافي لهذا الشعب أو ذاك ، وكذلك درجة ارادة الانسان ومستويات الاختيار من حيث الفعل والتصرف . ومن هنا تظهر بصورة عرضية مشكلة تحديد مدى أهمية مقومات الانسان المتنوعة (المجتمع أو الظاهرة) وتتجاوز مشكلة تحديد مـــدى انعكاسية هذه المقومات في النموذج حدودالطرق الرياضية الصرفة،وتتطلب حلاً مستعصياً دون اللجوء للمنطق و الفلسفة .

كل ذلك يلعب دوراً بارزاً في انجاز المهمتين الاساسيتين للنظرية العلمية — التفسير والتنبؤ العلميين . فالتفسير العلمي Scientific Explanation هو محاولة لارجاع بعض الحقائق المعروفة أو المكتشفة حديثاً للقوانين والفرضيات المعتمد عليها في النظرية . واذا لم تنجح هذه المحاولة ، يكون من الضروري خلق نظرية اخرى جديدة ، أو دعم النظرية الأولى بقوانين وفرضيات جديدة تتضمن امكانية الحصول على وصف للحقيقة المفسرة ، كما كان الأمر بالنسبة لنظرية آينشتاين النسبية . والتنبؤ العلمي Scientific Prognostication — أو الفراسة — هو جهد للحصول على معلومات تتعلق إما بظواهر غير معروفة ومن الممكن وجودها ، وإما بظواهر غير موجودة على الاطلاق أثناء التنبؤ . أي أن التنبؤ هو نفسه مشكلة تتعلق بما يمكن أو يفترض حدوثه في المستقبل .

وهكذا يتضح أن للشرح والتنبؤ العلميين أهمية عملية في العلوم الطبيعية والعسكرية، وحتى العلوم الاجتماعية .

ومنذ زمان بعيد والمحاولات التنبؤية قائمة في مجال العمليات الاجتماعية التاريخية . الا أن التنبؤ العلمي في هذا المجال غير ممكن الا باستخدام الماركسية اللينينية ، المادية التاريخية والديالكتيكية . أي أن النظرية الماركسية اللينينية خاليـــة من كل التقييمات الذاتية والسببية المتفشية في العلم البرجوازي. يمكن ايضاح ذلك بالامثلة التالية : في معاهدة

السلم Brest Peace (بين المانيا وروسيا عام ١٩١٨) أصر لينين على قبول شروط هذه المعاهدة التي وضعها ، بالرغم من تأكده من مدى الثقل الذي تضعه هذه المعاهدة على كاهل روسيا آنذاك (مواجهاً بذلك معارضة بوخارين وتروتسكي وأصدقائهما) وقد فعل ذلك لادراكه الحاجة الملحة لفترة سلمية تجدد فيها الدولة السوفيتية الفتية أنفاسها ، ولأنه رأى أن هذه المعاهدة المجحفة لن تعمر طويلاً . وقد تحققت هذه الرؤية العلمية بعد ثمانية أشهر فقط ، حينما أطاحت ثورة تشرين الثاني عام ١٩١٨ بقيصر المانيا ويلهلم الثاني ، وأدى ذلك لتوقف العمل باتفاقية برست السلمية .

والمثل الآخر الرائع الذي يمثل التبصر العلمي الماركسي في حقل العلاقات الدولية ، هو ما أظهرته وثائق الاجتماع الثامن عشر للحزب الشيوعي السوفييتي . فقد أعطى هذا المؤتمر تحليلاً عميقاً للوضع العالمي ، واستنتج أن سياسة ميونيخ التي تبنتها القوى الغربية كانت موجهة لتمكين المعتدين الفاشيين من شن حرب ضد الاتحـــاد السوفييتي تكون نتيجتها وقوف المانيا النازية قوة معارضة في وجه السوفييت . وقد أشير آنذاك الى أن شن مثل هذه الحرب من قبل الامبريالية كان سيؤدي ، لا لتضعضع النازية وحسب ، بل ولاضعاف محتم لكل النظام الرأسمالي . ونحن نعلم أن هذا التبصر قد اصبح حقيقياً : فقد أصيبت المانيا النازية وحلفاؤها بالفشل الذريع ، ووضعت شعوب كثيرة من العالم نهاية للرأسمالية في بلادها ، وانتهجت الطريق الاشتراكية في تطويرها .

وهناك مثل آخر على تحقق التبصر العلمي الماركسي : فقد تفكك الجهاز الاستعماري الامبريالي بعد الحرب العالمية الثانية . وبعد مضي عشرين سنة من انتهاء تلك الحرب لم يعد هناك إلا القليل من مخلفات هذا الجهاز الاستعماري ، كما تنبأ بذلك القادة السوفييت ، الشيوعيون ، الى آخر ما هنالك من الامثلة التي تشهد على صحة التنبؤ العلمي الماركسي اللينيني في مجال العلاقات الدولية .

وبما أن المجتمع آلة معقدة ومجموعة من الاحتمالات الديناميكية ، لذلك فان دراسته وتحليله وتفسير عملياته والتنبؤ بهـــا تنبؤاً علمياً ، وكذلك تخطيط وتوجيه سياسته الخارجية والداخلية ، كل ذلك يتطلب بناء مجموعة شاملة من النماذج الاجتماعية تكون عبارة عن أجهزة تعكس بدقة العمليات الاجتماعية أو الظواهر القائمة ، وهذا التعقيد المتمثل في المجتمع وفي نطاق العمليات والعلاقات الاجتماعية بكل ديناميكيتها ، يتطلب انشاء نماذج معقدة جداً تراعي القوانين التاريخية الموضوعية . لذلك فان تحضير النماذج الاجتماعية يتطلب استخدام الرياضيات الحديثة ، بما فيها حساب الاحتمالات ونظرية

« الأرتال » queuing . وأخيراً نظرية اللعب ، التي ليست سوى فرع رياضي معقد يزداد استخدامه الآن أكثر فأكثر .

ففي الحياة العادية يصادف الناس كثيراً من الاصطدامات المستمرة بين قوى وميول ورغبات واحتمالات متعارضة فيما بينها . وغالباً ما تؤدي هذه الاصطدامات لنوع من الصراع بين طرفين أو أكثر ذوي نزعات متعارضة ومتغيرة باستمرار . وتنشأ عن هذا الصراع مشكلتان رئيسيتان : الاولى مشكلة التنبؤ بما ينتج عنه الصراع فيما لو اعتمدت نتيجة فعل طرف ما على « رد فعل » الطرف الآخر . والثانية مشكلة تحديد ما يجب اتخاذه لجعل نتيجة الصراع ايجابية قدر الامكان ، بالرغم من أن الطرف الآخر (أو الاطراف) سيفعل ما بوسعه لمنع هذه الايجابية .

تساعد نظرية اللعب في هذا المجال ، في أنها تقدر هذه المشاكل من الناحية الكمية ، وتعطي الجواب للمشكلتين الرئيسيتين : كيف نتصرف وما النتائج التي نتوقعها . لذا بامكاننا تعريف هذه النظرية بأنها نظرية رياضية تضع الحلول الملائمة لمختلف الاوضاع ، أي الاوضاع التي تعتمد فيها النتيجة على الحلول (او القرارت أو الاستراتيجيات) التي يتبناها شتى الشركاء في « اللعبة » اللذين هم ذوو رغبات متعددة ومتعارضة ومتغيرة باستمرار . وقد وضع يرمولنكو بالتفصيل مبادىء تحضير النماذج في المقالة التي أشرنا اليها ، لذا لا حاجة لذكرها بالتفصيل .

وهكذا ، فليس الهدف من نظرية اللعب – كما تهدف نظريات رياضية أخرى – دراسة العالم المحيط بنا بصورة مباشرة والاكتفاء بذلك، بل تهدف ايضاً لاقامة مقترحات علمية بشأن هذه المقررات أو تلك .

واذا كانت نظرية اللعب الرياضية تتطلب تقديرات كمية - بما فيها تقدير النتيجة « الربح » لكل لاعب في أية مجموعة ممكنة من الاستراتيجيات المختارة - فمن الممكن الحصول على هذه التقديرات بطرق شتى (بما في ذلك تقديرات حساب الاحتمالات) وتستخدم كأرقام أساسية . ومن الضروري أن تستخدم مبادىء وطرق نظرية اللعب حينما تدعو الضرورة لاتخاذ قرارات دون الحصول على معلومات كافية تتعلق بالوضع المدروس .

من وجهة النظر المنهجية ، يحدد دور نظرية اللعب - كأية نظرية رياضية تطبيقية اخرى - بأنها تقيم وتحلل نماذج تعكس بعضاً من جوانب محددة من الظواهر الواقعية الموضوعية . وهذه النظرية تعالج أيضاً النماذج الرياضية للظواهر التي تقع في المجتمع

الانساني ، وهذا مايعطيها صفة سياسية . أما من وجهة نظر الجدلية الماركسية ، فليس من الضروري التمعن في استراتيجيات الاطراف الفيزيائيـــة (الطبيعية) والتكنيكية ، كما يفعل الاخصائيون في الخارج بما فيهم أخطرهم شأناً — أناتول رابوبورت — بل يكتفى بالاستراتيجيات المتوفرة والتي تقابل الطاقات السياسية أو العسكرية للأطراف الذين بامكانهم استخدامها من وجهة نظر طبقتهم وايديولوجيتهم .

وهكذا يتغير مفهوم استعمال هذه النظرية ، من فكرة علمية جامدة وعادية ، الى مقولة ذات معان مغايرة وتتطلب تحليلاً فلسفياً .

أحد المبادىء الهامة المعتمدة في التصرف العقلاني للأطراف في الألعاب اللانهائية هو مايتعلق بانجاز الهدف ، إذ أنه بالامكان خلق وضع ما في لعبة ما اذا اختار كل من اللاعبين استراتيجية معينة . فليتم انجاز هذا الوضع دون غيره،يتوجب على اللاعبين أن يرغبوا فيه لا أن يعملوا لتهديمه . وهذا ممكن في حالة واحدة ، حينما لايتمكن اللاعب الذي غير استراتيجيته في هذا الوضع من أن يربح شيئاً بل يخسر نتيجة هذا التغيير . تسمى مثل هذه الاوضاع « نقط التوازن » Equalibirum ويمكن اعتبارها اهدافاً يسعى لتحقيقها اللاعبون .

قد يكون انجاز التوازن المذكور هو مايرمي اليه اللاعبون نتيجة اتفاقهم ، ولأنه لايوجد باعث لدى أحد منهم يدفعه ليكون أول من يخرق شروط هذا الاتفاق . وعلى العكس من ذلك فان إتفاقهم على عدم توازنهم في قضية ما ، يعتبر غير ذي معنى حينما يكون من يود خرق الاتفاق مضطراً ليلعب دوره .

من هنا نرى أن على المرء قبل البدء ، الشروع باختيار نقطة للتوازن والاتفاق على انجازها . إلا أن كثيراً من الألعاب ، لا تتوفر فيها أوضاع كهذه . لذلك يمكن الاعتماد على مايسمى بالاستراتيجية المشتركة،التي يكون لكل جزء منها درجة معينة من الاحتمال .

وان توفر الاستراتيجية في حياتنا يجعل من السهل على اللاعب (السياسي) اتخاذ القرارات . فكما يقول العـــالم البارع الالماني الديمقراطي جورج كلاوس : « إن من يتخذ دائماً قرارات من مناسبة لأخرى ، وليس لديه الاستراتيجية الـتي تحدد كل مايعقب هذه القرارات ، غالبـــاً مايعرض نفسه للفشل اكثر ممن يحتفظ باستراتيجيته ويستخدمها » . ويكون مثل هذا اللاعب مضطراً لاتخـاذ القرارات في صيغتها المعقدة ، ويبذل كل ما بوسعه لاختيار هذه القرارات ، كما يتوجب على

اللاعب الذي يستخدم الاستراتيجية أن يتخذ بعضاً من القرارات ، أي عليه أن يقرر الاستراتيجية التي يريد استخدامها (يفترض بصورة طبيعية أن لديه احتياطياً من الاستراتيجيات) .

ويعتقد ن . ن . فوربوبيوف ، الاخصائي السوفييتي بنظرية اللعب ، بشأن تطبيق طرق هذه النظرية على الاشكال المتفق عليها بشأن حل شتى المنازعات : انه بالامكان اجراء بحث منسق لايجاد نقط التوازن ، وبالتالي تجنب فقدان أية امكانية للوصول للاتفاق (في مجال العلاقات الدولية أيضاً) . وتخولنا مثل هذه الطريقة اكتشاف نقط التوازن (أو عدم التوازن) في شتى الاوضاع المتفق عليها ، وكذلك تجنبنا الاضطراب والاخطاء الخطيرة التي تتضمنها استنتاجات المعاهدات الدولية .

وهناك نقطة أخرى من نقاط المفارقة ، وهي أن المفهوم الفلسفي للنزاع « Antagonism » ، أوسع بكثير من المفهوم الرياضي له ، إذ أن كثيراً من التناقضات والاصطدامات المختلفة فلسفياً تستوجب وضعها في نموذج عدم الاختلاف من الوجهة الرياضية . مثل طبيعة « عدم تلاؤم رغبات طبقتي البروليتاريا والبرجوازية » من الوجهة الرياضية ، وكذلك « التعايش السلمي بين المعسكرين الاشتراكي والرأسمالي » و « فائدة المفاوضات » و « الفائدة المشتركة التي تجنى من التجارة » كل ذلك لايتطابق مع المفهوم الرياضي للنزاع ، لأنه لايمكن أن يكون هناك أعمال أو مفاوضات ايجابية مشتركة ، كما أنه لايمكن أن يكون هناك مفاوضات أو اتفاقيات بين اللاعبين في الألعاب ذات الطبيعة التنافرية . أما في الألعاب اللاتنافرية فتكون المحادثات بين الأطراف ملائمة وحتى مرغوبة ، أو أنها تعطي نقط توازن جديدة تعتمدها الأطراف المعنية في وضع الاتفاقيات .

هناك أيضاً الكثير من التناقضات الطبقية التي تتضح هويتها من وجهتي النظر الفلسفية والرياضية . مثل التناقضات الايديولوجية بين الاشتراكية والرأسمالية التي لاتدع أي مجال للاتفاق بينهما ، وكل نصر تحرزه البرجوازية يؤدي مباشرة لخسارة فادحة للاشتراكية .

إن هذه النقط من المفارقة النظرية يمكن استخدامها كقاعدة في تحضير «النموذج» ، شريطة أن يكون مصنفو البرامج ذوي ضمائر حية . وان تحضير النموذج والتبصر به ذاتياً يقودان لاخطاء فاحشة في اتخاذ القرارات . ولتحضير نماذج

العلاقات الدولية وإعطائها شكلها الرسمي رياضياً – بما فيها نظرية اللعب – حدود يمكن اعتبارها الاساس الوحيد في اتخاذ القرارات ، لأن النموذج شيء آخر غير القرار الذي يعد مسبقاً .

من ذلك نرى أنه لايمكن اعتبار علم اجتماع العلاقات الدولية علماً غير طبقي ، لهذا فان تحضير نموذج هذه العلاقات والتنبؤ بها بالاعتماد على نظرية اللعب والطرق الرياضية الأخرى ، يمكن أن يتم فقط بالاستناد إلى تحليل واعتبار الطبيعة الطبقية للقوى – المجتمع ، الدولة – المشتركة في جهاز هذه العلاقات . وباستعمال المنطق الثوري في عملية تحضير النموذج ، يمكن تقييم هذه المقولات كالقومية والتماسك الطبقي والأممية والاشتراكية ، تقييماً كمياً واخذها بعين الاعتبار ، أما علم الاجتماع الماركسي الذي يبحث العلاقات الدولية ويعتمد على الطريقة الجدلية والتلاحم الطبقي فيستخدم تشكيل المنازعات مساعداً في دراسة جهاز العلاقات الدولية .

مثالية وميتافيزيقا الفلسفة ، لصوصية الواقع :

يستخدم العلماء الغربيون الطرق الرياضية على نطاق واسع ، وذلك بغية دراسة العلاقات الدولية والتنبؤ بها . كما يبذلون جهودهم لتحقيق متطلبات العصر الراهن (وضع البحث لمستوى العلم الحديث) من جهة ، ولاستخدام العلم في البحث عن « القاعدة السحرية » التي تساعد على تحقيق أهداف السياسة الرامية لاعاقة وحتى تقهقر النظام الاشتراكي من جهة اخرى . ينطبق على ذلك ما حدث مؤخراً في تشيكوسلوفاكيا حينما حاول « رد الفعل » الدولي اضعاف الجبهة الايديولوجية واعادة بناء الرأسمالية . لكن الموقف الحازم الذي وقفه الاتحاد السوفييتي والدول الاشتراكية جعل أهداف أعداء الاشتراكية هباء منثوراً .

فلدى علماء الاجتماع الغربيين ـ وخاصة الامريكيين ـ اتجاهات عديدة في تحديد طريقة تطبيق النظريات الرياضية التي تحلل العلاقات الدولية ، ومدى استخدام العلم لصالح السياسة . ويمثل العالمان هرمان كاهن واناتولي رابوبورت اثنين من هذه الاتجاهات . والفرق بين هذين الاتجاهين ليس في المحتوى الطبقي لفكرتيهما البرجوازيتين في كلتا الحالتين ، بل في درجة النزاهة العلمية التي يستخدمانها في الارقام والنماذج .

ويوصف الموقف السياسي الذي يقفه كاهن ورابوبورت ومن شابههما في المجتمع الرأسمالي بانه « عال كالطود، لكنه غير متين » وبغية الاحتفاظ برعاية القوى الناجحة والتي ستبقى ناجحة ، يعكف العلماء الغربيون – سلباً أو ايجاباً – على ايجاد مبررات

وجود الرأسمالية. وبالرغم من أن كاهن ورابوبورت واصدقاءهما يضعون النظريات الحديثة ويصوغون الآراء والنماذج ويستخدمون الآلات« الحديثة جداً»، إلا أن آراءهم الاجتماعية مبنية على المثالية والميتافيزيقا . فهم ينكرون وجود التطور الاشتراكي كعملية تاريخية طبيعية في مراحل « الصيغ » الاقتصادية والاجتماعية، لأن اعترافهم بها يعني ايضاً اعترافهم بحتمية مجيء الشيوعية بعد انهيار الرأسمالية .

قد يكون احياناً من غير الممكن التمييز بين شتى الاتجاهات التي تسير فيها البرجوازية المعاصرة . فهناك الكثير من الشبه مثلا بين الفلسفة التحليلية Analytical Philosophy ،التي تعتبر أن تحليل اللغة عمل هام من أعمال الفلسفة، وبين «العلم العام لتطور معاني الكلمات » الذي يعتبر أن اللغة هي العامل الوحيد في التفاعل الاجتماعي، وانه ينفي أن يكون للآراء العلمية محتوى هادف ، وكذلك بين نظرية الاستعداد للعمل التي تعتبر أن الآراء العلمية ليست انعكاسات للواقع ، بل هي بنيان منطقي صرف يعتمد على القيام بالعمل « مثل القياس » من قبل الباحثين . وتفسر هذه المجموعة الثلاثية بان اتجاهاتها الثلاثة مستقاة من نفس المصدر – الوضعية الحديثة Neo-Positivisim التي تبحث في الظواهر دون الاسباب .

هذه الفلسفة هي الآن اكثر الفلسفات الغربية وخاصة الامريكية شيوعاً . وكما هو معلوم ، فهذه الفلسفة عبارة عن جهاز مكون من الآراء المثالية الذاتية اللا أدرية ، ومتحد مع التطورات الخاطئة المقتبسة عن الفلسفة الموضوعية وخاصة فلسفة التجريبية النقدية الخاصة برتشارد افناريوس وارنست ماخ ، المتضمنة ان اهداف العلم الرئيسية هي الوصف المحض للحقائق والشعور وليس شرح هذه الحقائق ، كما أنها مقتبسة من فلسفة مناهج العلوم «Epistemology» التي نادى بها دافيد هيوم David Hume والتي حاولت التقليل من فاعلية العقل بوجه عام وبالغت في نسبة المعرفة البشرية وانكرت وجود الحقيقة الموضوعية . كما أنها مقتبسة ايضاً من نكران (كانت) امكانية حل المشكلة الرئيسية للفلسفة، أو العلاقة بين الكائن والشعور . وتختلف الفلسفة الموضوعية الحديثة اختلافاً جذرياً عن فلسفات المدارس القديمة الرجعية، في أنها تفسر التطورات الذاتية المثالية بشكل اكثر دهاء (راجع كتاب رابوبورت « الاستراتيجية والوجدان ») .

فهذه الفلسفة الحديثة تنفي وجود الطبيعة الايديولوجية للفلسفة، وترغم معتنقيها على الادعاء بأنهم علماء « مستقلون » . وهي في الواقع تتجاوز المشاكل الفلسفية العامة وتعتبرها مشاكل كاذبة ، اوجدها عدم فهم الناس طبيعة اللغة ، أو أنها تشوه هذه المشاكل وتفهمها من وجهة النظر المثالية .

والدليل القاطع على قصور وضيق وضعف هذه الفلسفة الحديثة وعدم قدرتها على الاجابة على الاسئلة التي تطرحها المشاكل التي تضعها هي نفسها ، هو ان هذه الفلسفة قد أدت لظهور العشرات من الاتجاهات التي نبعت من هذه الفلسفة بصورة طبيعية والتي لايمكنها تحرير نفسها من المساوىء المتأصلة فيها . ويهتم الكثيرون من معتنقي هذه الفلسفة – كما يعترف يوجين ميهان « Eugene Meehan » الامريكي الاخصائي في العلوم السياسية – باستبعاد الميتافيزيقا من الفلسفة اكثر من اهتمامهم بانجاز شيء بناء في العمل الفلسفي . ولهذا يمسك كثير من العلماء الغربيين – بحثاً عن الخروج من هذا المأزق – بتلابيب مثل هذه الاتجاهات العديدة ، في آن واحد . ومن هنا يفسر تلون بعض الفلاسفة البرجوازيين .

وفي خضم الصراع القائم بين معتنقي الفلسفة الموضوعية الحديثة وبين علماء الاجتماع الماركسيين اللينينيين، ينادي معتنقو الفلسفة الحديثة بنظريات متعفنة اثبت العلم والحياة بطلانها ، مثل النظرية العضوية للمجتمع « Organic Theory of Society » التي طورها هربرت سبنسر Spencer واتباعه معتقدين بقيام التشبيه الآلي بين المجتمع الانساني والعضوية البيولوجية ، اي تقليص دور القوانين التي تحكم المجتمع وجعلها تقتصر على القوانين البيولوجية الطبيعية . وهكذا يفعل الفلاسفة الموضوعيون المحدثون ، ويدعي احدهم بصراحة – وهو جان فوراسيه Jean Fourastié الاقتصادي والاجتماعي الفرنسي – ان بالامكان تطبيق القوانين الطبيعية في المجال الاجتماعي .

أما كلاسيكيو الماركسية اللينينية فقد لاحظوا الشبه بين تطور المجتمع والتطور الحيوي . الا انهم على الرغم من اعترافهم بهذا التشابه واخذه بعين الاعتبار ، لم «يقلصوا» التنوع الهائل للمجتمع الانساني واعتباره بمستوى العوامل البيولوجية البسيطة .

والاراء التي يعتنقها الفلاسفة البرجوازيون وكذلك كتبهم العلمية مثل « المخ والآلة » ، «مناقشات» ، «ألعاب» ، «مجادلات» ، «الاستراتيجية والوجدان عام ٢٠٠٠ » ، «إطار تأملات الـ ٣٠ سنة القادمة» ، كلها ليست سوى غطاء لتبرير مكشوف للرأسمالية وطعنة في صدر الماركسية اللينينيـــة . وتدعي الايديولوجية البرجوازية بأن برنامج الحزب الشيوعي السوفييتي يتخذ مجموعة من الاشكال ويستخدم اكثر الطرق والوسائل تباينا من أجل أن يخدع الطبقة العاملة . وجميع هؤلاء البرجوازيون ينهون مطافهم في الدفاع عن النظام الرأسمالي المنهار .

ويستخدم العلماء البرجوازيون في كثير من الأحيان الطرق الرياضية ، ويضعون

أشكالاً لنماذج العلاقات الدولية بغية اظهار جدلهم اكثر موضوعية وأخف وطأة في تبرير استنتاجاتهم . ويظهر أن اعطاء شكل للعلاقات الدولية والطرق الرياضية المستخدمة في بحث ووضع نموذج لهذه العلاقات ، يخدع كثيراً من المسؤولين الغربيين . ويبذل هؤلاء العلماء جهوداً كبيرة لاقناع الآخرين بأن اختراع نموذج رياضي ناجح يكفي للدلالة على تفوق الغرب على العالم الشيوعي .

ويرفض كثير منهم – محاولين زعزعة التيـــار العلمي الحقيقي في نظرية اللعب بواسطة « أبنية » الحرب الباردة – كل الطرق – ماعدا الحرب – التي تهدف لحـــل المنازعات بين النظامين المختلفين اجتماعياً واقتصادياً . ويعتبر غولد ووتر وأشباهه – كما صرح ولترليبمان « Walter lippman » بحذاقة « أن كل المنازعات والخلافات يجب أن تنتهي إما بالنصر وإما بالهزيمة » . وبذلك يظهر العلماء الامريكيون – معتقدين أن لا حل وسط في نظرية اللعب (المجموع = صفر) – بمظهر صقور الحرب طوعاً أو كرها

يوجد في الولايات المتحدة الامريكية « نظرية رياضية عن الحرب » من بين مؤلفيها وولت روستو Walt Rostow وكذلك الأستـــاذ أوسكار مورجنسترن Oskar Morgenstern – في جامعة برنستون – أحد كبار مؤيديها والذي يشبه الحرب الباردة التي يتعرض لها العالم من قبـــل الامبريالية الامريكية بقوله : « بالرغم من أن الأوضاع ليست متطابقة تماماً في لعبة البوكر والحرب الباردة الا أنهما متشابهتان لدرجة أن شيئاً أساسياً يمكن تعلمه من مبادىء البوكر الجيدة » .

هذه المحاولة لشرح مغزى السياسة الامريكية للجمهور شرحاً علمياً وشعبياً ، تعتبر انتهاكاً صريحاً لنظرية اللعب نفسها . وقد حاول روبرت ماكنمارا Robert McNamara وزير الدفاع الامريكي السابق – الذي يعرف عنه بأنه يستخدم الأرقام للتعبير عن أية ظاهرة - أن يصوغ قاعدة سحرية لنسبة القوات المسلحة في الفيتنام، وكانت قاعدته التي تكفل النصر حسب زعمه : أولاً ٥=١ ثانياً ٦=١ ثالثاً – ١٠ = ١

ويدعو بعض العلماء والساسة البرجوازيين – بما فيهم رابوبورت للأخذ بنظريات شتى عن التسوية الايديولوجية ، ويضعون مسبقاً انواعاً عديدة من هـــذه النظريات : « نظرية التقارب Convergence » و « نظرية التجريد من العقائدية Ideological Disarmement » و « نظرية التعايش السلمي العقائدي Ideological Coexistence » ... الخ . كما يرفع هؤلاء العلماء بعض شعارات تساعد العقول الفتية – غير الناضجة . مثل المسالمة الأيديولوجية « Ideological Pacification » و اللا ايديولوجية « Deideologization »

وتكوين الديمقراطية « Democratization » وتحرير العقول « Liberalization » من سيطرة الشيوعية . ويهدفون من وراء ذلك أن يخمدوا تيقظ الشعب شيئاً فشيئاً ، وأن يكونوا سنداً قوياً للرأسمالية .

وكل هذه النظريات الملتقيــــة في نقطة واحدة ينبغي أن تطهر سياسياً وعلمياً . فرابوبورت ، الذي يرى أن الحل الوحيد للحرب هو التعايش الأيديولوجي لا التعايش السلمي بين النظامين المختلفين اجتماعيا واقتصاديا ، يتناقض مع مبادئه العلمية التي يستقى منهـــا بشكل منطقي - حسب نظرية اللعب - رفض التعايش الأيديولوجي (لقد بينا في ما مضى أن التناقضات العقائدية بين الرأسمالية والاشتراكية هي في صراع فلسفيا ورياضيا ، الأمر الذي لم يستطع رابوبورت فهمه) . واذا أضفنا ان هذا العالم ينفي امكانيات نزع السلاح نزعا تاما ، يتضح لنا بما لايدع مجالا للشك مدى تعاطفه واخلاصه للرأسمالية واقطابها .

نماذج هرمان كاهن :

بالرغم من اعتقاد العلماء الامريكيين بقدرتهم على صياغة نماذج العلاقات الدولية رياضياً ، الا انهم يستنبطون لهذه النماذج نتيجتين متعاكستين تعاكساً تاما . يقول رالف لاب Ralph Lapp الفيزيائي والمحرر البارع : « لقد اصبح بعض من محللينا الرياضيين مفتونين بنتائج عمليات الحساب ، اذ تخبرهم آلاتهم الحاسبة أنه تحت تأثير بعض الظروف يمكن أن نحرز حرباً نووية . وممـــا يدعو للأسف أن الآلات الحاسبة تصل لهذه النتيجة لأنهـــا لاتملك احساسا وهي تلفظ الاجوبة دون أي اهتمام . وتعتبر الآلة الحاسبة الدولة رابحة ، ولو خسرت ثلاثين مليون قتيل و ٢٧٪ من اقتصادها . ومن الواضح كم تستحق مثل هذه البلاد من التعزية والسلوى .

والنتيجة الاخرى المعاكسة تماما للاولى، والتي يستخرجها « النظريون » والبعيدة عن الحقائق السياسية ، هي انه قد تمنع حرب طارئة نتيجة وضع الاقفال الالكترونية على الاسلحـــة الذرية . يقول الاستاذ فرديناند مارتن - من معهد غراز الفني Graz Technical Institute - أن آلاته الحاسبة أخبرته بأن فرصة نشوء حرب طارئة في المستقبل القريب ، فقط (١٥ - ٢٠٪) . ويصحب مثل هذه الاستنتاجات تأكيدات مفعمة بعواقب وخيمة ، كامكانية قيام حروب صغيرة في هذا الوقت ذي المجابهة النووية، وكالتوازن نتيجة الخوف ، وان المسؤولين عن هذه الحروب سوف يفرون من العقاب .

وبناء على هذه التقييمات النظرية ، فقد وضع البنتاغون في نهاية الخمسينـــات استراتيجية ذات استجابة مرنة . وبعدها بعدة سنوات وضع العالم الامريكي هرمان

كاهن نظرية الحرب المتصاعدة المشهورة ، ولم يقتصر هذا العالم على وضع هذه النظرية بل قام ببناء نموذج سليم ، ومن وجهة نظره ، مستعيناً بالآلات الحاسبة الموجودة في معهد هدسون Hudson Institute . وبناء على هذه النظرية السياسية الرعناء فان طريقة « الضرب باستمرار واعطاء الدواء بشكل تدريجي » قد تنهي وتحد من استخدام الاسلحة النووية دون اللجوء لضربة نووية انتقامية توجه ضد الولايات المتحدة أو دون قيام حرب عالمية تستخدم فيها الاسلحة النووية .

وتؤكد صحيفة « أنباء الأحد » أن كاوزويتز – وهو كاهن العصر النووي كما تسميه الصحافة البرجوازية (كلوزويتز هو كارل فون الضابط الالماني الشهير بتآليفـه العسكرية) ، قد أحدث الخوف من القنبلةالنووية لدى الملايين وأعطى السياسيين نموذجاً جديداً للصراع الدولي : استخدام القوة أو التهديد بها لانجاز الاهداف السياسية . وتغطي « مرتكزاته »جميع التفاوتات النظريةالممكنة للصراع الدولي من المرتكز الأول –الأزمة الظاهرية – حتى المرتكز الأخير الرابع والأربعين – تشنج الحرب غير المحسوسة - ويعترف المؤلف كاهن أن هذه المرتكزات –للحرب المستمرة – ان هي الا نموذج مبسط للصراع الدولي يؤدي بصورة حتمية لخلق تفاؤل بين الأوضاع الحقيقية وبين النموذج المستخدم لبحث هذه الأوضاع ، وهو يوصي –بوقاحة– الساسة الامريكيين أن يستخدموا نموذجه كدليل على تحقيق أهدافهم السياسية الخارجية .

وقد استخدم نموذج « الحرب المستمرة » لأول مرة لشن الحروب الصغيرة على حدود المنطقة الاشتراكية في الفيتنام . وقد ألحقت هذه المجازفة السياسية التي اتبعتها الولايات المتحدةالأمريكية مآسي كثيرة بشعب فيتنام وسوء حظ وعاراً بالولايات المتحدة الامريكية نفسها . وقد أنكر هذا النموذج بعض الوقائع (لأنها لم توافق الساسة الأمريكيين) كوطنية الشعب الفيتنامي وأممية البروليتاريا في الدول الاشتراكية . وقد بنى كاهن مخططه دون الأخذ بعين الاعتبار ومتحدياً الاتجاهات الأساسية للتنمية في عصرنا عصر النمو المتزن لقوى الاشتراكية وانتصاراتها في صراعها ضد المجتمع الرأسمالي المحتضر.

وان القرار الذي أوقعت السياسة الأمريكية نفسها فيه تجاه الفيتنام ، جعل القيادة البرجوازية تشك بسلامة الأهداف العلمية التي توصل اليها مؤلف «نظرية الحرب المستمرة» . وأكد مانشره وليام فولبرايت رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الأمريكي في كتابه « عجرفة القوة » The arrogance of powers سوء تقدير استراتيجيي الشؤون الأمريكية العسكرية والسياسية الذين فشلوا أو لم يريدوا أن يأخذوا بعين الاعتبار العوامل العديدة التي تستوجب ايقاف سياستهم في فيتنام .

وقد أفصح عن ذلك المراقب البريطاني السياسي المشهور أندرو ويلسون بقوله : كان هناك دراسة مستفيضة عن فنون التسلل الشيوعي قامت بها ألعاب الحرب وحتى تمارين الآلات الحاسبة . وقد نشر متجسسو الحرب الأفكار المتضمنة في هذه الدراسة . وقد كان أفظع وأخطر ادعاء أظهرته الوقائع والابحاث هو امكانية قبول مشاكل التمرد التي وقعت في جنوبي شرقي آسيا . ولم يعق انتقاد سياسة « الحرب المستمرة » المؤلف من الاستمرار بتآليفه .فقد نشربعدأربع سنوات كتاباً آخر أدخل فيه—مستخدماً الطرق الرياضية مرة ثانية — تصورات واتجاهات متعددة (نموذج الجنس البشري عام ٢٠٠٠) . كما أنه تنبأ – بالاشتراكمع انتوني وينر—بنجاح النظام الرأسمالي في الـ ٣٣ سنة الباقية من عمر القرن العشرين . وتظهر بالطبع اشراق الصورة التي رسماها عن الولايات المتحدة الامريكية خاصة .

وهكذا تفضح الدقة العلمية هرمان كاهن للمرة الثانية . فهو يصور العالم بعد ٣٣ سنة وكأنه طوع بنان حكام الولايات المتحدة الآن . وقد غاب عن ذهنه أن بناء النماذج في المستقبل، دون اعتبار الاتجاهات الرئيسية للتطورات الاجتماعية والاقتصادية في الحاضر، يوقع المؤلفين في مأزق . واذا رجعنا للماضي نرى فشل كاهن و ينر في محاولتهما وضع نموذج للثلث الأول من القرن العشرين . فقد أصاب العالم — خلافاً لنموذجهما — حربان عالميتان أولى وثانية ، وقامت ثورة اكتوبر ، وحلت الأزمة في الثلاثينات ، وقامت حاشية القوة في كل مكان .

ومع هذا ،فانه لمن الخطأ الاعتقاد بأن كاهن وحده يمثل الروح العسكرية في العالم الأمريكي ، فهناك اثنتا عشرة مؤسسة علمية عالية كبيرة — بما فيها جامعات كولومبيا وميشيغان وستانفورد ومعهد ماسوتشستس الفني— وجماعات كبيرة من الفلاسفة والرياضيين الذين يعملون في معهد البحوث الدفاعية التابع للبنتاغون الامريكي ، ويستخدم البنتاغون ٣٠٠ مركز للابحاث في الولايات المتحدة وكثيراً غيرها في ٤٠ دولة . كما يستخدم ٣٥٠ شركة بحث بما فيها شركة راند RAND الشهيرة . كل ذلك من أجل وضع خطط استراتيجية السياسة الخارجية . ويجب ألا ينساء تقدير مالدى مراكز الآلات الحاسبة الالكترونية من بطاقات ذات مؤشرات بأسماء الملايين من رجال الدولة والساسة والاعضاء الحزبيين في دول مختلفة .

وليس هناك أدنى شك في أن هذا التوسع في استخدام العلم في الشؤون العسكرية في الولايات المتحدة يقرب هذه الدولة من الحلبة التي تلعب فيها دور العامل الاحتكاري .

لذا فان التطبيق الواسع للطرق الرياضية (بما فيها نظرية اللعب) واستخدام الآلات الحاسبة الالكترونيـــة ، لن يكون لها سوى الأثر الضئيل في امكانية تغيير المنحى السياسي للبحث العلمي .

وتخرج الدعاية البرجوازية خارج خط سيرها لتبرهن أن المناخ السياسي في وقتنا الحاضر هو من صنع العلماء ، ويذهب أرك هوفر Eric Hoffer أبعدمن ذلك ، فهو يؤكد أن نمو الأتمتة سيجعل ۹۰ ٪ من سكان الولايات المتحدة عاطلين عن العمل . وهكذا تكون الولايات المتحدة قد قامت على كواهل الجماهير التي ليست لها أي مستقبل ، لأن هذا المستقبل تصنعه الآن مختبرات السوبرمانات « العباقرة » ولأن ميزة قرننا أنه قرن العباقرة لا الجماهير .

وفي الغرب الآن كثير من أعمدة الصحف والكتب ومجموعات المقالات المنشورة تعالج مشكلة مساهمة العلماء في السياسة الدولية . وكثير من هذه المنشورات تؤكد أهمية دور العلماء الرئيسي في حل قضايا السياسة الخارجية . مثلا يقول ورنر شيلنغ Warnes Shilling كاتب عمود كبير في احدى المطبوعات ، في معرض حديثه عن دائرة المستشارين العلميين في وزارة الخارجية الامريكية عام ۱۹٥۱ : « إنها قد أصبحت نقطة امتياز في تحديد السياسة العالمية » .

ان حكام العالم الرأسمالي هم على اطلاع بأهمية الصراع الايديولوجي ضد النظام الاشتراكي في العالم والقوى التقدمية الأخرى . ولهذا فهم يستغلون أفضل علمائهم واحدث منجزات التكنولوجيا بما في ذلك الحاسبة الالكترونية ، لخدمة سياستهم . لكن من الخطأ المبالغة في تعظيم تأثير العلماء البورجوازيين في وضع اطار سياستهم تجاه الدول ، أو في الاعتماد المطلق على الطرق الرياضية في التكهن بالعلاقات الدولية ، أو وضع نموذج لها «انهم في القمة لكنهم غير ناجحين » .

ولا يستطيع أحد ألا يؤيد ماقاله العالم الفرنسي فيليب بوشار Phillipe Bauchard من أن «التكنوقراطيين يعتقدون ببساطة أنهم يستخدمون القوة لتوجيه سياسة القادة . ولكن العكس هو الصحيح . اذ أن هؤلاء القادة يستخدمون التكنوقراطيين لتحقيق مآربهم ويحتفظون بهم في المؤخرة ولا يدفعونهم نحو الامام الا حينما يحتاجون الى كبش فداء» .

وكما تبين التطورات فان الصراع العقائدي الذي لايعرف هوادة - بشكل خاص الصراع بين ايديولوجيا الماركسية اللينينية وايديولوجيا الامبريالية المحتضرة عدوة الانسان - آخذ بالنمو في كل أنحاء العالم .

كحركة معادية للشيوعيّة [1]

للكاتب البولوني

د. تاديوش ڤاليشنوڤسكي

ترجمة: جورج جبّور

ان دولة اسرائيل التي وجدت عام ١٩٤٨ كنتيجة للوضع السياسي في الشرقين الأدنى والأوسط بعد الحرب العالمية الثانية ، انما هي تحقيق لمفاهيم هرتزل والزعماء الصهاينة ، وقد تحققت بفضل ارتباطات خلفية على أساس سياسة الدول الامبريالية الكبرى .. ان العقيدة الصهيونية تنافي اللجوء الى افكار ثورية تقدمية . الصهاينة حققوا هدفهم معتمدين على حيل ورشاوى لمصلحة الطبقات الاجتماعية الغنية المنبثقة عن البورجوازية اليهودية . ومنذ البدء أرهقت هذه الحقائق السياستين الداخلية والخارجية لاسرائيل .

ان الفريق الصهيوني الحاكم الآن في اسرائيل ، المتطرف في يمينيته ، كانت له اتصالات وثيقة طويلة مع الاحتكارات الكبرى في الولايات المتحدة

(١) نشرنا في العدد السابق من المعرفة (العدد ٨٩ - تموز « يوليو » ١٩٦٩) ترجمة لأحد فصول كتاب الباحث البولوني تاديوش فاليشنوفسكي . وفي العدد الحالي ننشر تتمة الفصل المذكور ، نظراً لأهميته في القاء اضواء جديدة على الواقع الصهيوني العدواني .

وبريطانيا وجمهورية المانيا الاتحادية . تلك الدول الـــتي تقود سياسة عداء استعمارية في الشرقين الأدنى والأوسط . ومن هنا يأتي اعتماد سياسة اسرائيل الخارجية على سياسة دول همها الابقاء على وضع دائم التوتر في الشرقين الأدنى والأوسط . ومن هنا اسند الى اسرائيل دور شن اعتداءات عسكرية على الأقطار العربية المجاورة .

خط السياسة الاسرائيلية الرسمي تجاه بولونيا عبّر عن نفسه في مناسبات عديدة بالتصريح عن الصداقة مع بولونيا ، وبالتأكيد على التقاليد التي تربط بين البلدين ، وبالتذكير بالمثال الايجابي الذي اخذته بولونيا الشعبية منذ مابعد الحرب العالمية الثانية بتقديم المساعدة حتى قبل تكوين دولة اسرائيل . والى جانب ذلك ، ثمة تذكير بالهجرة الضخمة الأولى ، وبالتأييد الذي قدم من منبر الأمم المتحدة عام ١٩٤٨ ، وبالهجرة الضخمة الثانية عامي ١٩٥٧ - ١٩٥٨ ، وكذلك بالموقف الحالي لحكومة بولونيا الشعبية تجاه الثقافة والتقاليد اليهودية في بولونيا . وفي الظاهر فان أحداً لا يتوقع موقفاً أحسن من هذا الموقف تقفه دولة رأسمالية من جمهورية بولونيا الشعبية .

خط اسرائيل السياسي هذا لا يمكن اعتباره مستقراً ، كما يظهر مثلاً من موقف بن غوريون الزعيم الاسرائيلي ، تجاه الاقطار الاشتراكية بوجه الاجمال ، وتجاه مسألة حدود بولونيا الغربية على وجه التخصيص . وبالمقابل ، فإن موقف حكومة اشكول يخضع لاعتبار عام هو الوصول إلى الاتحاد السوفييتي والاقطار الاشتراكية الاخرى عن طريق تقارب مع بولونيا (في حالة الاتحاد السوفييتي ، فان الهدف الخاص هو الوصول الى اليهود الروس) .

وما هو اكثر من ذلك ، فإن حكومة اسرائيل استخدمت اسم بولونيا

الشعبية كمثل ينبغي على الاتحاد السوفييتي تقليده . مقارنات من هـــذا النوع انعكست من على منابر السلطات الحكومية المتعددة ، وفي الأوساط الرسمية اليهودية والحركات الصهيونية ، ولا يمكن تقييم هذا الاتجاه الا كمحاولة لتخريب العلاقات بين جمهورية بولونيا الشعبية وبين الاقطار الاشتراكية الاخرى ، وكشكل من أشكال الضغط على الاتحاد السوفييتي .

ورغم الهجرة الواسعة لليهود الآفرو - آسيويين الى اسرائيل ، فإن الفئة الاجتماعية - السياسية العامة هناك تتألف من اليهود الاوروبيين ، بما فيهم يهود بولونيا ،والمهاجرون القدماء من روسيا والاتحاد السوفياتي . وثمة فريق فعـــال سياسياً بشكل خاص ، ذلك الذي ترك بولونيا بعد عام ١٩٤٥ . وتصادفنا هنـا ظاهرة غريبة . ان الهجرة التي توصف بأنها عقائدية ، والتي غادرت بولونيا قبـل الحرب ، والمتأثرة مبدئياً بشكل سلبي بنظام سانا كيا Sanacja ، اتخـذت مكاناً لها-على الأغلب-في حزب مابام اليساري الاشتراكي الديموقراطي . ويمكن القول بشكل عام إن هذه الجماعات ، رغم صهيونيتها القوية ، ليست معادية تماماً لبولونيا الشعبية . ومن جهة اخرى ، فان أولئك الذين غادروا جمهورية بولونيـا الشعبية يدعمون صفوف الماباي الرجعي ، ويمكن القول بشكل عام انهم معادون لنظامنا السياسي وبولونيا عموماً . وفي هذا المجال فان اتهاماتهم بعدائنا للسامية (التي يزعمون بأنها سبب هجرتهم) والهزء بالاقتصاد البولوني واتهـــام البولونيين بالتعاون مع الألمان في إبادة اليهود ، كل ذلك يمثل مزاعمهم الدائمـــة لآرائهم المعادية للأمة البولونية .

ودور هذا الفريق في صياغة الرأي العام الغربي عن بولونيا هام جداً ، إذا اعتبرنا ان اعضاء هذا الفريق يمثلون ، بأعداد كبيرة المستويات الوسطى والأكثر

أهمية في الهرم الاداري والاجتماعي (دوائر الدولة ، الدوائر البلدية ، البوليس ، وخاصة الصحافة) من هنا تنبثق المقالات المتكررة المعادية لبولونيا التي لاتحدمها الحكومة ، زاعمة ان الصحافة « حرة » .

ان من الواضح ان الخط الرسمي الحكومي له اثره على درجة التمادي في الموقف المعادي لبولونيا . وهذا ما يشرح نوعاً معيناً من الليونة تجاه بولونيا ، عام ١٩٦٦ ، تلك الليونة التي اقترنت بموقف حكومي صديق لبلدنا . ولكن في عام ١٩٦٧ عادت بولونيا الشعبية لتكون موضع حملة تخرصات واكاذيب كبرى بعد قطع العلاقات الديبلوماسية بين بلدينا .

بالنسبة للاسرائيليين من أصل أفريقي-آسيوي ، فان بولونيا انما هي فكرة غامضة ، فهم يعلمون عموماً أنها بلد في المعسكر الشيوعي،وذلك أقصى ما يعرفونه . موقف هذا الجزء من الشعب (جماهير ذلك الجزء ، إذ أن هناك افراداً منهم يشغلون مناصب عليا في ادارة الدولة) لا مبال على الاطلاق . إن أكثرية هؤلاء هم في أسفل السلم الاجتماعي .

ثمة جزء آخر وكبير مولود في اسرائيل ، وهؤلاء يشكلون الكوادر التي اخذت باحتلال مواقع الاجيـــال القديمة . ان آراء هذه الكوادر ليست مصوغة باتجاه ودي بالنسبة لبولونيا . ان الروابط الرأسمالية والسياسية ليهود الدياسبورا مع حكومات الاقطار الرأسمالية تشير الى حتمية تطور اتجاهات معادية للشيوعية لدى الحكومات المقبلة في دولة اسرائيل التي تحتفظ بعلاقات لاتنفصم مع يهود الدياسبورا .

ان الانتصارات المتعاقبة التي حققها الماباي داخل الدولة ، على الرغم من بعض الخلافات الداخلية ، يشهد (على اساس تطورات دولة اسرائيل منذ ١٩٤٨

وحتى الآن) على النقص في وجود قوى تقدمية كافية قادرة على فرض تأثير يغير سياسة اسرائيل في عالمنا المقسم سياسياً وعقائدياً .

وعلى هذا فإن صورة بولونيا الشعبية في المجتمع الاسرائيلي ستبقى بشكل عام مماثلة لصورة الدول الشيوعية الاخرى . ان بعض الاختلافات التي يمكن ان تشاهد حالياً،والناشئة عن تكتيك الحكومة،او عن عواطف مجردة هنا وهناك ، تبقى من غير أهمية كبرى حين ننظر الى الصورة العامـــة . ان موقف التصميم الذي تقفه جمهورية بولونيا الشعبية من جمهورية المانيا الاتحادية يعقّد سياسة حكومة اسرائيل . إنها تشعر أن سياستها في التقارب مع جمهورية المانيا الاتحادية تنتج حتماً اعـاقة في تحقيق المفهوم الاسرائيلي بالتقارب مع بولونيا وغيرها من أقطار المعسكر الاشتراكي .

ماير فيلنر Meir Wilner ، سكرتير الحزب الشيوعي الاسرائيلي ، يقول في تقييمه لسياسة اسرائيل الخارجية : « ان الانتخابات الأخيرة في اسرائيل ، في تشرين الثاني ١٩٦٥ ، كانت نصراً للمرشحين الرئيسيين للأحزاب الحاكمـة ، مرشحي الكتلة المؤلفة من الماباي واحدوت هافودا . هذه الأحزاب إنمـــا تمثل الجناح اليميني في الديموقراطية الاسرائيلية ، ذلك الجناح الذي يرأسه ليفي اشكول »(١) .

ولأن التحالفات السياسية في اسرائيل تنعكس على سياسة الحكومة ، فإن زعماء الصهاينة يكمّلون سياسة اسلافهم المعادية للشعب باقامتهم علاقات وثيقة مع القوى الامبريالية ، وخاصة جمهورية المانيا الاتحادية . وقد عبّر فيلنر عن

---

(١) م . فيلنر « الوضـــع الراهن في اسرائيل » في مشاكل السلم والاشتراكية Problems of Peace & Socialism (الملزمة الرابعة – نيسان ١٩٦٧) ص ٥٠

رأيه أيضاً بالنسبة لهذا الموضوع، إذ أكد انه «... على الرغم من ان لهجة جديدة بدت في وقت ما ، في تصريحات اشكول السياسية ، إلا انه سرعان ماتبين انه ملتزم بالسياسة القديمة، وانه يستهدف تقوية الصلات مع القوى الامبريالية ، خاصة مع الولايات المتحدة والمانيا الاتحادية . الأوساط الحاكمة الاسرائيلية ما تزال ميّالة لتقديم الخدمات للقوى الغربية في محاولات هـــذه القوى اخماد الحركات المعادية للامبريالية في الأقطـار العربية ، وما تزال ميّالة لتكون عميلة للاستعمار الجديد في افريقيا وآسيا ، ولتساهم في حملة التخرصات العالمية ضدالاتحادالسوفييتي والأقطار الاشتراكية الأخرى . وكبرهان على اعتراف الامبرياليين بهـــذه الخدمات وغيرها، فإن رأس المال مايزال يتدفق على اسرائيل من الغرب، لاسيما من الولايات المتحدة والمانيا الاتحادية » (١) .

وبحسب الاحصائيات الأخيرة لصحيفة إيكونوميشسكايا Ekonomicheskaia Gazeta فإن رأس المال الأجنبي الموظف في اسرائيل يبلغ سبعة آلاف مليون دولار. وظّـف نصفه في السنوات الست الأخيرة، والقسم الأعظم جاء من الولايات المتحدة (٣٦٠٠ مليون دولار) بينما جاء قسم آخر (١٧٠٠ مليون دولار) من هبات المنظمات الصهيونية ومن التبرعات الشخصية للايـــين اليهود الأمريكيين أو من قروض لاسرائيل في الولايات المتحدة وغيرها .

وفي مدى السنوات الثماني القادمـة ستحصل اسرائيل على تسعة آلاف مليون دولار من الولايات المتحدة ، والمانيا الاتحادية ، والبنك الدولي للانشاء والتعمير ، على شكل توظيفات خاصة (٢) .

---

(١) المصدر السابق .

(٢) ايكونوميشسكايا، العدد ٣٤ — آب ١٩٦٧ .

ان تدفق الرأسمال الأجنبي على اسرائيل لم يؤد الى استقلالها الاقتصادي. ان اقتصادها أصبح معتمداً وبشكل متزايد على الاحتكارات الأجنبية . وكما قال فيلنر إن حكومة اسرائيل « تحاول حل مشاكلها الاقتصادية بدعوة الجماهير القادمة الى التقشف ، وتوثيق صلاتها مع السوق الأوروبية المشتركة»، ولاسيما المانيا الاتحادية، الى درجة ان هذه الصلات أصبحت أقوى من الصلات التي تربط اسرائيل بالاحتكارات الأمريكية . ومن الجدير بالذكر ان التوظيف الألماني الغربي في اسرائيل قد ازداد اربعة اضعاف في سنة ١٩٦٥ وحدها - بالمقارنة مع عام ١٩٦٤ - وما يزال في ازدياد [1] .

من الواضح ان مثل هذه السياسة الحكومية تجعل القطر معتمداً على رأس المال الأجنبي ؛ وهكذا فان عجز الميزان التجاري يزداد[2] .

ان سياسة اسرائيل الخارجية مرتبطة الى درجة متصاعدة بالقوى الغربية بشكل أصبحت معه اسرائيل داعية حرب في الشرقين الأدنى والأوسط تنفيذاً لرغبات أسيادها .

وهكذا فاسرائيل تؤيد العدوان الامريكي في فيتنام . وتتابع سياسة التمييز العنصري ضد المواطنين العرب في اسرائيل (١٢٪ من مجموع السكان) وتنظم حملات عسكرية ضد الأقطار العربية . جمهورية المانيا الديموقراطية هدف هجمات متكررة سيشنها عليها النواب الاسرائيليون ، وتعامل بقية الاقطار الاشتراكية بشكل مشابه . وبازدياد ضغط الدوائر السياسية في بون على الأوساط الحاكمة في اسرائيل يزداد الاتجاه العدائي الاسرائيلي لسياسة السلام التي

---

(١) فيلنر - المصدر المذكور آنفاً . ص ٥١ .

(٢) بلغ العجز في الميزان التجاري الاسرائيلي ٥٠٨ مليون دولار عام ١٩٦٥ .

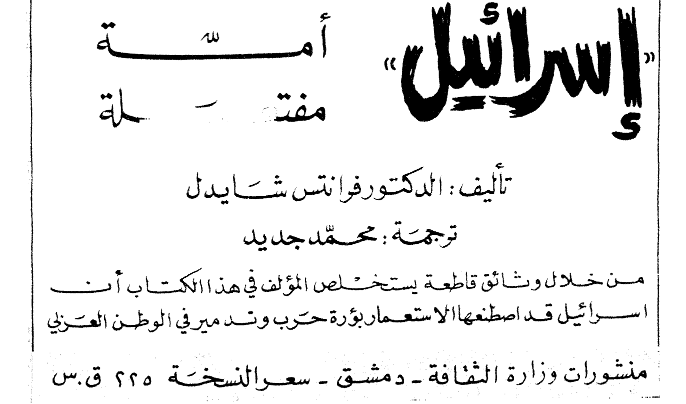
تتبعها بولونيا الشعبية . وهكذا فإن أهداف ووسائل الحكومة الاسرائيلية انما تتناقض مع أهداف ووسائل بولونيا الشعبية ومع آمال الأمة البولونية .

ان سياسة بولونيا الشعبية المتحدة مع الاقطار الاشتراكية الأخرى في حلف وارسو ، انما تدعم الجبهة المعادية للاستعمار . ان الموقف الموحد للدول الاشتراكية بالنسبة للامبريالية الامريكية وللعسكرية الألمانية الغربية تعبر عنه بيانات زعماء حكومات هذه البلدان ، كما تعبر عنه الاتفاقات المتبادلة فيما بينها، وتصريح بخارست عام ١٩٦٦ . وهكذا فإن موقف اسرائيل المعادي للعرب ، النابع من ارادة القوى الامبريالية ، والموازي لسياسة حكومة بون ، انما هو غريب عن الموقف البولوني الاساسي . كذلك فإن موقف اسرائيل المعادي للاتحاد السوفييتي وجمهورية المانيا الديموقراطية أي لتلك الدول التي تربطها ببولونيا أواصر صداقة دائمة والتي تتبع معها سياسة سلمية ، انما يماثل الموقف السياسي لبون .

ان حكومة بولونيا التي لاتحتاج أهمية سياستها الى برهان ، تتابع نضالاً متصلاً ضد الامبريالية وخطر الحرب . وبسياستها هذه تخلق مجالاً يبدل بالتكتلات العسكرية الاوروبية نظام أمن جماعي مبني على الاعتراف بالحدود الراهنة وبدولتين ألمانيتين . انها تحارب قوى المانيا الغربية العسكرية الانتقامية . إن حكومة بولونيا الشعبية لا يمكن لها أن تؤيد سياسة اسرائيل المنحازة لبون مقابل قبضها لأموال المانيا الغربية ، تلك السياسة الغريبة عن سياسة التعايش السلمي . وهكذا فإن موقف الحكومة الاسرائيلية تجاه بون ينسجم مع مصالح سياسيي بون . ان جمهورية المانيا الغربية تجمع الى مصالح الحكومة الاسرائيلية مصالحها الذاتية . ان المفهوم الاسرائيلي للتقارب مع بولونيا يتعارض مع مصالح الأوساط الحاكمة في بون ، ومع مصالح الحركة الصهيونية . ان الحالة الراهنة

للعلاقات بين اسرائيل وبولونيا – المعبّر عنها في موقف سلبي من مبادهات بولونيا السلمية على الصعيد العالمي، والمعاملة العدائية لايديولوجية حزب العمال الموحد من قبل زعماء الصهيونية في اسرائيل – إنما هي امتداد للمفاهيم السياسية لألمانيا الغربية وللحركة الصهيونية. انها نتيجة لتحالف القوى بين اسرائيل والحركة الصهيونية العالمية، ذلك التحالف الذي يدور في فلك النفوذ الالماني الغربي .

ان الهجوم الاسرائيلي المسلح ضد الاقطار العربية قد أدين بشكل حازم من قبل الامة البولونية بكاملها في عدة اجتماعات ومهرجانات . وفي ١٢ حزيران ١٩٦٧ قطعت حكومة بولونيا الشعبية علاقاتها السياسية مع اسرائيل، وانضمت الى الدول المطالبة بادانة المعتدين ، وبانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المحتلة ، واحباط مخططات توطين السكان المدنيين العرب، حتى يبقى من الممكن لهم العودة الى وطنهم، او التعويض عن الأضرار التي تحملتها الاقطار العربية. وقد أجاب الصهاينة على موقف الحكومة البولونية بتوجيه موجة من الحقد .



اليسار الصهيوني [1]

من بدايته حتى إعلان دولة إسرائيل

تأليف : عزيز العظمة

عرض وتلخيص : هشام الدجاني

« اليسار الصهيوني » كتاب جديد ضمن سلسلة الدراسات الفلسطينية التي يقدمها مركز الأبحاث التابع لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وقد قسم المؤلف الاستاذ عزيز للعظمة كتابه الى قسمين رئيسيين ، تحدث في الاول منها عن اليسار الصهيوني في أوروبا ، أما القسم الثاني فقد كرسه للبحث في اليسار الصهيوني في فلسطين .

والفصل الاول من الكتاب عبارة عن مقدمة موسعة في التاريخ اليهودي عامة . ولعل ما دعا المؤلف الى التوسع أنه أراد أن يقدم للقارىء تحليلا علمياً لموضوع اليسار الصهيوني بشكل يخلو من الافكار المسبقة ، متتبعاً في ذلك الجذور التاريخية للموضوع .

وفي الفصل الثاني : « اليهود في شرق أوروبا وبداية الحركات اليسارية الصهيونية » يتحدث المؤلف عن الظروف الاقتصادية والاجتماعية التي دفعت باليهود الى الهجرة من اوروبا الشرقية الى أوروبا الغربية ، وكذلك الظروف السياسية التي تمت بشكل خاص في روسيا القيصرية .

---

(١) منشورات منظمة التحرير الفلسطينية – مركز الأبحاث – بيروت ١٩٦٩ سلسلة الدراسات الفلسطينية ، رقم ٥٠ .

لقد فقد اليهود في أوروبا الشرقية خلال حقبة من الزمن تقل عن مائة عام مواقعهم الاقتصادية الممتازة كتجار وسماسرة ومرابين ، وتحولوا تدريجياً الى عمال عاديين يعملون من أجل رزقهم في ظل منافسة وشعور بالعداء لهم .

في ظل هذه الظروف الاجتماعية كان من الطبيعي أن تتكون حلقات اشتراكية سرية تدافع عن مصالح اليهود كطبقة عمالية ، وكقومية . وقد اجتمع مندوبون عن هذه المنظمات لاول مرة في مدينة فيلنه عام ١٨٩٧ ، وأسسوا «عصبة العمال اليهود في ليتوانية وبولندة وروسيا » .

ويدلنا أحد مقررات هذا الاجتماع على وضع ومطالب يهود أوروبا الشرقية اليساريين في تلك الفترة : « ان الاتحاد العام لكل المنظمات الاشتراكية اليهودية يعلن أن هدفه ليس العمل على تحقيق المطالب السياسية الروسية فحسب ، بل سيعمل بشكل خاص على الدفاع عن المصالح المحددة الخاصة للعمال اليهود ، وعلى الاهتمام بحقوقهم المدنية ، وعلى محاربة قوانين التفرقة المعادية لهم . هذا لأن العامل اليهودي لايعاني من وضعه كعامل فحسب ، بل من وضعه كيهودي » . اذن فنضال اليساريين اليهود كان منذ البداية على جبهتين : الاشتراكية ، واليهودية المحضة ، وهذه هي الصبغة العامة لليسار الصهيوني والتي سنراها دائماً . ويعزو المؤلف دافع نضال اليهود الماركسيين على الجبهة الثانية الى الشعور بالانعزال الذي دام قرون طويلة .

بيد أن الجماعة اليسارية اليهودية ، التي عرفت في ذلك الوقت باسم البوند (Bund) انحرفت عن مبادىء اليسار ، واتجهت اتجاهاً قومياً واضحاً . لقد ابتدأت البوند حركة اشتراكية ، ولكنها كانت تحمل التناقض في بذورها ، تحمل تناقضاً بين الأممية والقومية اليهودية . ومعنى هذا أن اليهودي في أوروبا الشرقية لم يستطع جملة عوامل اقتصادية وتاريخية أن يصبح اشتراكياً كاملا . انه لايريد أن ينسى أنه يهودي . كانت تتوزعه دوماً عواطف ونوازع قومية عنيفة ، تؤجج جهاد دعايات الحركة الصهيونية في أوروبا الشرقية ، وهي الحركة المقابلة للحركة الماركسية .

بعد فشل « البوند » جاءت حركة « عمال صهيون » التي أفرد المؤلف فصلاً كاملاً من كتابه للحديث عنها . و « عمال صهيون » حركة صهيونية ماركسية في وقت واحد ، استعملت لغة اليديش(١) في دعاياتها واجتماعاتها السياسية . وعقد أول اجتماعات هذه الحركة في مينسك (روسيا) عام ١٨٩٧ . وقد تطورت هذه الحركة تحت زعامة بير بوروشوف وضمت عدة منظمات يسارية صهيونية صغيرة ، وأصبحت تعرف باسم

(١) لغة يهود أوروبا الشرقية .

« حزب عمال صهيون » . ومن أبرز أعمال هذا الحزب « الاشتراكي» انضمامه الى الحركة الصهيونية العالمية .

معنى هذا أن بذور الصراع ظلت قائمة بين الصهيونية كنزعة قومية حادة ، وبين الاشتراكية الماركسية داخل «عمال صهيون» . وما محاولة دمج الفكرتين الا محاولة صنعية أثبت التطبيق العملي لها تغلب العامل الصهيوني على العامل الاشتراكي ، وذلك لاستحالة تطبيقها سوية . ان بوروشوف يطالب بوطن قومي (!) من أجل أن ينقل اليه صراع البروليتاريا ضد البورجوازية العالمية . ويتساءل المؤلف ، وهو محق في هذا التساؤل : ولكن لماذا هذا الصراع المستقل مادام الصراع مع البروليتاريا العالمية ضد البورجوازية هو الهدف ؟ ولم عدم العمل في روسيا مثلاً ؟ (١)

إن بوروشوف يريد استيطان فلسطين أيضاً ، ولكن بالاعتماد على العمال. والفرق بينه وبين المنظمة الصهيونية العالمية ،أن الأخيرة تعتمد على الطبقة البورجوازية والاستعمار لتحقيق غرضها في الاستيطان .

ويتوسع حزب عمال صهيون ويؤسس له فروعاً في عدة عواصم أوروبية وفي أمريكا . ويتحول الحزب الى اتحاد عالمي لعمال صهيون . ولكن هذا الاتحاد انحرف عن الخط الماركسي الصحيح ، كما انحرفت البوندمن قبل . إذ أصبحت مطالب الاتحاد قومية استيطانية قبل كل شيء . وعندما أراد هذا الاتحاد الانضمام الى الأممية في روسيا ،رفض طلبه . ذلك أن الماركسية الصحيحة وجدت في الاتحاد حركة رجعية تنمي الوعي القومي على حساب الوعي الطبقي .

بعد ذلك ننتقل الى القسم الثاني من الكتاب ، حيث يتحدث المؤلف في فصلين متتابعين عن اليسار الصهيوني في فلسطين ذاتها .

تأسس حزب عمال صهيون في فلسطين عام ١٩٠٦ ، وكان بن غوريون رئيساً للجلسة التأسيسية . ويتألف برنامج الحزب في فلسطين من عدة نقاط منها : تأميم وسائل الانتاج ، تحقيق السيادة السياسية للشعب اليهودي في فلسطين ، الهجرة .

وتبدو في هذا البرنامج المرحلية البوروشوفية التي تبناها بوروشوف في برنامج حزبه « عمال صهيون » . فهنا أيضاً نرى هيمنة الفكرة الصهيونية قبل كل شيء . وفي عام ١٩٢٠ أمكن توحيد المنظمات اليسارية المختلفة في فلسطين، ضمن الاتحاد العام للعمال

---

(١) صفحة ٤٩ من الكتاب .

اليهود (الهستدروت) برئاسة بن غوريون . وأخـــذ الهستدروت على عاتقه القيام بالنشاطات الاقتصادية والاجتماعية كافة (تشغيل العمال اليهود ، تأمين المهاجرين .. الخ) التي كانت تقوم بها الأحزاب السياسية متفرقة .

لم تكن المنظمة العالمية غافلة بالطبع عن حركات اليسار في فلسطين . ولكنها كانت ترى أن المجتمع ذو الخلية الاشتراكية، هو الطريقة الأكثر «ملائمة» لاستعمار الصهيونية فلسطين . ومعنى هذا أن أهم أهداف الحركة الصهيونية العالمية كانت تتحقق عن طريق الحركات اليسارية الصهيونية . كما أن اليسار الصهيوني رضي من جانبه بهذا الدور، لأنه يحقق بذلك الناحية القومية والاستيطان . إذن إن هدف البورجوازية الصهيونية والاشتراكية الصهيونية معاً هو الاستيطان ، على حساب الشعب الفلسطيني وأرضه . وتمويل البورجوازية الصهيونية هو وسيلة دعم وترسيخ هذا الاستيطان .

ويتحدث المؤلف بعد ذلك مفصلاً عن تطور الحركات اليسارية داخل فلسطين، منذ تشكل الهستدروت عام ١٩٢٠ حتى عام النكبة ، كاشفاً هوية اليسار الصهيوني الحقيقية وزيف هذا اليسار .

وعند الفصل الأخير من الكتاب نقف وقفة قصيرة ؛ ففيه يتحدث المؤلف عن اليسار الصهيوني والعرب، وهو الموضوع الذي كان على المؤلف أن يخصص له أكبر حيز من كتابه القيم . هذا الفصل استعراض موجز لوجهات نظر الفئات اليسارية الصهيونية المختلفة تجاه العرب وتجاه العلاقات العربية – اليهودية .

يرى المؤلف أن اليسار الصهيوني كان يدعو نظرياً الى انشاء جبهة موحدة من البروليتاريا العربية واليهودية لتحرير الكادحين من قبضة مستغليهم، ولكن في الحقيقة كان كل يهودي ، ماركسي أو غير ماركسي ، يعتـــبر نفسه من الجنس المختار ، ويعتبر العربي أدنى منه .

ويخلص المؤلف بعد هذا العرض التاريخي الموثق لنشوء وتطور حركة اليسار الصهيوني عبر مسيرته الطويلة الى أن اليسار الصهيوني ، صهيوني قبل أن يكون يساراً ، « وما الاشتراكية الا النزعة الفكرية الصادرة عن وضع العامل الصهيوني ، هذا الوضع الذي لم يتمكن من استيعابه »(١) . واليسار الصهيوني مـــا هو الا جزء من النشاط الصهيوني ككل ، لا بل كان العامل الرئيسي في تحقيق الفكرة الصهيونية – وهي فكرة استعمارية لا انسانية – بكونه باني الشكل الداخلي للدولة .

---

(١) ص ١٤٧ من الكتاب .

والنتيجة التي خلص اليها المؤلف نتيجة منطقية وصحيحة ، توصل اليها من خلال تقصيه العميق والواعي لتاريخ الحركة اليسارية الصهيونية ، والظروف المختلفة التي أنبتتها وطورت مفاهيمها . لقد صرف المؤلف الجهد الاكبر من مؤلفه من أجـل تقصي هذه الحقائق والوصول بالتالي الى النتائج السليمة . وقيمة هذا الكتاب هي في كشفه لحقيقة هذا اليسار ، وتعريته وإدانته . لقد استخدم اليسار الصهيوني لتنفيذ مآرب الصهيونية العالمية وتحقيق أغراضها الاستعمارية . وهو لم يكن ابـداً في موقف المخدوع أو المسير ، بل كان في موقف الشريك الواعي لما يفعل . وهو مدان تماماً كالصهيونية التي تبنى هو بعض أهدافها .

واذا كان المؤلف قد بذل هذا الجهد المشكور في تقصي حركات اليسار الصهيوني منذ البداية حتى اعلان دولة اسرائيل ، فان تقصي مواقف هذا اليسار وأعماله وكشفها وتعريتها منذ عام النكبة حتى الآن يحتـاج من المؤلف جهـداً جديداً مشكوراً يضمه في كتاب جديد يكون مكملاً للكتاب الأول . وبذا تتكامل الصورة أمام القارىء العربي عن اليسار الصهيوني . وأغلب الظن أن المؤلف لن يضن بهذا الجهد من أجل الوصول الى الحقيقة .

وسائل الاعلام والتنمية القومية [1]

تأليف : د. ويلبر شرام

ترجمة : أديب يوسف شيش

عرض وتحليل : محمد الراشد

مما لاشك فيه أن أجهزة الاعلام غدت اليوم ذات أهمية بالغة لما كان لها من دور كبير في تزويد الافراد والشعوب والمجتمعات بالمعلومات الدقيقة والايضاحات الكافية عن الاحداث كافة التي تستغرق المسيرة البشرية عبر هذا القرن الذي يمكن ان يطلق عليه اسم «عصر الاعلام»، كما يطلق عليه اسم عصر الثورة الصناعية والطاقة الذرية والهيدروجينية. ذلك لأن وسائل الاعلام لم تعد مجرد جداول موسمية تخضع لفاعلية المناخ او الفصل او طبيعة الاقليم، بل غدت ينابيع ثرة يمتح منها الناس في اقاصي الارض شرقاً وغربا معلوماتهم، ويستقون منها خبراتهم ونظراتهم عن واقع الانسان والعلم والثقافات والفنون وأهم الكشوف العلمية والأنتربولوجية والحضارية والجيوفيزيائية وغيرها، بالاضافة الى اطلاعهم على حركات الشعوب الثورية وتقنيتها السياسية والاجتماعية وفاعليتها الدائبة المستمرة في سبيل احراز مزيد من التقدم والتطور .

وفي كتاب (وسائل الاعلام والتنمية القومية) يحاول المؤلف ابراز دور الاعلام في الاقطار النامية، وذلك بالاعتماد على خبراته الشخصية من جانب ، وعلى معطيات

(١) منشورات وزارة الثقافة – دمشق ١٩٦٩ .

المؤتمرات التي اقامتها اليونيسكو ، وذلك بالاستعانة بالتقارير المختلفة التي قدمها خبراء عالميون في وسائل الاعلام . ثم جاءت وزارة الثقافة في القطر العربي السوري لتضع بين يدي القارىء العربي هذا المجهود العلمي الذي اتسم بالدقة والاصالة والوضوح في مجالي الاعلام والتنمية معاً .

* * *

وهكذا يعمد الدكتور ويلبر شرام الى تحديد معنى التخلف الانساني بادىء ذي بدء ليحدد من خلاله السمات المشتركة للأقطار المتخلفة والأقطار المتقدمة ، فيقول : « هناك صفة واحدة يمكن ان تكون مشتركة بين جميع الاقطار : الدول الاكثر تقدماً مرت بتجربة الثورة الصناعية او بشكل من الثورة الصناعية خاص بهـــا ، بينما لم تمر الدول المتخلفة بتجربة الثورة الصناعية ، او مرت بها بشكل محدود او مر بها جزء محدود من سكانها » (١) . وانطلاقاً من هذا الوعي اتجهت الدول النامية الى مزيد من التأكيد على ادخال الثورة الصناعية بالقدر الممكن الى عالمها البشري والطبيعي ، ولكن موضوع التنمية ليس موضوع الطاقات والموارد الطبيعية فحسب . ذلك ان المشكلة الاساسية لمعظم الاقطار المتخلفة ليست الفقر في الموارد الطبيعية ، لكن التخلف في مواردها البشرية . واذن فان مهمتها الاولى يجب ان تكون بناء رأسمالها (٢) » البشري وهذا يعني بمعنى ادق التأكيد على الصحة العقلية والجسمية وتطوير التعليم والمهارات وغرس الامل في نفوس السكان ، وذلك عن طريق استخدام وسائل الاعلام استخداماً علمياً مشروعاً ذلك « ان انتشار المعلومات ذو أهمية عظيمة في تنظيم مستوى التوتر الاجتماعي. ووسائل الاعلام اشبه بالعامل الذي يراقب درجة الحرارة ، ففي وسعها رفع درجة الحرارة الاجتماعية مثلاً ، برفع مستوى المطامح حين لايكون الاقتصاد النامي مستعداً لارضائها (٣) » ولا شك أن وسائل الاعلام اذا ما استخدمت استخداماً مصحوباً بالتفهم والوعي الشامل للبيئة، تغدو قادرة على احداث تبدلات سريعة وهائلة معا ، ولكن على ان لايقتصر الامر على « تعليم الناس القراءة والكتابة فقط وتزويدهم بالمعلومات عن طريق الكلمة المكتوبة (٤) » بل مهمة الاعلام الاساسية العمل على زوال المجتمع

---

(١) وسائل الاعلام والتنمية القومية ص ٢٦ .

(٢) » » » » ص ٥١ .

(٣) » » » » ص ٦٥ - ٦٦ .

(٤) » » » ص ٩٢ .

التقليدي ، وادخال المدن والارياف والقرى الجبلية النائية الى الحياة الاجتماعية، والى مواقف الامة وتراثها الحضاري والقومي . ومن هنا تتضح لنا اهمية وسائل الاعلام في هذا العصر « باعتبارها بمثابة المضاعفات العظيمة فكما أن الآلات في الثورة الصناعية كانت قادرة على مضاعفة الطاقة البشرية بأشكال أخرى من الطاقة (١) » كذلك نجد بالمقابل ان « ثورة وسائل الاعلام » هي الاخرى قادرة على احداث تحويلات عميقة في حياة الناس والمجتمعات وجعلهم أشد قدرة وأكثر فعالية في مضمار التفتح على الحياة الانسانية الحرة الكريمة، والبناء القومي في كافة مجالاته الثقافية والاقتصادية والصناعية والزراعية . ولا شك ان احداث التحول الاجتماعي يهدف اول مايهدف الى تنمية ارادية يسهم فيها عدد كبير من الاخصائيين ويساعد فيها الاناس الاقل علماً (٢) » منتهجاً في ذلك سبيل الاقناع ونشر الوعي الثقافي اللازم ، وبما أن الاعلام اداة ناجعة في خدمة التنمية الاقتصادية والقومية ، فلا بد من القول ان جودة الاعلام وأصالته « يجب ان تبنى على الحقائق لا على الظنون (٣) » ، وذلك باعتماد الجماهير المنطلق الجوهري لها ، وذلك بالالتفات الى الفروق الكائنة بين القطاعات الشعبية والانتباه الى تطور واختلاف ردود الفعل مع مرور الأيام ، مستهدفة بذلك تسليط انوار كاشفة على حاجات الجماهير الاعلامية وتطويعها لمقتضيات التطور الجديد الذي تستهدف اجهزة الاعلام ترسيخ جذوره سواء عن طريق الصحافة والاذاعة أو التلفزيون اوغيرها .

* * *

وفي الحقيقة ان بناء الاعلام ليس بالامر السهل بالنسبة لدولة نامية وذلك لما يتطلبه من مبالغ طائلة ، وايجاد كوادر اعلامية ذات اختصاصات وقدرات ومهارات، وبالتالي تحقيق الوسائل اللازمة لتوزيع الاعلام كالمواصلات اللاسلكية والكهرباء ووسائط النقل والخدمات البريدية وغيرها . ولكن مع ذلك لابد من تطويع الوقائع لحاجات المستقبل ومتطلباته ، فالأقطار النامية تريد تحديد نسبة معينة وثابتة بين المبالغ التي تنفقها في طريق التنمية الاعلامية وبين النتائج والمردود في مجال التنمية القومية ، لذا تتجه عادة الى وضع

---

(١) المصدر السابق ص ١٤٩

(١) » » ص ١٨٦

(٣) » » ص ٢٩٢

دستور على الشكل التالي: «س دولار مستثمر في وسائل الاعلام في ظروف معينة سوف يعطي مروداً مقداره ص دولار في التنمية الاقتصادية » (١) ، لكنما سريعاً ما يتهاوى دستور كهذا لاسباب مختلفة ، اذ ليس من السهولة تحديد العلاقة القائمةبين الكلفة والربح.

ولنأخذ على سبيل المثال هدفـاً رئيسيا من أهداف التنمية القومية التي يتطلع الاعلام الى المساهمة في تحقيقه : خلق رأي عام مستنير مثلا ، وحيال ذلك كيف يتسنى لنا تقدير قيمة الرأي العام المستنير بالدولارات ..؟ هذا أمر غير ممكن طبعاً ، فنحن قد نستطيع تقدير ارتفاع منسوب الانتـاج الزراعي الناتج عن الاعلام في الميدان الزراعي ، ولكن هذا لا ينطبق على كافة المجالات الاعلامية ابداً .

ولابد من القول ان عملية وضع خطة اعلامية تحتاج اولاً الى وضع تقدير دقيق للوضع الحاضر، وذلك بالقيام بجرد علمي يتخذ قاعدة اساسية لبناء الخطة الاعلامية ،ومن ثم المباشرة بتحديد الاهداف والاولويات التي ترمي اليها الخطة ، واخيراً يصار الى اتخاذ الاحتياطات للمراجعة والتقويم . وهذا التخطيط يتطلب ولاشك اعداداً مهنيا مسبقا وتدريبات عامة اثناء الخدمة للعاملين في الحقل الاعلامي بمختلف اشكاله ، وبذلك يمكن الوقوف لدى المشكلة الاساسية في موضوع التنمية الاعلامية الا وهي العمل على توسيع نطاقها بحيث يشمل الريف والمدينة معا . وهنا يمكن الاستفادة من الراديو والتلفزيون والصحف ووكالات الانباء القومية والسينما استفادة غير محدودة .

* * *

وفي هذا العرض التحليلي السريع لمضامين الكتاب رأينا كيف عهد المؤلف اولا الى « دراسة العلاقات القائمة بين الاعلام الجماهيري والتنمية الاقتصادية والاجتماعية»(٢) ثم عمل في الفصل الثاني على دراسة انتقال الاعلام داخل الاقطار الناميـة من جهة ، ثم انتقاله بينها وبين الاقطار الاخرى من جهة اخرى ، ليصل في الفصل الثالث الى القيام بفحص دقيق لتوزع وسائل الاعلام في العـالم ، ورصد الفصل الرابع للتأكيد على كيفية استغلال الوسائل الاعلامية بشكل ناجح في خدمة التنمية القومية ، بينما اقتصر الفصل الخامس على كيفية استعمال وسائل الاعلام بشكل فعال في حملات التنمية الكبيرة

---

(١) المصدر السابق ص ٣٤٠

(٢) « « ص ٤٠٠

كالزراعة والصحة ومكافحة الامية . وانتقـــل في الفصل السادس الى مناقشة فوائـد البحث الاعلامي في ميدان التخطيط والحملات المتصلة بالتنمية ، في حين عمـد في الفصل السابع والاخير « الى دراسة بعض المشكلات والأساليب المتعلقة باقامة جهاز للاعلام في القطر النامي (١) كالتكاليف ، وعمليات التخطيط واعداد العاملين في المجال الاعلامي وما يتعلق بذلك من فاعليات وتكاليف ونتائج ، ومن خلال التوصيات التي يطرحها الدكتور شرام يتضح لنا ان على القطر النامي ان يعمد الى دراسة كيفية استغلال وسائل الاعلام لمضاعفة توزيع الاعلام عن التنمية ، والعمل على اقامـــة علاقات تعاون بين السلطات المسؤولة عن التنمية الاعلامية والسلطات المسؤولة عن تنمية التعليم والميادين الاخرى المرتبطة به واتخاذ التدابير اللازمة لتسهيل انتقال الانباء ، وبنفس الوقت العمل على دمج وسائل الاعلام الجماهيري مع الاعلام الشخصي ، وألا يتردد القطر النامي في استغلال التقنيات الجديدة في الاعلام اذا ما كانت تلائم حاجاته وامكاناته ، وبالتالي الاستفادة من خبرات الاقطـــار الاخرى في استعمال وسائل وقنوات الاعلام في سبيل التعجيل بتنميته الاقتصادية وتحويله الاجتماعي .

هذه صورة عن مادة كتاب (وسائل الاعـــلام والتنمية القومية) .. لا أزعم لنفسي أنني أعطيت الكتاب حقه ، وكل ما في الامر انني حاولت اعطاء القارىء صورة أقرب ما تكون الى الحقيقة عن أهم النقاط التي أكد عليها المؤلف في بحثه الذي استغرق ما يقارب الخمسمائة صفحة . ولعل في هذا البحث ما يدفع العاملين في الحقل الاعلامي في وطننا العربي الى دراسة الواقع الاعلامي في الوطن الكبير والعمل على معالجته ووضع الحلول الناجعة لايجاد تطوير وتنسيق اعلامي عربي رائد .

---

(١) المصدر السابق ص ٢٠٧ .

عن الصمت والمطاردة

هل يعيش بعضنا مطارداً ، وحيداً ، يصمت الآخرون وهم يرونه في حاله تلك !؟

وما الذي يطارد انساننا ؟

أهي قوة خارجية غاشمه !؟ أهي قوة صنعها الآخرون وحاصروه ضمنها !؟

أم هي (ذات) مبهمة محبوسة في الداخل تحاول تمزيق الجدران المبنية حولها !؟

أهي قبضة فولاذية لسلطة عاتية!؟ أهي موجات من ردود أفعال تنتابنا في لحظات الصمت الخارجي الأبله !؟

ربما كان الأمر متعلقاً بمجمل تلك الأشياء . وربما أضيف اليها أسباب أخرى وعوامل أخرى . والسؤال الذي يواجه أحدنا في هذه الحالة يتعلق بمقدرة الانسان على صب « نتاج تلك الاشياء » التي تطارده ، ومن أقدر من شاعر على اغتراف ما في الاعماق وقذفه في وجوه الناس تماماً كحامل المرآة ؟

والشعر ، بمفهومه الحديث الصائب ، دفقة احساس صبت ضمن أطار وبناء معماري كامل ، له شكله الهندسي ، وموسيقاه الخاصة بصرف النظر عن « الوزن والقافيــة » . فسواء كان الشكل « فراهيدياً» أو لم يكن يظل السؤال المطروح هو:الشعر أو اللا شعر ، وبالتالي : الفن أو اللا فن .

محمد عفيفي مطر شاعر من العربية المتحدة ، صدرت له مجموعة شعرية بعنوان « من دفتر الصمت » عن وزارة الثقافة بدمشق .

ولست أدري ، بما أنني لست ناقداً ، أمن الواجب ان أخوض بحور الدنيا الذاتية لشاعرنا أم أخرج قليلاً ، محاولاً مناقشة ظاهرة في الشعر العربي الحديث !؟

أراني مضطراً ، قبل الحديث عن الصمت والمطاردة عند محمد عفيفي مطر ، ان أعرج على الظاهرة .

الحديث عن الشعر الحديث صعب ، انطلاقاً من مواقع نقدية خالصة. فهو ، كالقصة القصيرة ، لا يحده حد ولا يلجمه ضابط الا فيما يتعلق بصدق الدفقة المقدمة من قبل الشاعر . من هنا جاء تركيزي على « الموضوع » وانا أسجل انطباعاتي .

واذا كان (الموضوع) هو الذي يفرض الشكل الفني للعمل الفني ، لا سيما في القصة القصيرة والمسرحية والرواية ، فان الأمر ، هنا ، يختلف الى حد ما . حدة دفقة الاحساس تقابلها حدة في الكلمة ، في اختيارها ، في بناء القصيدة الموضوعي . اما ظاهرة الفرق في الذات ، قوقعة الشاعر البدائية ، فهي من مسببات عدم «توصيل ما يريد الشاعر ايصاله الى القارىء » ، وذلك نتيجة طبيعية للابهام الذي يحيط باعماق النفس الانسانية ذاتها .

والشاعر ، في رأيي ، يصبح ، حقاً ، شاعراً عندما ينفلت من أسر « الذات » الضائعة والبعيدة ، كل البعد ، عن مدركات الآخر ، فالآفاق الانسانية الرحبة هي التي تمد الشاعر بمزيد من الانفعالات والعلاقات الجدلية وتغنيها اغناء تاماً يعطي للقارىء مجال الفهم التام أو المدرك .

ومحمد عفيفي مطر ، مثل كثير من الشعراء المعاصرين — وفي طليعتهم آدونيس و خليل حاوي ، أغرق في الصور الحسية ، في هذه المجموعة الشعرية ، حتى الغموض :

دمي يفور بالزجاج والحصى

تسيل فيه من قياثر التراب غنوتان

أرى افتراق عالمين غير أنني سجين

دمي يريد أن يفر ـ ضاحكاً ـ من الفروق (١)

ان كانت « الكلمة » عند (مطر) هنا بسيطة، فالصورة شائكة ، معقدة ، رغم ان

---

(١) محمد عفيفي مطر – من دفتر الصمت – وزارة الثقافة – دمشق ص ٥

الشعر الحديث بدأ يتخلى ، في هذه المرحلة ، عن الصورة لصالح القصة والرواية ، المحسوس هنا أمر بعيد ، ويبقى « المتصور » فقط ، يدور في عوالم الذات الساحرة الغـامضة :

كواكب تكسرت وكحلت عيون منشدين

مثل هذه الصورة لانراها الا عند آدونيس في « التحولات » . وان كان آدونيس يعد من اوائل الشعراء المحدثين، فان الميزة الهامة التي تفصله عن « السياب والبياتي وصلاح عبد الصبور » مثلا هي ذاتها التي جمعته بعفيفي مطر هنا ، مع فارق واحد جوهري هو أن (مطر) يظل أبسط وأيسر كلمة من آدونيس .

الغرام العجيب بالصور المتفردة ، يخلق زحاماً في الطريق المؤدية الى « فهم » القارىء لعالم الشاعر . وعالم محمد عفيفي مطر ، في المجموعة ، عالم ضيق تنحصر فيه اسباب الغربة والضياع ، المطاردة الأبدية داخل الذات الحبيسة ، او داخل سجن الذات أيضاً .

فان كانت الذات حبيسة ، فكيف هو سجن الذات إذن ؟ هل يتسع ثقب الابرة للفيل ؟

الزيت محترق باعصابي ،
وريح الفحم باب
قد أغلقته يد من الصلب المذاب (١)

لم استطع تصور باب من ريح الفحم تغلقه يد مصنوعة من صلب مذاب . والغريب في الأمر ، ان القصيدة ذاتها « الدوامة » تضم دفقات واضحة كل الوضوح حتى للقارىء العادي :

الطفل مد ذراعه واهتز في العين الشجر
نادى وولى مسرعاً يجري ،
يجر ثيابه تحت المطر .. (٢)

أهي « لحظة التنوير » ؟ أهي الرؤية الممزوجة بالرعب عند الشاعر ؟ لننتقل

---

(١) المصدر السابق ص ١٠

(٢) « « ص ١٥

إذن إلى قصائد « من دفتر الصمت » فلعلها تكشف لنا شيئاً التبس علينا فلم نفهمه جيداً من خلال « الدوامة » .

لو جئت في عباءة الهزيمة

فأفسحوا طريقي

ففي جيوبها دفاترُ الجريمة

وبومةُ الكبريت والحريقِ (١)

هل يتناسب « الوزن » هنا مع الموضوع ، موضوع دفقة الاحساس بالرعب ، وبالجريمة ، بالهزيمة التي تطارد الشاعر من الداخل ؟ تتناثر هنـــا وهناك لطخات سوداء تعفر وجه الشاعر ، تميع الرؤية أمامه ، يتضبب في عينيه الكون ، وينداح أمامه الشؤم . لم ؟

ربما لأن الشاعر يمنح الريح قلبـــه الحزين « فتغتاله الاغنيات الحبالى » وهكذا تسود الدنيا في عينيه ، يموت ضياء الشمس في قلبه ، بل « يسود في القلب ضوء الشموس » :

هل لانه يحمل الصليب ؟ الانه يدرك تفاهة الآخرين فتتعمق الهوة التي تفصله عن عالمهم ، وبالتالي ينفصل – ذاتيا – عن عالم يدرك تفاهته وسخفه ولا جدواه ؟

ربما كان هذا هو منطق فلسفة اللا انتماء :

أحب الهواء الذي يغسل البحر ، لكنني

لا أحب الجسور (٢)

لماذا ؟ الأن الجسور توصله الى الآخرين ؟ ام لأنها توصله الى معرفة او ادراك ما يفكر فيه الآخرون ؟ هذا العالم الذاتيالمغلق مدان ، في فترة عمر الرؤى عند شعرائنا الشباب . لماذا اللجوء الى الاعمـــاق ؟ المبرر الاوحد هو عقم محاولات الانسجام مع ما يحيط بنا من عوالم . المنفى اذن حل . والحل هنا ، عند محمد عفيفي مطر ، حـــل لا نهائي ، حل لا ينسجم وتصور انسحاقه في عوالم الآخرين . فهو لا يستطيع الا أن يناديهم ، رغم بعده عن البحر ورفضه الكامل للجسور التي ستوصله بهم . يناديهم من المنفى المختار :

وناديتكم

---

(١) المصدر السابق ص ١٩

(٢) » » ص ٢٥

اسمعوني حديثاً عن الحب قبل الفرار [1]

هل « الحب » إذن هو ما يبحث عنه في عالم الصمت المحزن ، والمطاردة الابدية ؟ الحب عند الآخرين . ولكنه من جديد يدرك غباوة الآخرين فيفر الى عالمـــه الخاص ، عالم خلاصه . ولعل اروع ما يعبر فيه عن هذا الاحساس بالغربة عن الآخرين ومطاردة العالم التافه له قوله :

انا كنت - يا قاتلي - في اثينا
إلها صغيراً ،
على مفرقي الغار ، أمشي على بركة من دماء
وقد اخرستني الغباوات اذ تلبس الدرعَ ،
تمشي بظل السيوفْ .
وفي اعين الجند لا اعشق الصمت والموتَ [2]

ونمضي في عالمـــه ، نفهم ، او نحس ، ما يدور في الداخل من صراع . ما الذي يطارده ؟ أهي شارات « الفضائح والخيانة والجنون » ؟ أجل ، ربما كان هذا صحيحا . ولكن من اين يأتي الخلاص عند عفيفي مطر ؟ من الداخل ؟ هنا مشكلة لا تجد الحل ، فالعالم الخاص - المنفى - مملوء بالاوهام .. هو تراكم من ردود الافعال .. نتـــاج عن العلاقات الجدلية ، من الديالكتيك - تطوره من خلال الاحتكاك بعوالم الآخرين ، فكيف النجاة من المطارد ؟

أهي اسطورة سيزيف ، تلك التي تكبل شاعرنا ، او تلك التي يعيشها شاعرنا ؟ لا نستطيع الاجابة عن هذا السؤال قبل ان نفهم زوايا عالمه ، صغيرها وكبيرها ، على حد سواء . فالصمت ، مؤامرة ، مؤامرة يحيكها الآخرون ، سواء عن قصد منهم او عن غير قصد ، والصابر ، كالجمال ، سيفاجأ عندما يصل الواحة ، بالقحط المشرش في اعماق الصحراء الإنسانية ، تماما كمفاجأة أيوب :

في ليلة عرسك يا أيوب
ستزف وحيداً معصوب الرأس

---

(١) المصدر السابق ص ٢٧

(٢) « « ص ٢٨

وتفاجأ فوق سرير العرس
بالعتمة والصمت الثَّيِّب . [١]

الصمت مؤامرة تسلب الانسان المقدرة على فهم « الآخر » . والصمت مؤامرة لانه عملية قوامها : الدجل والزيف والمطاردة . واللجوء الى « العين » محاولة لتصيّد الكامة ، لالتقاط حبل النجاة . ولكن ان تكون الاعين خرساً،فهذه مؤامرة ما بعدها أخرى . انها انغلاق آخر باب أمام محاولة الكشف . وفجأة ينهمر الصوت من الخارج ولكن أي صوت ؟

مروعة الضفائر أنت في الغرفة
وخلف الباب صوتٌ صارخٌ بالجوع والرعب
« انا الكسول العريان
تركت دمي لما في الأرض من نُصُبِ
تطاردني العساكر والمصابيح الضبابية [٢]

اذن هي العساكر . ضجة السؤال تطحمها احذيةالعساكر ، وضجة سؤال الرؤيه تحيلها المصابيح الضبابية الى عتم .

في قصائد «أرض الموت» محاولة انفكاك منطوق الأمر الداخلي.انطلاقة الى عوالم الآخرين من خلال الطفولة ، والفتاة الأخرى ، ورؤية منظر الجريمة . تمثل عالم الغريق في دنيا المدينة المملوءة بالضجيج الصامت المتآمر . وهنا فقط تتبدى لنا عوالم جديدة . ذلك التشاؤم الذي نشر ظلاله على دنيا الشاعر بدأ ينقشع ببطء ، ولكن انقشاعه ليس نهائياً ، أي ليس حاسماً . فالمأساة جرح يضحك .. يفغرفاه دائماً ، وتنعكس الشمس على قطرات الدم الملتهبة ، الحارة ، الحية :

واركض في قرار النبع اقطف زهرة اللبن
فيسكرني عصير الشمس وهي تطير تحت سمائها البيضاء [٣]

---

(١) المصدر السابق ص ٣٦—٣٧
(٢) « « ص ٤٦—٤٧
(٣) « « ص ٧٣

هنا فقط لم ير في العالم ذلك السواد الدائم . هو عالم الآخرين اذن ؟ كيف انقلبت الآية عند محمد عفيفي مطر ؟ أهو الشعور بانحسار مد الهجمــة الشرسة ، اعني المطاردة الابدية الكامنة في الاعمـاق ؟ أم هو الفرار من اسر الطوق الذي وضع نفسه فيه راضياً مرضياً . لأنوقف هنا ، فقط . لأن تقليب الصفحات الباقيات « حوار مـع الصاعقة الخضراء » سيجرنا من جديد الى « بقايا مخلب الصمت » (ص ٧٧) . ومع ذلك فلا بد من القاء نظرة سريعة على خاتمة المطاف :

واسمع صوتك الفضي

يصلصل في عروق الأرض حتى يورق العالم ..

مزاجية عجيبة هي عوالم الشاعر هنـا . قفزة جريئة من عالم هو فيه مقهور ، محاصر ، يتآمر الجميع عليه بالصمت ، يطارده العساكر والحراس والزمن والآخرون ، اقول قفزة جريئة الى عالم سوف يجلجل فيه صوت الحقيقة ، يفضح المؤامرة ، يوقف المطاردة ، حتى يورق العـالم . حتى يسكر الشاعر عصير الشمس ، جدائل الضوء تكشف الغمة .

اترانا ، أخيراً ، نجحنا في ملاحقة عالمه الصغير الصغير ، حتى انفتاح الكوة على الشمس والهواء والدنيا الرحبة ؟

محمد عفيفي مطر ، في هذه المجموعة ، مزاجي جداً . هو يريدنا ان ندخل الى مجاهل اعماقه ، نضيع معه ، نركض ، حتى الاعياء ، نلهث خوفاً من اشباح تطاردنا ، تلطأ لنا هنا وهناك في الظلمة. الآخرون متفرجون ، أو مطاردون فقط ، صمت يلف كل شيء ، مؤامرة تحاك في الظلام ، حينما نصرخ يهاجمنا الحراس اثر اصوات يسمعونها :

« لصوص » !!

يجرنا في هذا العالم ثم ، فجأة ، نصل معه الى ركن هادىء معتم ، يتقدم ببطء يذبح اعصابنا ويدفع صخرة ، فاذ بنا في العـالم الرحب ، وهو أمامنا . ويدخل من جديد منفى واسعاً سعة الكون كله ، ويغلق باب المنفى الصغير الذي اختاره في البداية وحبسنا ، معه ، فيه .

أهي ادانة للذات الضائعة ؟ أم هي مجرد « مزاجية » فرضتها ظروف ذاتية في البدء بعيداً عن الآخرين ؟

ربما كان الأمر كذلك . وهذا لا يبرر ، بأيه حال ، انطلاقـة الشاعر في عوالمه الخاصة ردحاً طويلاً من الزمن .

الكلمة عند محمد عفيفي مطر ، معبرة غنية ، لولا تكرار الكثير من الكلمات مثل « غوغرة » و « صلصلة » و « النار » ..

ورغم ذلك فان مجموعة « من دفتر الصمت » هي ليست كل ما يملكه محمد عفيفي مطر ، بل ربما كانت هذه القصائد لا تمثله في مرحلة التطور الراهنة ، باعتبار أنها قديمة، ولها من البعد الزمني عن حاضره أربع او خمس سنوات كاملة !!

« ن . أ »

رندة [1]

شعر : ميخائيل أبو عقدة

عرض : ظافر عبد الواحد

رغم أن الكتاب مؤلف من عدد من القصائد العروضية وقطع من شعر التفعيلة» فانه ليس مجموعة شعرية بل قصة واحدة .

قصة شاب وتلميذة يتحابان :

يا رندتي أريد
أريد أن أحب دونما حدود [2]

وتطلب منه رندة أن يتظاهر بتدريسها :

دريد من مدرستي أجيء في المساء

---

(١) مطبعة الثبات - دمشق ١٩٦٩ .

(٢) دعوة حب ص ٢٢ - ٢٣ .

دريد في المسا لدارنا تعال

وعندنا علمني الانشاء والأدب [1]

ويقوم دريد بذلك :

وكنت في المساء كل يوم

أزور رندتي على عجل

كأنني زوبعة .. كأنني رياح

كأن لي ألفي جناح

علمتها الانشاء والحساب [2]

ثم يخطب رندة رجل غني ، ويقول لها أبوها :

يا رندتي ..

اتاك اغنى من ولد [3]

وترفضه رندة قائلة :

يا والدي العتيد

دعني هنا اظل [4]

غير أن أبوي رندة يجبرانها على الزواج منه ، اذ يقول ابوها :

هيا اذهبي من حضرتي [5]

وتقول لها أمها :

يا رندتي لا ترفضي لأنه كبير [6]

---

(١) جملتا غزل ص ٢٤ .

(٢) جملتا غزل ٢٥ — ٢٦ .

(٣) الزفاف ص ٤٩

(٤) الزفاف ص ٤٩ — ٥٠

(٥) الزفاف ص ٥٠

(٦) الزفاف ص ٥٠ — ٥١

ويهددها أبوها بالقتل اذا كانت تحب احداً :

يا زوجتي .. ان رندة كانت تحب

اذبحها ذبح النعاج (١)

وتنفي ام رندة ذلك :

لا .. رندة ليست تحب (٢)

أما دريد فيجبره اقرباؤه على الزواج :

اقنعوه بعد مدة

زوجوه بعد مدة (٣)

ولكن الحب يستمر بين رندة ودريد :

لا تقولي مواسم الحب ولت (٤)

ويتطور من حب عفيف :

ولقد اصبحت هياماً مشوقاً يتغزل (٥)

ال معاشرة ، اذ يقول في قصيدة (عراك) :

راح كفي من جديد

يحرق النهدين حرقا (٦)

ويبدو أن هذا (العراك) كان تمهيدياً ، اذ أن الشاعر يجعل عنوان الصفحة ١٢٨ (عراك آخر) ، ولا يجرؤ على وصف هذا العراك بل الصفحة بيضاء الا من خطوط تدل على مقطعين يتألف كل منهما من خمسة ابيات وفي كل بيت عدد من الكلمات ، وقد يدل هذا على تجاوز العلاقة بين رندة ودريد حدود العفة .

( ) الزفاف ص ٥١ - ٢ ،

(٢) الزفاف ص ٥٢

(٣) زفاف آخر ص ٥٩ – ٦٠

(٤) مواسم الحب ص ٦٥

(٥) اناشيد الغرام ص ٦٦

(٦) عراك ص ١٢٥ – ١٢٧

ويحاول دريد عبثاً الطلاق من زوجته :

صار عيشي لا يطاق (١)

وتهرب رندة ودريد الى جزيرة :

ومضينا شاردين

نعبر البحر ونجري لجزيرة (٢)

ويعمل دريد في الصحافة :

رحت اعمل

في الصحافة (٣)

وتمارس رندة الفن :

رندتي صارت تغني وتمثل (٣)

واخيراً تقرر رندة العودة الى أسرتها اذ تقول :

يا جنون الحب دعـــني   أين اطفالي الصغـــار (٤)

وكذلك دريد الذي يقول :

يا حنيني لصغـــاري   صرت همـــي المستديم (٤)

أما دريد فينكره اولاده اذ يقول الاوسط :

اماه من ترى يكون ؟ (٥)

ويقول ابنه الكبير لأمه ، اذ يحسبه لصاً :

خذي مسدساً ابي اشتراه

واطلقي عليه (٦)

---

(١) لا طلاق ص ١٣٠ – ١٣٢

(٢) الى الجزيرة ص ١٤٠

(٣) نجمة الصبح ص ١٤٨

(٤) حنين ص ١٠٣

(٥) العودة ص ١٥٤

(٦) العودة ص ١٥٥

اما رندة فيجلدها زوجها :

يضربها بسوطه (١)

فتنتحر رندة .

لكنني يا رندتي

وعدت قبلاً بالرثاء (٢)

وينتحر دريد :

ذبحت نفسي مثلما الجزار يذبح النعاج (٣)

فهذه القصة الشعرية – إن صح التعبير – فيها شيء من مأساوية مسرحية روميو وجولييت ، إذا اعتبرنا زواج كل من رندة ودريد من غير عشيقه زواجاً صورياً . وزواج رندة أشبه بزواج بثينة ، سوى أن العلاقة بين جميل وبثينة ظلت عفيفه .

أما البحور والتفعيلات التي اختارها الشاعر ، فهي تناسب الرواية ، سوى أنها تقصر أحياناً وتتخذ إيقاعاً هزجاً يناسب الأطفال ، فرغم أن قوله في قصيدة غانية :

ونهـــدهـــا ناظره هول الوغى لن يرهبه

مغرق في الغزل الذي يرضي المراهقـــين ، فانه يذكرني بالمحفوظات التي كنا نستظهرها ، أي الأشعار التي كنا نحفظها عن ظهر قلب في الصفوف الأولى من الدراسة الابتدائية مثل :

أنت الكرة كالسكرة

وهو يلجأ الى الضرورة الشعرية ، كقوله في قصيدة (الزفاف) :

ويملأ البيت ذهب

يملؤه حرير

أو قوله في قصيدة (لا طلاق) :

عيشها صار احتراق

وهناك بعض الأبيات المكسورة ، وربما عاد ذلك الى الأخطاء المطبعية .

---

(١) العودة ص ١٥٧

(٢) لا رثاء ص ١٦٧ – ١٦٨

(٣) انتحار آخر ص ١٧١ – ١٧٤

ذكرى الفنان البلجيكي بروغل

خصصت بلجيكا سنة ١٩٦٩ لاحياء ذكرى الفنان الفلمنكي (بيير بروغل Pierre Bruegel) فمن هو بروغل ؟

لقد اختلف المؤرخون في سنة ولادته بين ١٥٢٥ — ١٥٣٠ ، أما وفاته فكانت في أيلول (سبتمبر) ١٥٦٩ ، ففي هذا العام يكون قد مر على وفاته ٤٠٠ سنة . وقد تتلمذ على يد الفنان الفلمنكي (بيير كوك) ، الذي تأثر بعصر النهضة . وتزوج بروغل ابنة كوك (ماري) ، وأنجب منها ثلاثة أولاد ، بنت ورسامين أباً عن جد : بيير بروغل الأصغر الذي دعي (بروغل الجحيم) وجان بروغل الأكبر الذى دعي (بروغل المخمل) .

وقد نسجت حول بروغل الأب الأساطير ، والمعروف أنه كان يحب الاندماج في حياة الفلاحين ، حتى دعي (بروغل الفلاحين) لتأثر فنه بهم . ورغم تأثره بكوك وبالفنانين الايطاليين فقد كانت له أصالته ، وكان له أثره في فن الرسم في القرن السادس عشر في بلجيكا وهولاندة .

اختتم (فان زيب) السيرة التي نشرها عن حياة (بروغل الفلاحين) سنة ١٩٢٦ بقوله : « كان بروغل يرى العالم برمته في المناظر الريفية ، وكان يكتشف في الفلاحين هذه الغرائز ذات الطبيعة الأزلية » .

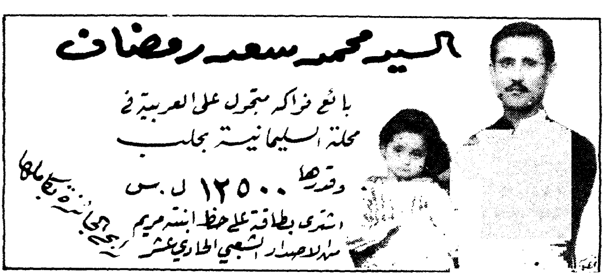
فلم يكن عجيباً أن تنبع فكرة تخليد ذكراه من (الريف الغربي Pajottenland) وهكذا بدأت (رابطة الريف الغربي الثقافية والاجتماعية Association Culturelle et Sociale du Pajottenland) منذ عام ١٩٦٢ برئاسة (غنس) الخبير ببروغل ، بالاعداد للاحتفال . واستجاب لنداء الرابطة بعض فناني المنطقة لنسخ أشهر اللوحات التي خلفها بروغل بنفس المقاييس والألوان ونسخت عشرون لوحة أشهرها (الأمثال) التي قضى أحد الفنانين في رسمها عاماً كاملاً . وتقوم لجنة الاحياء بترميم البيت الذي سكنه بروغل في بروكسل ، وسيعيش زواره في جو القرن السادس عشر ، ويقام فيه اعتباراً من هذا العام معرضان : معرض للوحات رسمت عوضاً عن لوحاته المفقودة ، ومعرض للوحات معاصريه .

وأقيم معرض متنقل للوحات العشرين التي نسخها الفنانون عن لوحاته المحفوظة في متاحف فيينا ونيويورك ونابولي وبراغ وميونيخ وباريس وكوبنهاغن وبرلين وبال وفيلادلفيا وواشنطن ودارمستاد ، ومع هذه اللوحات حوالي خمس وخمسين لوحة رسمها بروغل بالماء القوي ، مما يجعل هذا المعرض يعطي فكرة عامة عن فنه وصورة عن عصره .

يانصيب معرض

١٠٠٠٠٠
٦٠٠٠٠
٢٥٠٠٠
٢٥٠٠٠

تؤمن لك ولأسرتك السعادة



يجري سحب الاصدار العادي السابع بتاريخ ٥ آب ١٩٦٩

الفهرس

المعرفة

غاندي
في ذكراه المئوية



مجلة ثقافية شهرية

تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩

العدد ٩٣

المعرفة

مجلة ثقافية شهرية

تصدرها وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي

رئيس التحرير

العدد ٩٣ - تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩

اديب اللجمي



● **المراسلات باسم رئاسة التحرير**

جادة الروضة – دمشق

الجمهورية العربية السورية

● **الاشتراك السنوي :**

– في الجمهورية العربية السورية : ١٢ ليرة سورية

– خارج الجمهورية العربية السورية : ما يعادل ١٢ ليرة سورية مضافاً اليها أجر البريد (العادي او الجوي) حسب رغبة المشترك .

● **يرسل الاشتراك حوالة بريدية او شيكاً او يدفع نقداً الى :**

محاسب مجلة المعرفة – جادة الروضة – دمشق

● **يتلقى المشترك كل سنة كتاباً هدية من منشورات وزارة الثقافة والسياحة والارشاد القومي**

ثمن العدد :

١٠٠ قرش سوري	١٠ قروش صاغ
١٠٠ قرش لبناني	١٢ قرشاً سودانياً
١٠٠ فلس أردني	١٥ قرشاً ليبياً
١٢٠ فلس عراقي	٢ ريال سعودي
٢٠٠ فلس كويتي	٢ دينار جزائري
٢,٥ روبية	٢ درهم مغربي



تحتفل الهند ، ومعها شعوب العالم ، ومختلف المنظمات الدولية ، بالذكرى المئوية لواحد من كبار زعماء التحرر والسلام ومحبة الانسانية : المهاتما غاندي .

ويسرّ « المعرفة » أن تشارك في هذه الذكرى العظيمة ، وأن تقدم لقرائها طائفة من البحوث والدراسات التي أعدها لها كتاب عرب وهنود عن صور من شخصية غاندي الكبيرة .

بعض عظمة غاندي

د. عادل العوا

من بلد السحر والاسطورة والخيال . بلد الفن والحب والجمال، بلد الألف لون من ألوان العشق والهيام، بلد (المهابهاراتا) و (النيرافانا) و (تاج محل) ، بـــلد الحساب والطب والفلك والأدب والتوابل والعطور ، بلد (براهما) و (جوتاما بوذا) ، والجينية والاسلام والمسيحية ، وحتى اليهودية والمجوسية وسائر الملل والأهواء والنحل ، بلد منطقه فلسفة ، وفلسفته حياة ، وحيانه عذوبة، وعذوبته رأفة بوحدة الكائنات في الأرض وفي السماء ، وحدة الوجود .

من بلد الشعر (الفيدي) والصلاةالتي يرددها الهندوس يومأبعد يوم خلال أربعة آلاف عام ليستدروا القوة العقلية العليا ويعرفوا الطريق ، طريق الخلاص ، من بلد (اليوغا) التي هي حرية وخلود ، نظر وممـــارسة ، وبعضها عشق فعلي واتصال رمزي بالمطلق ، مطلق الجنس ، الجمـال والحقيقة والصلاح ، آلهة الهند الأولى ، شعارها في (ريك فيدا) « النصر للحق وحده » وبالحق تعمر الأرض ، وينتظم وجود البشر على أفضل وجه في قلب اللاوجود .

من بلد التـــدين العميق ، والفكر العريق العريق ، بلد اللاعنف الذي عرفته الهند والديانة الجينية قبل نيف وألفي عام ، وهي تدعو الى واجب احترام الحياة كل حياة ، حتى حياة النبات والحيوان والطيور ، وعدم إلحاق الاذى بأي كائن ، لأن الوجود بجوهره واحد ، ولا يفـــترق كائن عن آخر إلا بالاشتهاء والفردية ، وكلاهما عائق في معراج الغبطة والخلود .

من بلد الاسس الحضارية الأولى ، وبلد النضال والمقاومة السلبية والنصر والاستقـــلال ، من البلد الذي حل تناقضاته الكبرى بنمط أصيل من أنماط الاشتراكية ، نمط يؤلف بين أقدم التقاليد وأحدث المبتكرات في عصر الذرة للقضاء على التخلف والمجاعة والإقطاع ، والسعي الى عمارة الأرض وإقامة السدود العظيمة ، والخزانات الكبيرة ، وتوليد الكهرباء ، وصناعة السيارات والقاطرات والسفن والطائرات .

من هذا البلد العجيب ، من عالم الهند الحي الخالد ، يفوح في ختام هـذه السنة الدولية على درب التفاهم الانساني المنشود ، يفوح شذا ذكرى عظيمة لمولد إنسان عظيم ، ذكرى المـائة الأولى لمولد (موهانداس كرماشاند غاندي) ، الملقب بالرغم منه بالمهاتما او الروح العظيم .

وصفه صديقه (رومان رولان) بأنه : « نصف إله زائل سيقود انسانيـــة جديدة الى طريق جديدة » ، وقال أنشتاين : « سوف يتعذر على العالم بعد الفعام ان يصدق ان مثل هذا الرجل كان يمشي بين الناس يوماً ما» . ولعل هذين الرأيين يعبران عما اعتاده الناس من تأليه العظماء ، فعل (الحواريين) بالسيد (المسيح) . ولكن (غاندي) نفسه كان يعارض بشدة لقب (المهاتما) ذاته ، وقد أطلقه عليه مواطنوه ، ثم أقره الأوفياء من البشر كافة ، ومنحه المانحون فوق ذلك ألقاباً رائعة لايطالها الحصر . انه اكبر زعيم سياسي أنجبته الهند في العصر الحديث ، انه المصلح الاجتماعي ، والانسان الكبير ، والمواطن العالمي ، وبطل السلام ، وممثل روح الشرق العظيم . وقد أسماه (شوقي) بطل الهند ، العلم الفرد ، فهو نبي مثل (كونفوشيوس) .

قريب القول والفعل ، من المنتظر المهدي
شبيه الرسل في الذود عن الحق وفي الزهـــد
لقـــد علم بالحق وبالصبر وبالقصد
ونادى المشرق الأقصى فلباه من اللحد
وجاء الأنفس المرضى ، فداواها من الحقد
دعا الهندوس والاسلام للالفة والود
بسحر من قوى الروح حوى السيفين في غمد

ولو عرفه صاحبنا (البيروني) لأعجب بحكمته وجعلها مثلاً على المعقول المقبول ، اما (ابن عربي) المتصوف المسلم الذي ارتوى من رحيق الهند، وشرب كأس وحدة الوجود ، وأغرق في شطحاته الملحمية فانه لو عرفه لاعتبره تجلياً من تجليات الله ، ووجهاً من وجوه الحياة الأزلية الأبدية ، ولمزجه بنفسه وبالله، وقال عنه : انه قطب الزمان .

لكل زمان واحد هو عينـــه وأني ذاك الشخص في العصر أوحد

* * *

هذا غيض من فيض الألقاب العظيمة التي أطلقت على هذا الانسان العظيم ، وهي كلها ، من وجهات نظرها ، على حق جملة وتفاريق . ولكن قائمة الألقاب التي يسبغها الناس على عظمائهم قائمة متحولة ومفتوحة تتبدل بتبدل معطيات الثقافة في كل حين . فلندع ذلك إذن المؤرخين . ولننظر في لباب العظمة ذاتها، ولنسأل كيف يستحق هذا الانسان الفذ لقب عظيم في الناس ؟

تحدث الفيلسوف العلامة (كارل يسبرز) عن العظمة بوجه عام ، وقال : ان الناس في جميع الأزمان ينظرون الى بعض الرجال على انهم ، بسائق عظمتهم ، أشبه بكائنات اسطورية، ونماذج. وإن من شأن العظمة انها تتجلى في بطولة المحارب، وقوة المشرع ، ونجوع الخطط والمبتكرات ، وكشوف الشعر والفن ، وفي استنارة الذهن . وقد كان ذلك كله يؤلف في البدء شيئاً واحداً . ولذا نجد في العظمة أصل الارتباط بالعمق الالهي ، وبالقرار الأخلاقي ، وبفحوى النظرة الكونية ، وجلاء المعرفة . وان الرجل العظيم هو أشبه بانعكاس الكون بأسره ، وهو مايمكن تأويله تأويلاً لانهائياً . انه مرآة الكون أو ممثله ، وهو لايضيع في الجوانب السطحية ، وإنما يظهر في العالم ظهور شهاب خاطف، إما على هيأة لمعان انجاز جميل ، أو اخفاق مأساوي ، أو سكون كسكون اللغز وسط الحركة الدائبة التي تضطرم بها أعماق حياته ، فيغدو على هذا النحو تعبير المتعال .

إلا ان الكلام على فلسفة العظمة كلام يطول . وحسبنا في هذه الالماعة ان نقول : ان هذا التعريف للعظمة يصح أكثر مايصح على (المهاتما) العظيم. ان من أمارات العظمة الحقة انها ، مرآة الكون ، وانها مايمكن تأويله تأويلا

لا نهائياً . أليس (غـاندى) مرآة الكون في عصره ، وفي العصوراللاحقة ، وان من الممكن ان نجد في تأويل عظمته لانهاية التأويل ؟

لقد حسب (يسبرز) على جلال قدره ، ان العظماء كلهم فلاسفة، وان الفلاسفة العظام الذين حققوا أقصى مايستطيع انسان ان يحققه أربعة أشخاصهم : (سقراط) و (بوذا) و (كونفوشيوس) و (يسوع) . ولكننا نرفض هذا التحديد ، وننكر إغلاق باب العظمة حتى في ميدان الفلسفة بالاقتصار على من جاء من الفلاسفة الغابرين والمعاصرين . ولا يخـامرنا ريب في ان (الروح العظيم) فيلسوف شرقي أيضاً من طراز (سقراط) و (يسوع) أو (بوذا) و (كونفوشيوس) وقد أنجب الشرق الأدنى والأقصى هؤلاء جميعاً .

لقد كان (غاندي) ، بوجه من اوجه الاعتبار ، فيلسوفاً معقداً حارت في تأويل حقيقته الالباب . ولد في اسرة طيبة وعاش مناضلا ، ومتقشفا ، وظل مثل (سقراط) يحيا فلسفته ويمارس افكاره ، وطفق مثـل (يسوع) يبشر الجماهير ويعلم المستضعفين ، ويأسو جراح المنبوذين في الهند ، ويدعوهم (احباب الله) ، كما دعا (يسوع) اتباعه (ابناء الله) . كانت حكمته مزيج (البوذية) في الرحمة والارهـاف و (الكونفوشيوسية) بالتخلق والتسامي ، وكان الى جانب ذلك مؤدباً وسياسياً مثل (افلاطون) و (تولستوي) واضرابهما ممـا لن ندخل في تفاصيل ايضاحه الآن . لقد اخفق (افلاطون) في مسعاه السياسي حين اراد اصلاح الحكام الطغاة ، وكاد ان يقتل مرتين . ونجح (غاندي) في مسعاه السياسي فقارع الاستعمار وعملاء الاستعمار كما نقول بلغة اليوم ، وكان عماد نجاحه اعتماده على الشعب المحب المريد ، ولكنه قتل بيد خارجي على ارادة الجمهور ، وقتله هو المأساة التي تقربه ايضاً من (سقراط) ومن (السيدالمسيح) ، وقديماً كان

القتل ظلماً ووحشية لأنه يبتر امكانات القتيل ، ويقطع صلاته بالناس ويقصم دارة الحضارة بمنع الحوار .

لم يكن (غاندي) ، لحظة واحدة ، باحثا نظرياً بعيداً عن الحياة ، وانما كان دائماً الانسان المرهف الروح الذي يحس بكرامة الانسان في كل مكان ويسعى عن طريق الكفاح الصامد الصامت الى استغلال الالم ، الم مواطنيه ، ليقلبه باللاعنف نصراً : « انني اتوقع ان اهزمكم بآلامي » . لقد آمن بسمو الحقيقة وبسمو الروح . واوجب على اتباعه ألا يمارسوا أي خداع حتى لو كان مرده خير البلاد ، فالحقيقة تفرض نفسها على كل كبير وصغير ، كما اوجب عليهم عدم ايذاء من يعتبرونهم ظالمين ، وفرض على المعلمين ميثاق الحقيقة وميثاق عدم القتل وميثاق العفة الجنسية ، وميثاق عدم الخوف . كانت امه تحذره اذا لمس المنبوذين في المدرسة بأنه لن ينجو من رجس لمسه اياهم إلا بلمس أحد المسلمين . ولكنه تجاوز هذا الاحتقار الظالم ودعا الى احترام الكرامة الانسانية لدى كل انسان .

لقد كان يعلم جماعات المصلين ، ويؤثر في الجماهير الهندية بالقول وبالقدوة ، القول الصادق ، والقدوة الصادقة ، على قدر سواء . ولكن شخصيته المعقدة اثارت بالطبع وساوس المنطقيين والجدليين ، فوجد بعضهم أنه بآن واحد يبدو نقياً وماكراً ، سياسياً وقديساً ، قروياً مخاتلا ، وفيلسوفاً ملهما ، وقد اسماه (نهرو) الساحر ، واشتهر بأنه نبي اللاعنف ، وسلاحه صومه . والحق ان الديانة الجينية التي كان ينتمي اليها ترى ان الانتحار بالصوم حق المؤمنين . وكان يلجأ الى الصوم كلما عجزت وسائل التأثير الاخرى عن حمل مواطنيه وحمل اعدائه على الاستجابة لرسالته . وكان هو يؤدب اقرانه ليسمو بهم ، ويزعزع في الوقت نفسه اركان الامبراطورية العجوز بهذا الصوم العقائدي الحاسم . ولعله كان يأمل أن

يوقظ لدى خصومه عنصراً انسانياً غافياً او غير منظور ، وقد صرح اكثر من باحث غربي بأن قوته ، اللاعنف ، كانت اقوى من قوة السلاح .

* * *

اعترف بأنني مازلت اتهيب الكلام على عظمة هذا الانسان العظيم . وكم وددت لو كنت اخصائياً بدراسته ، وانا واثق من انني سأزداد رهبة من جهلي كلما ازددت تعمقاً في المعرفة ورسوخاً في العلم . وما استطيع ان اعرب عنه في جميع الاحوال هو ايماني بهذه العظمة الرائعة ، وكيف لا يكون (المهاتما) عظيماً ، بعد أن قال وحقق ما قال : « على طالب الحق ان يكون اكثر تواضعاً من التراب ، فالناس قد يسحقون التراب باقدامهم ، ولكن طالب الحق يتواضع حتى يسحقه التراب . وفي هذه الحالة وحدها يستطيع ان يرى قبساً من نور الحق » .

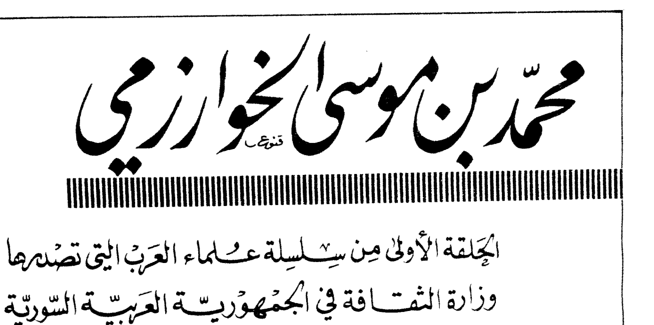
ثم أليس (المهاتما) عظيما وقد قال وحقق ما قال : « لا اريد أن تكتنف الاسوار بيتي من كل جانب فتحجب عنه الهواء والنور ، بل اريد ان تهب ريح الثقافات عليه من كل بلاد الارض ، فلا يعوقها عائق ما أمكن . لكنني ارفض ان تطيح بي ريح منها ، او أن اعيش في بيوت غيري متطفلاً أو سائلا أو عبداً » .

وأخيراً ، أليس (المهاتما) عظيما ، وقد حقق معجزة اللاعنف فكان من جديد رسول السلام المشرف ، وخصم الجبن والاستسلام وقد قال : « ان عقيدتي في عدم العنف هي انها قوة ايجابية الى اقصى حد ، وليس فيها مكان للجبناء او للضعفاء . ومازال هناك أمل في ان يصبح الرجل العنيف يوماً ما مبرأ من العنف . اما الجبان فلا أمل له على الاطلاق . فاذا لم نعرف كيف نذود عن أنفسنا وعن نسائنا وعن بيوت عبادتنا بالقدرة على احتمال العذاب ، اي بعدم العنف ، فعلينا على الاقل اذا كنا رجالا ان نكون قادرين على الذود عن هؤلاء جميعاً : بالقتال » .

آمن (غاندي) بالمعلمين ، وآمن بالجمهور حين يصبح شعباً ، وآمن بالانفتاح الاصيل على جميع الثقافات ، آمن بالانسان ودعا كل مسؤول الى عدم

الاعتماد على القوة ، بل على الهيبة والجاه المستمد من الاخلاص وضرب المثل بالعفة والنزاهة وان امرءا مثله ، آمن بما آمن به ، لإنسان عظيم يدعو الى خير عظيم . فما المدنية إلا محبة الانسان ، وتعاون حر بين الناس .

أطلق (ونستون تشرشل) ، ولعله كان مداعباً او متفكهاً ، اسم « الفقير العاري » على عملاقنا الضخم المتدثر برداء المجد والخلود . ولست ادري ايهما ابقى ذكراً على مر الايام : السياسي الماهر البدين الذي كسب مع حلفائه حرباً عالمية كبرى ، ام الزاهد المفكر الصابر النحيل ، رجل الشرق الذي فاز بسر الحب ، وعاد بالكلمة الانسانية العليا ؟



غاندي في الأدب العربي

د . عمر الدقاق

حين يتغلب المرء على فرديته ، وينكر ذاته ، ويقهر أنانيته ، وحين ينذر نفسه ، ويرخص روحه ، ويحتسب حياته في سبيل عقيدة يؤمن بها ومثل يعتنقها ، اذ ذاك يتسم بالسمة الانسانية . ذاك ما كانه غاندي . هو ذا انسان ، انسان لم يكن ينتمي الى الهند وحدها ، ولكنه تجسيد حي لما يضطرب في نفوس البشرية المعذبة من نزوع الى التحرر والكرامة والسلام .

لقد بلغ من انسانية هذا الرجل أنه كان يبدو للكثيرين من طبيعة متميزة ، وأنه يختلف عن سائر الناس ، وكأنه واحد من انبياء التوراة . وقد أشار انشتاين الى أن الأجيال القادمة قد تجد من الصعب عليها أن تصدق أن رجلا كهذا كان انسانا من لحم ودم ، يسعى على الأرض . على أن غاندي في بساطته المتناهية لم يتعد أن يكون رجلا ، كما نعتته أنديرا غاندي حين قالت عنه :

« في رأيي أن غاندي لم يكن مجموعة من الآراء والتعاليم الجافة بل رجلا يشع حياة ، رجلا يحرص على أن يذكرنا بأرفع المستويات التي يستطيع الانسان أن يبلغها ».

هذا الرجل الذي كان الانسانية كلها في أصالته وسلوكه وفي نضاله الفذ المتفرد كان في الوقت نفسه لشعبه ووطنه ، كان للهندوس والمسلمين ، كما كان للصعاليك والمنبوذين ، وكان أخيرا للشرق البائس وشعوبه المتلهفة على الحرية .

غاندي الذي ملأ الدنيا وشغل الناس طوال النصف الأول من قرننا العشرين كان له حيز كبير في ملحمة الكفاح العربي ، كما كان للعرب في تفكيره منزلة عالية . وقد لانرى في الأمر بدعاً اذا ما اوغلنا في حنايا الماضي واجتلينا في معالم التاريخ . فغاندي لم يكن الا حصيلة تفاعل عريق بين الهنود والعرب تعانقت خلاله حضاراتها كأحسن مايكون التعانق الحضارى بين الشعوب على الصعيد الانساني الرفيع .

ولعل الاسلام هو النافذة الواسعة التي أطل منها الشعب الهندي على رسالة العرب . ومع أن الوجود العربي الاسلامي قديم في الهند قدم الاسلام نفسه فان العصر الاسلامي في الهند كما يقول غوستاف لوبون : «يبدأ في القرن الحادي عشر وينتهي من الناحية السياسية في القرن الثامن عشر للميلاد . وهذا العصر عرف احسن مما عرف أي عصر جاء قبله بفضل مؤرخي المسلمين » (١) .

---

(١) حضارات الهند ، تعريب عادل زعيتر ٤١٦

ويحرص لوبون على توكيد الذات العربية في الحضارة الهندية باعتبارها رافدا كبيرا لتراث الهند ومدنيتها . وفي ذلك يقول : « ان تاريخ الحضارة الاسلامية في الهند انما هو بعث لتاريخ حضارة العرب . فسلمو الهند لم يدخلوا الى الهند بالحقيقة سوى حضارة العرب بعد أن تحولت بعض التحول في بلاد فارس ، بفعل الأزمنة والأمكنة . والمسلمون حين أدخلوا حضارة العرب الى الهند أدخلوا معها رغبة كبيرة في العلوم والآداب والفنون .. وطراز البناء الذي أتى به المغول الى الهند هو كديانتهم من أصل عربي كان قد تحول اليها حين مروره من بلاد فارس » .

واذا مارحنا نلتمس هذا التفاعل الفكري والتمازج الحضاري بين العرب والهنود تجلى لنا بصورته الزاهية في غاندي ، في تعاليمه وفي سلوكه ، وفي اقواله . ومن هذا القبيل ماذكره في خلال مراحل نضاله الشاق الصابر في جنوب افريقيا في مستهل حياته اذ قال [1] : « كان اتصالي ببعض الكلمات والعبارات العربية بادىء الأمر عن طريق الكلمات العربية المبثوثة في هذة اللغة الأوردية من خلال اتصالي السابق بأصدقائي المسلمين . » أما اصدقاؤه المسلمون فما كان اكثرهم ، وكان منهم رفاق الكفاح في افريقية وفي الهند على حد سواء . فالشيخ داود محمد من ابرز رجالات الجالية الهندية في جنوب افريقية وقد عانى السجن وحظي باجلال غاندي حتى خصه بفصل من كتاب « قصة اللاعنف » عدد فيه مناقب كفاحه . كما خص بفصل آخر المجاهد الهندي احمد محمد كاتشاليا وقال عنه [2] : « انا لم أعرف قط عمري كله ، سواء في جنوب افريقية او في الهند رجلا يفوق احمد محمد كاتشاليا شجاعة وثباتا . لقد ضحى بكل مايملك من اجل الجالية . انه مسلم حنيف ، كان ينظر الى الهندوس والمسلمين كمن لايفرق بين عينه اليمنى وعينه اليسرى » .

---

(١) قصة اللاعنف في جنوب افريقية . تعريب منير البعلبكي

(٢) قصة اللاعنف في جنوب افريقية : ١٨

وقد دأب غاندي على ابراز الدور الطليعي لرفاق الكفاح من المسلمين كالإمام عبد القادر باوزير وشوكت علي واحمد بهايات ويوسف اسماعيل ميان وأبي الكلام آزاد ، فضلا عن المناضل الأفغاني عبد الغفار خان الذي لقبه الهنود بغاندي الحدود . أما ملازمة زعيمي المسلمين محمد علي جناح وشقيقه الأكبر لغاندي فكانت صفحة ناصعة تسجل ذروة مابلغته وحدة الهندوس والمسلمين ، وفي منزل (محمد علي)ـصديق غاندي ـ آثر المهاتما ان يقوم بالتجربة القاسية ، يؤويه المسلمون ويعنى به اطباء مسلمون ، وقد قدم له المسلمون آخر طعام قبل الصوم وأول طعام قبل انقضائه وفقا لطقوس الديانة الهندوسية [1] . وفي مقابل ذلك يصور لنا غاندي جانبا آخر من هذه الحياة المثلى التي كانت تتجلى في التحام شطري الهند المسلم والهندوسي والتي كان المهاتما يتحرق تطلعا الى دوامها ، فيقول :

« عندما كان يهل شهر رمضان كنا نستشعر ان من واجبنا ان نشجع رفاقنا من الفتية المسلمين على الصوم . بل كنا نطهو لهم الطعام . ومشاركة لاخواننا المسلمين لم يكن اكثرنا يتناول غير وجبة واحدة في المساء» (٢) .

وقد ذكر فنسنت شيان احد كتاب سيرة غاندي : « أنغاندي كان طوال حياته ، غريزة وفطرة وتعمدا ، صديقا للمسلمين » وقد قال مرة في جنوب افريقية قبل عودته الى الهند بزمن طويل :انالاختبار النهائي لـ (ساتيا غراها)ـ اللاعنف ــ سيكون من اجل الوحدة الهندوسية ــ الاسلامية » .(٣)

وكان غاندي شديد الاهتمام بمسألة الخلافة الاسلامية التي شغلت العرب والمسلمين حقبة من الزمان في اعقاب الحرب العالمية الأولى ، وكانت في الوقت

---

(١) المهاتما غاندي ، فنسنت شيان ٣٥٠

(٢) قصة اللاعنف ٣٨٣ .

(٣) المهاتما غاندى ، تعريب محمد عبد الهادي ٢١٩ .

نفسه معقد محادثات بين الهندوس والمسلمين . حتى أن غاندي نفسه توجه الى دلهي عام ١٩١٩ لحضور المؤتمر الاسلامي الذي دعي رسميا الى حضوره . فقد بدت آنذاك رغبة المسلمين شديدة في الحصول على تأييد غاندي وسائر الهندوس.

وفي إثر اعلان (الساتيا غراها) أي اللاعنف أمست اجتماعات الهنود في الترانسفال بجنوب افريقية حاشدة الى حد بعيد وكان أكبر اجتماع حاشد في إثر ذلك قد عقد بزعامة غاندي في صحن مسجد بريتوريا (١) .

وكان للقرآن العربي احترام لا حد له من قبل غاندي ، يتضح ذلك من قوله عندما كان في جنوب افريقية : « في مزرعة تولستوي كنت حريصاً على ان يتلو المسلمون القرآن : . (٢)

وقد تجلى اجلال غاندي للقرآن كتاب العرب ولمحمد نبي العرب في مناسبات قومية عديدة وبخاصة عندما كانت الفتن الطائفية تشب في الهند حتى لا تكاد تبقي ولا تذر ، فقد خطب في جموع المتخاصمين بتفاؤل وثقة : « اني اقول لكم ان النور قد سطع ولسوف يهدينا الى الطريق المستقيم. ان الرسل يعيشون ويموتون ولكن رسالاتهم كثيراً ما تثمر بعد قرون عديدة . أجل فكم كان عدد اتباع بوذا حين مات ، وكم كان اتباع محمد ..؟ لقد عاشت تعاليمها بعد موتها ، لأن عقيدتها تقوم على الحق الأبدي » . (٣)

وبدافع من اصالة فكر غاندي وانسانيته كان لا يفتأ يجهر بتقديره لرسالة العرب التي تجلت في الاسلام، واجداً في ذلك خير رافد لتعاليمه وحافز لثباته، يقول: « تذكر ان رسول الله هاجر من مكة الى المدينة ، ومعه صديقه ابو بكر . وقد تعقبها

---

(١) قصة اللاعنف ١٨٢ .

(٢) المصدر السابق .

(٣) المهاتما غاندي الثائر ٥٤ .

نفر من الأعداء . وخاف ابو بكر لما قد يحدث لهما . فقال لرسول الله : انظر هذا العدد الكبير من أعدائنا الذين لحقوا بنا فماذا نفعل لو أنهم رأونا ؟ فأجابه رسول الله بقوله : ما بالك باثنين ، الله ثالثهما ؟ » (١) .

وأغلب الظن أن غاندي كان شديد اللهفة على لقاء العرب من كثب بعد أن عرف الكثير عنهم وعن حضارتهم وتراثهم وتاريخهم ودينهم في بلاده ومن خلال مؤثرات كثير من المسلمين الهنود . وعندما عنت له الفرصة في عام ١٩٣١ وهو متوجه الى اوربا لبحث قضيـة بلده نزل في شاطىء اليمن وخاطب مستقبليه من جماهير عدن الذين كانوا يرزحون هم والهنود تحت نير عدو غاشم واحـد ، وكان مما قاله لهم : « ان هذه الجزيرة العظيمة جزيرة العرب التي ولد فيها محمد ، وبعث فيها الاسلام ، مثل حي على التسامح الديني وعلى انسانية الانسان » .

ومثل هذا التلازم بين العروبة والاسلام الذي نلمسه في كثير من عبارات غاندي ونصوصه كان في الواقع ولعـله ما يزال الى حد كبير حتى اليوم مألوفاً ايضاً في أذهـان كثير من العرب المسلمين ، كما كان شائعاً في الوقت نفسه بين غالبية العرب غير المسلمين وغالبية المسلمين غير العرب .

وقـــد أشار المفكر الهندي ابو الحسن الندوى الى « ان المسلم ينظر الى العالم العربي كمهد للاسلام ومشرق نوره ، ومعقل للانسانية ، وموضع القيادة العالمية » (٢) . فقد كان من الطبيعي ان يشعر المسلم في الهند او في سواها برابطة نسب واشجة تشده الى العرب ، يتجلى ذلك في قول الفيلسوف الشاعر محمد اقبال :

أنا أعجمي الدن لكن خمرتي ... صنع الحجاز وروضها الفينان
ان كان لي نغم الهنود ولحنهم ... لكن هذا الصوت من عدنان

---

(١) الهند ، الكتاب السنوي ١٩٦٨ — ١٩٦٩ ص ٤٠

(٢) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين ٢٤٥ .

وحين عبر غاندي قناة السويس عام ١٩٣١ حال المحتلون الانكليز بينه وبين النزول بأرض مصر ولقاء شعبها الذي كان يضطرم ثورة على زبانية الاستعمار، ومع ذلك كان هذا المرور حدثا تاريخياً ينم على التجاوب العميق بين العرب والهنود وشعورهم القوي بوحدة المصير. لقد كان غاندي بطلا شرقياً وجد فيه شعب مصر خصما عنيداً للمستعمر ذلك العدو المشترك. وقد أعرب مصطفى النحاس رئيس الوفد المصري آنئذ عن هذه الروح التي كانت تسري في جموع الأمة في كلمته الى غاندي قائلا: «باسم مصر، التي تجاهد من أجل حريتها واستقلالها أرحب في شخصكم العظيم بزعيم الهند العظيم، الهند التي تحارب هي الاخرى لتحقق نفس الهدف» (١). كما أعربت السيدة صفية زغلول قائدة اول مظاهرة للنساء في الوطن العربي إبان ثورة ١٩١٩ المصرية عن شعور مفعم بالاجلال تجاه الزعيم الشرقي الكبير(٢).

واذا أردنا استجلاء حقيقة المشاعر العربية ومدى ما كانت تنطوي عليه من صدق تجاه الهند الصابرة وقائدها العظيم كان لابد لنا من استنطاق الأدب والشعر منه بوجه خاص. ولعل الشاعر احمد شوقي خير من كان يعكس مشاعر أمته من حيث انفعاله بآلامها ومطامحها وما عرف عنه من رصد حي لأحداثها. ان مجيء زعيم احتل اسمى منزلة في قلوب الشرقيين الى مصر لهو حدث تاريخي جدير بأن يحظى باهتمام شوقي فينظم قصيدة دالية تناهز الأربعين بيتا في هذا الطراز الفذ من الرجال:

بني مصر ارفعوا الغـار	وحيوا بطـل الهنـد
وأدوا واجبا واقضوا	حقوق العـلم الفرد

وفي خلال هذه القصيدة يبرز شوقي عنصر الألم المشترك الذي وحـد

---

(١) المهاتما غاندي الثائر ٤٣.

(٢) المصدر السابق.

مشاعر الشعبين نحو الهدف الواحد وكان مبعث ذلك هو الاعجاب بزعامة غاندي ذلك المعلم الكبير :

أخوكم في المقاساة وعرك الموقف النكد
وفي الموقعة الكبرى وفي المطلب والجهد
وفي الجرح وفي الدمع وفي النفي من المهد

ان الطائفية تلك العلة المزمنة التي استشرت في الهند استشراءها بين العرب كانت ايضاً في رأى شوقي من أبرز ملامح الرسالة الغاندية التي كان الشرق العربي يتحرق شوقا الى مثلها في ربوعه :

لقد علّم بالحق وبالصبر وبالقصد
وجاء الانفس المرضى فداواها من الحقد
دعا الهندوس والاسلام للألفة والود
بسحر من قوى الروح حوى السيفين في غمد
سلام حالب الشاة سلام غازل البرد

لقد غدا غاندي في قلوب الملايين المستضعفة رمزاً للزعامة الشرقية في تحديها للغرب . هذه الروح الشرقية التي أخذت تنبعث بقوة لدى الجيل العربي في مطالع هذا القرن بسبب الهجمة الاستعمارية الشرسة على الوطن العربي والتي يمكن العودة بجذورها الى حقبة الحروب الصليبية أخذت تتجلى بين العرب على شكل شعور غامض بالتعاطف بينهم وبين شعوب أخرى مقهورة في هذا الشرق الكبير وحدت بين مشاعرها مواجع القيد فلم تعد تميز بين زعيم وزعيم من زعمائها ، فكانت تجد في كل وقفة متمردة شفاء لجراحها وثأراً لكرامتها . وعلى الرغم من أن النزعة الشرقية لم تبلغ منزلة الرابطة بين شعوب الشرق الا أنها كانت تشغل حيزاً كبيراً في اذهان العرب وذلك نتيجة للظروف التاريخية المشتركة التي أملاها الخطر المشترك الطارىء من جهة ، ثم ترجرج الأفكار والمفاهيم القومية من جهة أخرى . فجبران

خليل جبران الذي ينتمي الى لبنان ويدين بالمسيحية يحرص على أن يجعل لنفسه هوية شرقية اذ يقول : « انا شرقي ، ولي فخر بذلك . ومهما اقصتني الأيام عن بلادي أظل شرقي الأخلاق ، سوري الأميال ، لبناني العواطف » . فالشرقية عنده عاطفة وطنية او قومية واسعة . وعلى هذا الغرار نجده يدافع عن الشرق بحرارة ويحمل على الغرب بقوة اذا يقول[١] :

« لا ، ليس الغربي أرقى من الشرقي ، ولا الشرقي أحط من الغربي » .

ولعل من المفارقات أيضاً أن غاندي نفسه لم يكن ليقيم مثل هذه الحدود بين الشرق والغرب فكان يتسامى عليها بروحه العظيم على الصعيد الانساني الأمثل فهو القائل[٢] : « لم تمر بي تجربة واحدة – خلال اقامتي في انكلترا وأوروبا ثلاثة اشهر – تجعلني أشعر حقاً بأن الشرق شرق والغرب غرب . بل على العكس ، قد زدت اقتناعاً اكثر من أي وقت مضى بـــأن الطبيعة البشرية هي هي مهما اختلفت الظروف » . ولعل هذه العبارات بمثابة رد غير مباشر على الشاعر الامبراطوري كيبلنغ الذي اطلق قولته : « الشرق شرق ، والغرب غرب ، ولن يلتقيا » .

ومثل هذه الروح الشرقية الوادعة كانت تطل من حين الى آخر من خلل الأشعار اللاهبة والخطب الصاخبة التي كانت تملأ دنيا الأدب والسياسة في مواكبة الكفاح العربي العاثر . ففي اثر زيارة شاعر الهند طاغور لمدينة دمشق عام ١٩٢١ عبر عدد من الشعراء عن أجمل المشاعر تجاه الهند وزعيمها . وقد تجلت في قصيدة أديب التقي (بين الشرق والغرب) نفحة انسانية وادعة كأنها سرت اليه من روح الشاعر الهندي العظيم[٣] :

حنانك عهد الشرق هل انت راجع   بما ينبغي أم ليس تحناننـــا يقضى

---

(١) قصته : العاصفة ، من كتابه : العواصف .

(٢) قصة تجاربي مع الحقيقه ٢٥٨ .

(١) ديوان أديب التقي ١٠١

أأحرار أهل الغرب أموا بــلادنا تروننا كراما لانسرّ لكم بغضــا
تعالوا الينــا لالفتــح وغارة لتستعبدوا حرأ وتستعمروا أرضا
ولكن لترتادوا حقائق شرقنا وتستمعوا للقلب عن كثب نبضا

وحين تكون شعوب العرب والهند تحت نير واحد تغدو معالجة اوضاعها في النثر والشعر العربيين أمراً طبيعيا بل لازما . حتى ان هذا التعاطف الشرقي كان يتسع ليشمل وثبة تركيا ونهضة اليابان وكفاح الصين . . غير أن الهند بقيت الموضوع الأثير في الشعر القومي في فترة مابين الحربين العالميتين وكأنها المثال البارز الدال على شراسة الاستعمار وزبانيته . فشاعر عربي كعمر يحيى يخرجه الانكليز من البحرين منفياً الى الهند لايرى فارقاً بين بلدين شرقيين امتدت فوقها ظلال الاحتلال البغيض :

أنا في الهند أرى الشرق ومــا في حناياه من الداء الدفــين
ضاق صدر الشرق عن ابنائه وحوى من قادة الغرب مئين
فلكم تضحك لمــا أن ترى بقرا ترعى وأقواماً تهون
ولكم تبكي اذا شاهدت في ساحة الهند جموع البائسين
في هدوء الليل اقوام عــلى قارعات الطرق فقراً نائمين
اسبل البؤس عليهم مزقــا من ثياب وظلاماً من شجون(١)

ولعل معروف الرصافي(٢) في طليعة شعراء العرب الذين عنوا بكفاح الهند وأحوالها ، كان يتحدث عنها بحرارة وأسى حديثه عن العراق وسائر بلاد العرب :

زر الهند ان رمت العيان فكم ترى على الأرض من غبر هناك ومن شعث
وهم سلبوا ارض العراق سمينهــا ولم يتركوا فيها منالا سوى الغث

---

(١) ديوان البراعم .
(٢) ديوان الرصافي ٤٧٠

ويبدي الرصافي اهتماماً متزايداً بأحوال الهند قارنا اياها مع العراق في وحدة المصاب والمصير :

اذا سمعت الهند في قول قائل … تخيلت فيلًا بالحديد مكبلا
تزجيه كف الأجنبي مسخراً … فيمشي بأعباء الأجانب مثقلا
ويبرك أحيانا على الارض رازحاً … له أنة من ثقل ماقد تحملا
ولو قام هذا الفيل واستجمع القوى … ليهز بها شمّ الجبال وقلقلا

حتى أن الرصافي يرى أن ارتباط العراق بالهند ارتباط مصيري ، وان تحرر العراق رهن بتحرر الهند :

ولو لم تكن بالفيل عندي علاقة … لما رمت عن هذا الجواب مفصلا
لنا حمل وهو العراق نظنه … غدا من وراء الفيل للذئب مأكلا
فان ينج هذا الفيل من قيد أسره … نجونا والا اصبح الأمر معضلا

لقد خاب ظن العرب في زعمائهم الذين كانوا يتلهون حول خسيس المغانم ، فراحوا يتلهفون على زعامة مخلصة كزعامة غاندي تأخذ بسفينة البلاد الغارقة الى شاطىء السلامة . كان شاعر فلسطين ابراهيم طوقان دائب الانذار والتحذير من النهاية المظلمة لوطنه ويتطلع أبداً الى ذلك الربان الماهر بنظر اليائس القانط :

حبذا لو يصوم منا زعيم … مثل غاندي عسى يفيد صيامه

ثم يصف مرض الزعامة في وطنه بسخرية مريرة :

مغرم بالبلاد صب ولكن … سوى القول لايفيض غرامه
بطل ان علا المنابر كرار … سريع عند الفعال انهزامه

* * *

هذه الشخصية الآسرة التي انطوى عليها ذلك الجسد الضئيل والتي صور ملامح صاحبها شاعر الهند رابندرانات طاغور بأنها: « الروح العظيم في زي شحاذ»

وكأنما عناها أيضاً شاعرنا القديم ابوالعتاهية فيقوله انها: «ملك في زي مسكين» هذه الشخصية قد امتدت حتى استحوذت على قلوب الأدباء العرب في مهاجرهم القصية ، وكأنهم وجدوا فيها طرازاً رومانتيكياً متفرداً لانظير له .

ففي قصيدة لالياس قنصل يجمع بين نضال عدد من الأمم الشرقية على صعيد واحد فيتحدث عن الثورة السورية وبطش فرنسة بدمشق ، وعن نضال فلسطين والارهاب الصهيوني ، ثم ينتقل في القصيدة نفسها الى كفاح الهند وزعيمها الأكبر بوحي من الشعور بوحدة القضية المشتركة واضعاً غاندي في مصاف الأنبياء(١) :

وما غندي الضعيف سوى نبي شبيه الأنبياء المرسلينا

فقد كان غاندي قبلة انظار العرب في مهاجرهم ، يكنون له من الحب والاحترام ومن الاجلال والتقدير ما لا يقل عما يكنه له الهنود . ومن هنا ايضاً كاد الشاعر القروي رشيد سليم الخوري يؤلهه ويرى فيه أمثولة في الزعامة أنجبها الشرق فكانت فخراً له أمام الغرب (٢) :

من شط بحر الغانج زار غضنفر أشجى لسمعي من هديل حمام
صوت يردده مسيح الهند في دهي لتسمع يا مسيح الشام

والشاعر القروي الذي طالما ثارت ثائرته على استكانة قومه وتخاذل قادتهم أهاب بشعبه من وراء البحار ان هبوا الى الكفاح هبة غاندي في هنده . لقد أهل عيد الفطر على المسلمين بعد صيام شهر ولكن شتان مابين صيام وصيام :

(١) ديوانه : على مذبح الوطنية ٦٩ .

(٢) ديوان القروي ، طبعة وزارة التربية والتعليم بالقاهرة ، ص ٢٧٩ . وقد ألقى قصيدته هذه في حفلة عيد الفطر التي احيتها الجمعية الخيرية الاسلامية في سان باولو سنة ١٩٣٣ .

صياما الى أن يفطر السيف بالدم | وصتنا الى أن يصدح الحق يا في
أفطر ، وأحرار الحمى في مجاعة | وعيد وأبطال الجهـد بمأتم
لقد صام (هنـدي) فجوع دولة | فهل ضار علجا صوم مليون مسلم
تجشم عن اوطانه صوم عامـد | فجشم اوطـان العدى صوم مرغم
وخلى بلاد الظالمين بـلاده | تضيق بجيش العاطلين العرمرم
وألقى على (منشستر) ظل رهبة | يضج بأشبـاح الشقـاء الخيم
أهاب بآلات الحديـد فعطلت | مصانع كانت جنـة المتنعم
وشل دواليب الرخـاء بصرخة | ادارت دواليب القضـاء المحتم
كساها نسيج العنكبوت، وكم كست | جسوم البرايا بالقشيب المنمنم
تهدمها أسرار نفس عجيبـة | تحول بـذاك الهيكل المتهدم
فيا لك من عان لديه تصاغرت | جبـابر أبدان وعقل ودرهم
وراحت ملوك المال تشكو ببابه | مـن الفقر : يا للظالم المتظلم ..
هبوني عيدا يجعل العرب أمـة | وسيروا بجثماني على دين برهم
سلام عـلى كفر يوحد بيننا | وأهـلا وسهلا بعـده بجهنم

وعلى هذا الغرار من النفس الملحمي مضى القروي في قصيدتـه مشيدا برسالة غاندي رسالة التمرد والاصرار .

وميخائيل نعيمة الذي كان قطبا آخر بـين أدباء المهجر كان ذا ادراك عميق لحقيقة المنازع الشرقية التي تنطوي عليها الرسالة الغاندية فقد وجد في غاندي صورة اخرى للمسيح تنطوي على الكثير من ملامحه ، وما يتسم بـه في رسالته المثلى المتجلية في اللاعنف ، ألم يردد غاندي نفسه موعظة المسيح على الجبل حتى غدت بعد ذلك بالنسبة اليه نقطة انعطاف في سلوكه وتعاليمه .. ؟ لقـد بلغ من اعجاب نعيمه بغانـدي أن أسماه « ضمير الشرق المستيقظ »[1] ، كما راح يشيد بروحانية الشرق في حماسة بالغة من خـلال مقالات متعددة ، مثل :

---

(١) في مهب الريح ١١٣ .

شرق بصير وغرب مبصر ، غرب حاكم وشرق محكوم ، غرب يغرب وشرق يشرق .. [1]

واذا كان نعيمة قد وجد في غاندي الانسان كائنا روحانيا فذاً ، فقد وجد فيه في الوقت نفسه بطلا قوميا فريدا . لقد حقق غاندي النصر لأمته فتم بذلك وفي الوقت نفسه النصر المبين لرسالته . وفي ذلك يقول :

أصبح المغزل في يد غاندي أمضى من السيف .. وأصبحت الملاءة البسيطة البيضاء التي كانت تلف جسد غاندي النحيل درعا لا تخترقها مدافع اساطيل سيدة البحار ، وأصبحت عنزة غاندي أشد بأسا من الأسد البريطاني . » [2]

ثم يتوقف القلب الكبير الذي وسع قضية بلاده ومشكلات قومه . وكان لا بد له أن يتوقف بعد أن أتم مهمته وبلغ رسالته عبر مسيرة الصراع المرير بين الحق وبين القوة . فقد أوصل سفينة وطنه الى شاطىء السلامة وحقق لها حلم الحرية ، فحق له أن يموت قرير العين . غير أن من المفارقات العجيبة أن هذا الانسان الوادع الذي كان عمره أبدا داعية اللاعنف هو نفسه سقط ضحية العنف ، فكانت أبلغ نهاية ، وكأن شاعرنا العربي القديم قد عناه بقوله :

وكانت في حياتك لي عظات   فأنت اليوم أوعظ منك حيا

ويكون لمصرع غاندي على ذلك النحو من الغدر صدى بعيد في الوجدان البشري تجدد معه القول في هذا الانسان العظيم البسيط وتجلى في اثر ذلك مذهبه الفريد الذي شع على هذا العالم المتفجر . وكان صوت الأدب العربي ، شعره ونثره ، في فقده على أوفى الأصوات وأصدقها وأشجاها . وفي ربوع البرازيل

---

(١) البيادر ١٢٠ — ١٤٢

(٢) في مهب الريح ١١٦

القصية ، في تلك الواحة العربية في صحراء العجمة والغربة تند من الشاعر فرحات عبارات رثاء شجية ينثرها سجاما مع دموعه فاذا هي ابلغ من الشعر . انه يقول من خلال قصيدته « مصرع غاندي » : [1]

« مات غندي ... قتل غندي » .

ان اليد التي صبت السم في كأس سقراط هي التي سمرت الناصري على الصليب .

وهي اليد التي اطلقت الرصاص على غندي

انها يد التعصب الأعمى والحقد الأصم .

غندي الذي قضى حياته ملاكا بين فئات لا تحصى من أبالسة الهنادك والمسلمين والسيخ والمنبوذين . مات قتلا .

مات الزعيم البرهمي الروحي الذي لم يحمل سلاحا ، ولم يباركه ، او يبارك حامليه .

كان يحب اعداءه ويبارك لاعنيه ، فواخجلة السيخيين !

مات الزعيم الذي حارب القوة بسلاح الحق ، فدحرهـا ، فواخجلة الأقوياء المستبدين .

مات غاندي . . مات رجل الانسانية الأوحـد ، قتله أحد أبناء الانسانية الحمقاء .

ان الانسانية التي توجت اللصوص والسفاحين ملوكا على الناس وأباطرة . . قتلت سقراط وعيسى وغندي .

فويل لهذه الانسانية المأفونة التي تحيي اللصوص وتقتل المصلحين .

---

(١) ديوانه : « الخريف » ١٦٤ ، سان باولو .

ويل لهـــذه الانسانية من ابنائها المتعصبين ، وويل لها من السياسة والسياسيين ، الفجرة المنافقين الذين يرشحون أنفسهم وشركاءهم لجائزة نوبل السلمية ويتناسون غاندي .

ولا بدع ، ان السلم الذي كان يريده غاندي سلم لا رياء فيه ، سلم يقوم على المحبة والحق والعدل ، وهم انما يريدون سلماً قائما على الرياء والدسائس والاغتصاب والقهر .

سلم غاندي حمائم تتناغى على الأغصان ، وسلمهم ذئاب تتعاوى حول الأشلاء .

ان هذه الانسانية الموبوءة لا تعرف انها فقدت أفضل ابنائها ،وأحسنهم الى الناس ، وأقربهم الى الله ..

انها فقدت غاندي .. انها قتلت غاندي

لقد كان غاندي رمز التفاعل الفكري بين العرب والهنود ، ان محبته للعرب وتشبعه بتاريخهم ، ثم اعجاب العرب به وبزعامته في مقابل ذلك ، بما رددته حناجرهم وفاض على لسان كتابهم وشعرائهم ، لهو خير ما يؤكد أن هذا الرجل الفذ لم يكن للهند وحدها بل كان أيضا للعرب ولسائر الشعوب المتلهفة على الحرية. انه روح الشرق العظيم التي ما زالت تشع على الانسانية احساسها العميق بوحدة المصير للجنس البشري المتطلع الى حياة انسانية خصبة يسودها الحق والعدل ، وتشرق فيها شمس الحقيقة لتغمر البشر جميعا بنور الحرية والاخاء والسلام .

غاندي

وقرن مضى على ميلاده

د. محمّد التونجي

يحتفل العالم في هذا العام بالذكرى المئوية لمصلح الهند الأكبر غاندي . ذكرى تعيد على الأذهان كيف أن انساناً استطاع وحده أن يقود امة تعدّ نصف مليار نسمة تقريباً ، وتحارب أعظم امبراطورية استعمارية بغير سلاح عدا الهمة والعزيمة والايمان .

فقد عرف أن الكلمة الطيبة الصادقة، والعزيمة القوية الصابرة ، والعلم الخالص ... أمور هامة لتحرير الانسان من ربقة الظلم الذي يعتور جزءاً من أجزاء هذا العالم .

فنادى بالغاء التمييز العنصري ، والتفرقة الدينية ، وحث أمته على تعلم لغتها ، ورمي كل ما له علاقة بالانكليز من لغـــة وبضائع وقوانين وألقاب ومعاملات ، ومدارس أيضاً . وقاد الفلاح وعلّمه ، وآزر العامل وحضّه ، وساند المرأة وأنزلها الى حقل العمل ، ونظر الى المعلم بعين المصلح المربي .

كان هذا دأبه نصف قرن من الزمان دون أن يعرف الكلل ولا الملل . ودون أن يتهاون أو يتأخر . استهان بحياته ، ورحب بالسجن ، وحيا المقاومة . على أن مقاومته هذه كانت سلمية لا تعاونية ، سلمية بأن قابل العنف فجابهـــه باللاعنف ، والضرائب والقوانين الجائرة التي وضعها المستعمر على رقاب الشعب الهندي ، فأهملها ونادى باللاتعاون معها .

واذا كان همّ بعض دول العالم منذ الأزل الارهاب والاستعباد وخنق الحريات ، فإن همّ المصلحين نشر الحرية والانسانية في البلاد ، وخلق روح المحبة والعدل فيما بين الشعوب . وكان يظهر بين الفينة والفينة مصلح يحاول أن يحرر الانسان من ربقة المظالم التي تطغى عليه وينير له طريق الخلاص .

وقد أثبت التاريخ والعرف أن الشرق مبعث أغلب هؤلاء المصلحين منذ آلاف السنين . ولا زال الشرق يضم في عقد الانسانية أسماء يفخر العالم بها .

وفي العصر الحديث ، عصر الحروب والاستعمار ، سطع نجم من زاوية من زوايا الهند ، حقق لبلاده ولعدد من بلدان العالم كامل الحرية والهمة بسلاح يحقق الهدف المنشود دون أن يصيب أحداً بأذى . حرر الانسان من شتى أنواع العبودية ، فلهجت الشعوب بشكره وفضله ، وستبقى على ذلك ما دام هنـــاك ظلم وقسوة .

اسمه الكامل «موهانداس كارا ماشاند غاندي» ولد في بلدة «بورباندار» أي المدينة البيضاء، على ساحل البحر العربي في الثاني من تشرين الأول من عام ١٨٦٩، وتوفي في نهاية شهر كانون الثاني من عام ١٩٤٨ . لقب (المهاتما) أي ذا الروح العظيمة، ويطلق هذا اللقب في الهند على الشخص المبجل لحكمته وسمو مبادئه ونكرانه لذاته .

أما والده فهو (كابا غاندي)، محب، شريف، مخلص . لم يكن ذا ثقافة ذات اهمية، وتوفي ولمّا يبلغ غاندي السادسة عشرة من عمره . وأمه امرأة وهبت حياتها للمعابد والنذور، فطبعت طفولة ابنها بطابع القداسة والتدين العميقين .

أما هو فصغير الجسم، ضيق ما بين المنكبين، ذو عينين سوداوين دقيقتين، وأذنين واسعتين بارزتين . قد غطى رأسه بقبعة بيضاء صغيرة، وستر جسمه قماش أبيض خشن، ولفّ وسطه مئزر بسيط، كما أنه لم ينتعل حذاء اكثر أيام عمره .

كان رجلاً بسيطاً في حياته وفي مأكله، ما ملك أرضاً ولا ادخر مالا، يستيقظ كل صباح في ساعة مبكرة جداً، ويؤدي فريضة صلاته بينه وبين نفسه . أما طعامه فكان لا يتعدى الفول السوداني والتمر والخضار وأحياناً ثمر المانغو . أما اللحم فلم يذقه إلا خلسة أيام الصبا عندما أغراه بأكله زميل له مدعياً أن الانكليز يأكلونه ولهذا السبب فقد صاروا طوالاً عراضاً، وهو اذا أراد ان ينتصر عليهم فعليه أن يأكل اللحم . ولكنه بعد حين عاد فترك اللحم لأن نفسه لم تتقبله، ولأن دينه يحرمه .

حيي خجول ، لايملك الجرأة على المحادثة المنطلقة أو الخطابة الجريئة في النصف الأول من عمره . وكان اذا ما أعد خطبة ما تلعثم وتعذر عليه القاؤها ، فينهض أحد الحاضرين ليتلوها عوضاً عنه ، وحتى كلمته الوداعية غب تخرجه من كلية حقوق لندن لم يستطع القاءها .

ذلكم هو غاندي ، ومع ذلك فانه هز أركان الامبراطورية البريطانية ، وبلغ نفوذه حداً كبيراً في الشعب الهندي لينهض به من غفوته ، ويحارب به الكسل والاستعمار والخنوع . ولم يترك مجالاً واحداً فيه خدمة للبشرية أو حث على الوطنية أو نضال في سبيل الحرية إلا خاض فيه جولات وجولات دون أن يكلّ متنه . وهو معلم علم الشعوب معنى الكفاح ، وعلم شعبه لذة الدفاع عن النفس . فتح المدارس ووجه المعلمين قبل ان يوجه التلاميذ ، وحرص على تربية مثالية في القرى العطشى للعلم والنور . ثم انه انساني دافع عن حق الانسان حيث كان ، دافع عن العالم ضد سيطرة المستعمر ، وتألم لمصاب الشعوب الرازحة تحت عبء الاحتلال ، كما تألم لمصاب العرب في فلسطين من غَشم اليهود .

لم يرِ الراحة في بيته ولا في بلده ، بل كان يجد فى كل أرض يشعر أنها بحاجة الى سند . فلم يتخلف قط عن مد يد العون ، وغرس روح المقاومة السلمية في نفوس العديد من البشر . وقدم فلسفة جديدة خالدة في الدفاع عن الوطن . فلسفة جديدة في صد الاهانة والاستغلال ، فلسفة جديدة تنيلنا الحرية والحق دون إراقة الدماء أو فقد الاصدقاء .

لم يكن في صغره تلميذاً بارع الذكاء فذاً ، بل كانت ذاكرته كما يقول عن نفسه فجة . ولعل ابرز حدث في أيام طفولته ، زواجه وهو ابن الثالثة عشرة ،

بلى في هذه السن المبكرة ، وهو تلميذ في احـــدى المدارس الثانوية . فقد قرر أركان الأسرة تزويجه وتزويج أخيه الاكبر ، وتزويج ابن عمه دفعة واحدة . وكانوا ثلاثتهم تلاميذ مدرسة واحدة ، دون أن يفكروا بمصلحة هؤلاء الأطفال أو برغباتهم . انما فكروا بالولائم والليالي الملاح التي سيقيمونها ، وبالتالي بالتوفير المادي الذي سيجنونه من جراء دمج ثلاثة أعراس ببعضها . وهو اذا تألم لهـــذا الزواج المبكر فانه فرح بالألبسة القشيبة التي سيرتديها والاطعمة اللذيذة التي سيطعمها والرفيقة الصغيرة التي سيلعب معها .

وكانت كاستورباي – وهو اسم زوجته الطفلة – امية بسيطة مثابرة كتوماً . وكان يسعى الى تعليمها ما يتعلمه في المدرسة . كان يكره المطالعة بغير الكتب المدرسية ، كما كان يواظب على دروسه جيداً لأنه كان يخشى أن يوبخه معلمه .

ويسافر إلى لندن بعد أن ينجح في الثانوية عام ١٨٨٧ ويدخل كليـة الحقوق بعد أن أقسم لأمه الورعة ولأفراد أسرته الأيمان المغلظة أنه لن يمسّ الخمرة والمرأة واللحم وهي أمور محرمة في الديانة الهندوسية .

ولقد أحبّ هناك أن يغدو جنتلماناً انكليزياً ، فاشترى مرآة لتصفيف شعره في حين أنها كانت في الهند تعتبر من أسباب الترف ، وتعلم فن ربط عقدة الرقبة ، وأخذ دروساً في الرقص واللغة الفرنسية والعزف على البيـانو لـكي يعوّد أذنه على الموسيقا ، ويحدّث الطبقة الراقية بالفرنسية . غير أنه عزف عن كل ذلك فجأة عندما تذكر أنه انما جاء إلى هنـــا ليحصل على الشهادة لا ليكون أوروبياً .

وعندما عاد إلى بلاده عام ١٨٩١ ، وبدأ العمل كمحام أحسّ أنه ليس أهلاً لهذه المهنة فلم يحرز التوفيق المفروض ، وفي هذه الاثناء جاءه عرض لملاحقة قضية في جنوب افريقية ، فرغب في السفر ورحّب به مع أن العرض غير مغرٍ .

فغادر الهند إلى جنوب افريقية عام ١٨٩٣ ، أي بعد ربع قرن من قدوم الهنود إلى تلك البلاد ، ولم تكن لديه أية فكرة عن وضع المهاجرين الهنود. فقد احتاج الانكليز إلى أيدٍ عاملة ، فتفاوضت مع حكومة الهند طالبين تزويدها بالأيدي العاملة ، ووصلت الزمرة الأولى من العمال الهنود المشتغلين بالتعاقد إلى (ناتال) عام ١٨٤٠ .

ومنذ وصولهم والضغط عليهم يتزايد ، والقوانين الشديدة تُرسم ، ولم يكن بين الهنود قادر على انقاذهم أو توجيههم . وعندما وصل غاندي إلى جنوب افريقية عام ١٨٩٣ كان مجرد محام عادي جاء لملاحقة القضية التي قدم من أجلها ، ولم يكن في فكره أنه سيكون ذا شأن هناك ، وسيبدع في فكره ، ويقدم للانسانية فلسفة جديدة لمقاومة الاضطهاد والاستعباد ، فلسفة تحارب الظلم بالسلم ، والعنف باللاعنف ، والامبراطورية ببعض أفراد ألهموا عزيمة وطنية وطيدة

وما إن وصل حتى انفتحت عيناه على واقع الهنود المرير ، فقد لاحظ منذ اليوم الأول أن الأوروبيين يخصون الهنود بمعاملة مغالية في التفرقة العنصرية، وفي الاهانة والاحتقار . وقد لمس الإهانة بنفسه عندما أنزل من القطار لأنه ركب الدرجة الأولى ، وأخرج من عربة الركاب عندما علم صاحبها أنه هندي ،

وضرب وركل حينما مشى في الشارع ليلاً ، والسير ليلاً محذّر على الهنود ، كما لم يتنازل الحلاق الأبيض أن يمس شعره الأسود .

وعندما رغب في العودة رجاه صحبه أن يبقى بينهم يساعدهم في أمورهم ، ويدافع عن مطالبهم ، وهم مستعدون لدفع مايطلب أجر أتعابه ، فوافق على البقاء ولم يوافق على الدفع ، ذلك أنه اعتبر هذا الأمر واجباً وطنياً خالصاً لبني جلدته . فقرر البقـــاء إلى أن يفوزوا بمعاملة خير من هذه المعاملة السيئة .

فبدأ بإقامة اجتماعات دورية مع الهنود الآسيويين يحضّهم على جمع كلمتهم في مطالبتهم ، وعلى ترك الخلافات الدينية والمذهبية جانباً تجـاه البيض الذين يسومونهم ألوان العذاب .

وأخذ في حصر الوقائع التي يعيشونها فرأى أن الأوروبيين يريدون الحد من هجرة الهنود ، والحط من مكانتهم ، ووضع ضريبة سنوية قدرها ثلاثة جنيهات على كل هندي يحيا في جنوب افريقية ، و كثرة القوانين المجحفة بحقهم وبحريتهم ، إلى غير ذلك من الأمور التي كانت حجرة عثرة في استقرارهم وحياتهم هناك .

وبعد تفكير عميق وجد أن العنف لاينفع في المجابهة وغير مجدٍ ، فعمد إلى مقابلة العنف باللاعنف ، والاحتقار والاستهتـار بالصـبر والتحمل ، وحثّ الشعب أن يتحمل المصاعب ويستهين بالتعذيب والسجون في سبيل الحرية التي ينشدها .

وجد أن اللاعنف أو مايسمى (بالساتياغراها) الأصل في فلسفته النضالية الوطنية ، ومن شروطها أنها لاتنطوي على ايذاء الخصم ، وتفرض الفوز عن

طريق انزال المرء ضروب الأذى بنفسه هو ، كما أنه لايعتمد على المساعدة الخارجية إلا قليلاً ، وان العلاجات الداخلية وحدها هي الفعالة في هذا الحقل . وعدم وجود المال لايميت حركتهم . كما أن الارهاق لايعرف سبيلاً إلى نفس الساتياغراهي ماتمتع هذا المناضل بالقدرة على الاحتمال ، وعليه أن يرضخ صابراً للسجون والتعذيب والاهانات ، دون أن تثور ثائرته ويبطش أو يتعدى عليه .

وظل على هذا الكفاح سنين حتى ظفر في نهاية الأمر في تحقيق أغلب ماطالب به ، وعندئذ وجد أن مهمته في جنوب افريقية قد انتهت ، وعليه أن يعود إلى وطنه ليتمم ماقام به من واجبات مقدسة نحو شعبه .

وعندما وصل إلى الهند عام ١٩١٤ أحس أن صلته بوطنه غير كافية ، ومعرفته بمطالبه واحتياجاته ليست وافية . لذا قضى سنتين متجولاً ومنكباً على دراسة أحوال البلاد بأذنين مفتوحتين وفم مغلق .

وجد أن الشعب الهندي منقسم إلى طبقات ، وبالتالي مشطر إلى عدة أديان ومذاهب ، واللغة القومية تنوسيت أمام اللغة الانكليزية ، وأن العامل مقهور أمام تسلط أصحاب المعامل ، وأن الفلاح يتضور جوعاً وجهلاً مقابل جبروت الدهاقنة وكبار المزارعين ، وأن الشعب بين جاهل لايعرف شيئاً في الحياة وبين متأنكلز لايهمه أمر في البلاد ، والثقافة انكليزية والبضائع أجنبية ، والأيدي العاملة خالية من كل عمل .

وجه عنايته نحو سائر طبقات المجتمع وساعدها على التيقظ ، فالفلاحون يعيشون في ظلم وظلام ، فراح يحضهم على رفض القوانين الجائرة المنصوصة في حقهم من جراء ظلم المستعمر أو أذياله . ولبى نداء العمال لينصفهم ويوجههم

نحو سياسة اللاعنف للوصول إلى حقوقهم ، وطالب الشعب أن يتكلم اللغة الهندية ، ويترك لغة المستعمر المتفشية بين الناس ، وحاول حل القيود الطبقية دون معاداة أية طبقة كانت ، ونادى بحرية الأديان ، وضرورة تمسك المرء بدينه .

ولما وجد البطالة متفشية في جموع الهند الغفيرة ، شجعهم على مقاطعة البضائع الانكليزية ، ونسج الأقمشة على الدولاب فتشجع الناس ، وبدأوا يغزلون وينسجون ألبستهم بأنفسهم ويبيعون الفائض ، حتى إن أصوات المغازل كانت تتصاعد من نوافذ المنازل ، وكأنها تغني نشيد الحرية والاستقلال . وانتشرت حركة الغزل والنسج حتى عمت أرجاء البلاد ، فكسدت الأقمشة الانكليزية وضربت اقتصاد بريطانية ضربة قاسية .

وهكذا مضى غاندي غير عابىء بمواجهة الأخطار ، وتحديات الاستعمار . وراح يجري التحقيقات في مظالم الشعب كما مضى في اعطائهم دروس الساتياغراها (اللاعنف) . وعلمهم أن الشرط الأول للحصول على الحرية هو تحرر الذات البشرية من الخوف .

فذاعت شهرته في أنحاء الهند ، فمال عليه الناس يقدمون له واجب الطاعة ويعتبرونه القدوة الرائدة . وخاف منه المستعمر ، فرماه وتلامذته ، في السجن المرة بعد المرة .. غير أنه كان في كل مرة يغدو أصلب عوداً وأكثر تمسكاً بسياسة اللاتعاون واللاعنف .

ومضى على ذلك سنين طويلة يكافح فأصيبت الحكومة بضربة قاسية تلتها ضربات وضربات ، فصغرت للأمر بعد أن شعرت أن عليها أن تخاطب

الشعب الهندي بأسلوب أكثر تفهماً ووعياً ، فعقدت مؤتمرات المائدة المستديرة ، وقد حضر غاندي بعضها ، فذهب الى لندن بمئزره الأبيض فانزعج تشرشل من هذا الانسان العاري الذي يجالس ويناقش نائب الملك وهو نصف عار ، ومادرى أن هذا الانسان كسا شعبه ثوب الحرية الفضفاض يفخر بـه الشعب على مر الأجيال ، وكلل رأسه غصن النصر فكان تاجاً لماعاً ، وحلى قدميه بنعل يستطيع به أن يسير حراً من أقصى الهند إلى أقصاه .

واضطرت بريطانيه في ١٥ آب ١٩٤٧ ان تسلم مقاليد الحكم لشعب الهند بعد ان فشلت أسلحتها أمام سلاح غاندي الذي لم يكن غير عقيدة تمسك بها وعزيمة استهوته ، ولا عنف أرعب به عنف الاستعمار .

وهكذا عاش غاندي بين الشعب أحس بأحاسيسه ، وتألم لمصابه ، وشاركه مصاعبه . بل أنار له الطريق القويم للوصول الى الاستقلال . ولقد ظل من عام ١٩١٩ حتى مقتله ١٩٤٨ يشغل المكان الرئيسي على مسرح أحداث الهند زعيماً مناضلاً ، ومحرراً البلاد دون اراقة دماء . وقد قال في أحد كتبه :

« جعلت من دين الخدمة ديناً لي ، وكانت الخدمة عندي هي خدمة الهند ، لأنها كانت تقبل علي من غير ان أسعى اليها » .

أما موقفه من العرب فكان موقفاً مشرفاً ، فقد أعلن عن رأيه بالعرب أصحاب الحق الشرعي في فلسطين ، وانما اليهود يغصبون الأرض غصباً . وقد نشر رأيه في العرب واليهود في مجلة (هاريجان) عام ١٩٣٨ فقال :

« ان عواطفي كلها مع اليهود ، ولكن عطفي عليهم لن يعميني عن مقتضيات العدالة ، فأنا لا أستسيغ المطالبة بانشاء وطن قومي لليهود ، ففلسطين ملك للعرب ، تماماً كما أن انكلترا ملك للانكليز ، وفرنسا للفرنسيين . واذا لم يكن لليهود وطن إلا فلسطين

فكيف بهم اذا أرغموا على ترك الأماكن الأخرى التي يعيشون فيها في انحاء العالم ؟ ان فلسطين التي جاء ذكرها في التوراة ليست في رقعة الأرض الجغرافية ، بل هي في قلوبهم . أما اذا كان لابد لليهود من ان يتمسكوا بفلسطين ، الأرض الجغرافية ، فمن الخطأ كذلك أن يدخلوها في ظل المدافع البريطانية وعلى أسنة رماحهم ، وليس هناك ما يمكن أن يقال ضد مقاومة العرب في مواجهة عقبات لاقبل لهم بها » .

وعندما مر بعدن في طريقه الى لندن لحضور المائدة المستديرة عام ١٩٣١ ، خاطب الجموع العربية المستقبلة قائلاً :

« ان هــذه الجزة العظيمة الــتي ولد فيها محمد وبعث فيها الاسلام مثل حي على التسامح الديني وعلى انسانية الانسان . » .

وقد قتله أحد بني دينه ووطنه ، لأنه نادى بوحدة الهنـد بين الاسلام والهندوس ، فما كان يريد ان يظفر المستعمر بتقسيم البلاد ، ولأنه كان يخص الفئة المسلمة بالمحبة التي كان يخصها للهندوس لأن الفئتين من شعبه ، فضربه ثلاث رصاصات أردته قتيلاً ، وصعقت البلاد ، وتألم الشعب . وقد نعاه جواهر لال نهرو بالراديو ساعة مصرعه فقال :

« لقد خبا النور من حياتنا ، وانتشر الظلام في كل مكان . فلم أعد أعرف ما أقوله لكم ولا كيف أقوله . لقد اختفى زعيمنا المحبوب (بابو) أبو الشعب من بيننا . لقد قلت ان النور قد خبا من حياتنا ولكنني أخطأت ، فإن هذا النور الذي سطع على البلاد لم يكن نوراً عادياً . ان النور الذي أنار حياة هذه البلاد سنوات عديدة ، سوف يظل يضيئها سنوات عديدة اخرى . وسوف يبقى ماثلاً أمام أعين الناس بعد ألف عام ، يراه العالم أجمع ، ويدخل السكينة على قلوب لاحصر لها ، فإن هذا النور كان يمثل الحق في صورته الحية ، فلقد أقام هذا الرجل الخالد بيننا يحمل رسالة الحق الخالدة ، ويذكرنا بالطريق المستقيم ، ويجذ بنا بعيداً عن الخطأ ، ويقود هذا البلد العتيد نحو الحرية » .

غاندي في سطور

● ولد موهانداس كارامشاند غاندي في ٢ تشرين الاول عام ١٨٦٩ في بلدة صغيرة اسمها بوربائدر . والمهاتما لقبه ومعناه : الروح العظيمة . وقد احتفل العالم في الشهر الماضي بالذكرى المئوية لميلاد غاندي .

● بعد أن انهى دراسته الثانوية ذهب في ايلول عام ١٨٨٨ الى لندن لدراسة الحقوق ، ثم عاد الى بومباي ليزاول المحاماة ، التي لم ترق له مهنة .

● وفي عام ١٨٩٣ ذهب غاندي الى جنوب أفريقيا لمهمة قضائية . وهناك لمس الاضطهاد والضغط اللذين يرزح تحتها مواطنوه الهنود في ناتال . وفي جنوب أفريقيا بدأت تتكشف انسانية غاندي ، وبدأت تتكون أول مبادىء فلسفته الداعية الى مقاومة الاستعباد ومحاربة الظلم بالوسائل السلمية واللاعنف .

● في عام ١٩١٤ عاد غاندي الى الهند بعد أن أحس بأنه عمل كل مايستطيع لرفع الظلم عن مواطنيه وتحقيق مطاليبهم العادلة . عاد ليتابع رسالته في الوطن ذاته . وكانت شهرته قد سبقته الى بلاده .

● كان أول من دعا الى مقاطعة البضائع الانكليزية ، وراح يغزل ثوبه بنفسه ليشجع الناس على أن يعملوا بأنفسهم ويتحرروا من الاستعمار والاقتصاد الاجنبي . كما دعا الى مقاومة الاستعمار البريطاني باسلوب اللاعنف واللاتعاون اللذين عرفا عنه . وتعرض غاندي للاخطار والسجن ، ولكن التفاف الشعب حوله وانتشار أفكاره انتشاراً واسعاً جعل الحكومة البريطانيه تذعن في النهاية وتسلم الحكم للشعب .

● لم يكن غاندي فيلسوف « الأبراج العاجية » ، فقد انبثقت فلسفته من عذاب الشعب ومآسيه وآلامه ، انبثقت من الشارع والقرية والمعمل والكوخ ، انبثقت من البطالة والفقر المنتشرين في طول الهند وعرضها . كان فيلسوفاً مكافحاً أشبه بنبي جديد .

● توفي غاندي في نهاية كانون الثاني عام ١٩٤٨ بعد أن صرعته ثلاث رصاصات غادرة من مجرم طائفي .

تراث غاندي

بقلم السيدة أنديرا غاندي
رئيسة وزراء الهند

إن ادراك الفرد لشخصية غاندي ومدى تفهمه لحقيقتها، مقياس لما يطرأ على تفكيره من نمو وتطور. فحين كان غاندي حياً كان كثيرون ممن في سني يجدون من الصعب عليهم أن يفهموه، ويضيقون بما كنا نعتبره « بدعاً »، كما كانت بعض تعبيراته غامضة علينا. لقد كنا نسلم جميعاً بقداسته ولكنا كنا نختلف معه في اقحام الغيبيات والروحانيات على أمور السياسة.

وهذا القول لم ينطبق على جيلي وحده ، فقد وصف أبي في سيرته الذاتية الصعوبة التي كان هو وغيره من أبناء جيله يصادفونها في التوفيق بين آراء غاندي وبين تفكيرهم . على أن تجارب المد والجزر التي صادفتهـــا حركة الهند الوطنية ساعدت ابي شيئاً فشيئاً على فهم غاندي فهما أوسع وعلى نسج العناصر الأساسية من تفكير غاندي مع عناصر تفكـيره في نسيج واحد . لقد نعته أبي بأنه « ساحر » وحاول في اخلاص أن يترجم الآراء الغـاندية الى لغة العصر لكي تكون أكثر قبولاً عند الناس ولكي يمتد أثرها الى الشباب والمثقفين .

أما غاندي نفسه فلم يكن يتطلب من الناس طاعة عمياء ولم ينتظر منهم قبول أهدافه ووسائله دون تفكير أو تمحيص ، بل كان يشجع الناس على النقاش ويستحثهم على المحاجة . نعم ، فكم من مرة حاججته وأنا بعد فتاة صغيرة ! فهو لم ينظر أبداً الى رأي شريف على أنه تافه ، وكان دائماً يجد من الوقت ما يكرسه لأولئك الذين يختلفون عنه في الرأي ، وهي صفة نادرة حتى بين المعلمين في الهند وغيرها . وهو فوق هذا لم يدّعِ أن وحياً يهبط عليه ، ولم يلجأ يوماً الى وعـد أو وعيد ، ولم تثقل رسالته على ضخامتها كاهله ، بل كان قديساً يمازح الناس ويجد في نفسه مكاناً للضحك .

ويتصادف أن يكون العام المئوي لذكرى مولد غاندي هو كذلك الذكرى الخامسة عشرة لمذبحة حديقة جاليانوالا . وخليق بأولئك الذين يخلطون بين الصرامة أو الفظاظة وبين القوة أن يفكروا بما كان لهذا الحادث الغاشم من أثر على مستقبل الامبراطورية البريطانية كلها ، فقلما كان لحادث بذاته مثل هذا الأثر في استثارة شعب بأجمعه وفي دفعه دفعاً الى اعادة تقدير قيمه وأهدافه . لقد كان لهذا الحادث وقع شديد في نفوس رجال من أمثال جواهر لال نهرو والشاعر

رابندرانات طاغور . فأما طاغور فقـــد رد رتبة الفروسية التي كانت الحكومة البريطانية قد أنعمت بها عليه وشرع يكتب في قوة وادراك عن مشكلات الاستعمار . وأما جدّي موتيلال نهرو فقد اجتذبته تعاليم غاندي اليها هو وسائر أفراد العائلة فاذا بهم يهرعون اليه جميعاً . وتغيرت حياتنا من أساسها بعد ذلك ، كما تغير مزاج البلاد من أقصاها الى أدناها . نعم ، لقد كانت تلك السنة المشهودة هي السنة التي أسلمت دفة الحركة الوطنية لغاندي . فاذا نظرنا الى الخلف ، عبر نصف القرن الماضي ، أمكننا أن نتبيّن أثر شخصيته وتعاليمه كاملا ، وان كان تقدير كليهما تقديراً كاملا ما زال أكثر مما نطمع في تحقيقه اليوم ، فنحن ما زلنا قريبين منه ، وما زلنا في حالة انتقال ، ولن يستطيع الناس أن يقدروا ما أداه غاندي للهند ، وما أداه للانسانية جمعاء ، إلا بعد حقبات طويلة من الزمن .

ومع ذلك فنحن لا نملك إلا أن ندهش من الاتجاه الجديد الذي دفع فيه تاريخنا في تلك السنة الواحدة، فلقد بدا وكأنه رفع بيديه النحيلتين شعباً بأكمله . فما أعظم التحول الكبير الذي أحدثه في الحياة الشخصية لهـذا العدد الضخم من الناس ، كبيرهم وصغيرهم ، عليتهم ووضيعهم على السواء ! والحق ، لأن يكون الانسان المحرك الرئيسي في ميدان السياسة أمر لا يعلو في قدره على أن يكون العامل الذي يؤثر في حياة الناس الداخلية . نعم ، فلقد كان غاندي يختلف عمن سبقوه على مسرح الوطن . ذلك لأنه رفض أن يتبع سياسة الصفوة من الناس وآثر أن يكتشف مفاتيح العمل الجماهيري ، فارتبط ارتباطاً وثيقاً بعقول الجماهير ، يفسر ما يدور فيها ، وفي الوقت نفسه يصوغها صوغاً جديداً . لقد كان يمثل قمة الموج ، أما الموج نفسه فكان الشعب .

لقد حررنا غاندي من الخوف ، فان تحرير البلاد سياسياً لم يكن نهاية الشوط ، بل كان أحد المنتجات الفرعية التي تنبعث من تحرر الروح . بل لعل التبدل الذي أحدثه غاندي في مناخ الهند الاجتماعي كان أعظم وأبعد أثراً ، فلقد حررنا كذلك من القيود التي كانت تفرضها علينا تقاليـدنا الاجتماعية ، وأزال الحواجز التي كانت تحول دون تقدمنا الاجتماعي ، فإلى تسليمه البديهي بالمساواة بين النساء والرجال ، بين وضيـع المنبت و كريمـه في تعبير ذلك الوقت ، بين أهل المـدن وسكان الريف ، يرجـع الفضل في اندفاع الجماهير الى حلبة الحركة الغاندية . لقد ظهر في الهند على مدى تاريخها الطويل مصلحون كثيرون جاهدوا ضد نظام طبقاتهـــا الهرمى وضد المركز الوضيع الذي كان من حظ المرأة ، ولكن أحداً منهم لم يستطع أن يكسر حواجز التمييز كما فعل غاندي ، وان نساء الهند لمدينات له بدين خاص من الاعتراف بالجميل بقدر ما طوق جميله عنق جميـع الفئات الأخرى التي تحملت أوضار القيود القديمة ردحاً طويلًا .

لقد كتب غاندي يقول :

« لا يقولن أحد انه من أتباع غاندي ، وحسبي أن أكون تابع نفسي . بل انني أدرك مدى قصوري كتابع لنفسي ، لأنني لا أستطيع أن أعيش وفق معتقداتي التي أجاهد من أجلها »

إن من الغانديين من يريدوننا على أن نؤمن بأن غاندي قد أخرج للناس فلسفة عالمية ، تحلل كل شيء ، وتوفق بين كل شيء ، وتصف الدواء لكل ظرف أو طارىء . ولكن ما أظلم هذا القول عن رجل لم يدّع لنفسه العلم بكل الأمور ، ولم يتوقف يوماً عن تجاربه في صدق وإدراك ! لقد كان غاندي شخصية

متكاملة ، لكنه لم يتعامل قط بلغة التعميم والاطلاق الشامل . ان قلة من الرجال المثاليين هم الذين بزوه في مثاليته ، وقلة من هؤلاء كانوا أكثر صيغة عملية منه . فلقد كان يضع الحقائق الأساسية أمام الناس ، لكنه في كل خطـة من خطط العمل التي رسمها كان يسير على مبدأ « خطوة واحدة تكفيني » .

لقد تعرضت خطة التنمية الصناعية المرسومة التي سارت عليها الهند خلال الحقبتين الأخيرتين في بعض الحالات للنقد واعتبرت خروجاً متعمداً على المبادىء الغاندية . غير أن أولئك الذين يوجهون هذا الاتهام ويحبذون الصناعات الصغيرة لا يترددون هم أنفسهم في استخدام ثمرات الصناعات الكبـيرة ، كالطيارات والسيارات والتليفونات . وغاندي نفسه لم يقاطع السكك الحديدية وكان يستخدم الساعات في المحافظة الدقيقة على مواعيده . فاذا كنا نستخدم السكك الحديدية والساعات فأي حكمة في ألا نصنعها بأنفسنا ؟ واذن فمن واجبنا أن نتفهم رأي غاندي إذ يحبذ الصناعات الصغيرة في وضعه الصحيح . لقد كان غاندي يكره كل اسراف أو تبديد ، فكان حريصاً على استخدام الطاقـات الكامنة في هذا الجيش العرموم من الرجال العاطلين في الريف ؛ بغية انتاج مزيد من السلع للشعب وبعض الثروة لأنفسنا . أضف الى ذلك أنه ، شأنه شأن غيره من الرجال الذين سبقوه من ذوي الحساسية الفائقة ، كان متأثراً بالنتائج الموحشة التي أسفرت عنها المرحلة الأولى من مراحل التصنيـع ، ولذلك فقد أراد ، وهو البصير بأحوال الناس المهتم بمصائرهم ، أن يحذرنا من أن نصبح أسرى لأعمالنا ، ولهذا ففي خلال كتاباته المستفيضة عن الآلات ومكانها بين الناس نجد فقرات كثيرة كلها تشهد بأن نظرة غاندي الى الآلات كانت اوسع وأكثر انسانية في ناحيتها العلمية مما يريدنا بعض المفسرين الحرفيين على أن نصدقه .

وفي رأي ، أن غاندي لم يكن مجموعة من الآراء والتعاليم الجافة بل رجلا يشع حياة ، حريصاً على أن يذكرنا بأرفع المستويات التي يستطيع الانسان أن يبلغها . لقد كان يعمل للمستقبل ، وهو الذي حوى خير ما في الماضي وعاش في الحاضر ، ومن هنا كانت آراؤه الرفيعة لا يحدها زمان . ان كثيراً مما قاله وما كتبه قصد منه حل مشكلات عاجلة ، وبعضها قصد منه أن يكون هدياً للأفراد من صميم اعماقهم ، ولم يلجأ في هذا أو ذاك الى آراء مستقاة ، بل كان يصوغ آراءه بنفسه ويتخذ منها أداته وعدته وهو يجري تجاربه في معمل حياته .

لقد قال جوبال كريشنا جوكهال ، وهو يتحدث عن أعمال غاندي في جنوب افريقية ، ان غاندي قد جعل من الصلصال أبطالاً ، وإني لأتساءل أحياناً : ألم تعد صلصالاً مرة اخرى ؟ ان المجد الذي يصنعه المعلم الصادق في زمنه لا يمكن أن يدوم طويلا ، لكن تعاليم أمثال هؤلاء المعلمين لها مرمى أبعد بكثير من زمنهم ومن حدود بلادهم . ونحن الذين ولدنا في زمن غاندي ، ونشأنا في بلده ، مدينون له بدين خاص يحتم علينا أن نحتفظ بذكراه ، فلقد كانت حياته ، أكثر مما كانت كلماته ، رسالته الحقة الى الناس .

والانسان حين يحقق لنفسه صفة عالمية يفعل ذلك ، لا رغم زمانه ومكانه بل من خلالها ، فلقد شدّ غاندي نفسه الى الرجل العادي في الهند وارتبط به ارتباطاً كلياً ، حتى لقد غيّر من لباسه ليوائم لباسه ، ولكنه ظل مع ذلك على استعداد كامل لتقبل أحسن الآراء التي تأتيه من جهات أخرى من العالم ، وهكذا فإن الأثر الذي تركته في نفسه اقامته في انجلترا ، كطالب يطلب العلم ، ثم في جنوب افريقية ، كمحام يمارس مهنته ، كان واضحاً جلياً ، انعكس في اصراره

على مراعاة القواعد الصحية وفي عادة اختبار صحة كل ما يسمعه بتطبيق شروط البينة عليه تطبيقاً دقيقاً ، فاذا استصوب فكرة هضمها ثم اخرج منها حلولاً هندية لمشكلات هندية .

وثمة جانب آخر من جوانب تراثه المجيد ، ألا وهو العلمانية التي عاش لها واستشهد في سبيلها . والعلمانية لا تعني بطبيعة الحال العزوف عن الدين أو عدم المبالاة به ، بل تعني احترام جميع الأديان ـ لا تسامحاً ، بل احتراماً ايجابياً . والعلمانية بعد هذا تتطلب جهداً متواصلاً وفحصاً للنفس لا ينقطع . لقد نقش آشوكا فوق الصخور هذه الحكمة البالغة وهي أن المرء لن يحترم دينه حتى يحترم دين غيره ، وقد كان للهند شأو عظيم وارتفعت مكانتها طالما كانت هذه الحكمة العظيمة أمراً يعترف به حكامها ويمارسونه . وفي وقتنا الحاضر جعل غاندي وجواهر لال نهرو من هذه الحقيقة الكبرى عقيدة حية بدونها لن يكون لشعب الهند مستقبل .

فاذا انتقلت الى الحديث عن جانب آخر من تعاليم غاندي ، وهو عدم العنف ، ترددت كثيراً ، ترددت لا لأني أجد ما يسوغ العنف ، بل لأن الناس قد كدسوا من أسلحة القتل والدمار ما يحملني على التشكك أحياناً في أن من حقنا حتى أن نؤمل . فالحروب لا تفتأ تتفجر هنا وهناك ، ولكن أكثر من هذا مدعاة الى الألم وإثارة للذعر ما نشهده اليوم من نمو الحقد والكراهية في عقول الناس وازدياد سمات العنف في أعمالهم في جميع أرجاء العالم ، وما يستتبعه ذلك من اللجوء في غير روية أو حذر الى أساليب الاستثارة . على أن مما يؤثر عن غاندي قوله : « في وسط الظلام الحالك يظل النور موجوداً » ، ومن ثم فان الواجب يقتضينا أن نظل نحتفظ بثقتنا وايماننا . ولعل أسمى ما يزكي غاندي أنه كشف للناس عن

طريق مقاومة القوة المسلحة من غير سلاح . واذا كان ذلك قد حدث مرة أفلا يمكن أن يحدث مرة أخرى ؟

ان الحياة معناها الجهاد ، وكلما سما هدفك الذي وضعته نصب عينيك تطلعت نفسك الى مزيد من الانجاز ، وزاد ما هو مطلوب منك من عمل وتضحية لقد استطاع رجال من جميع الأديان أن يكشفوا للناس عن حقائق الحياة الخالدة، ومن حسن طالع الهند أن تكون قد أخرجت من بين أبنائها من بعثوا الحياة من جديد في آرائها وأفكارها القديمة فجعلوها جزءاً من حياة الناس . وهكذا رأينا الناس في الهند في خلال حياتنا يسترشدون في أخطر الأوقات وأحرجها بالمهاتما غاندي وجواهر لال نهرو اللذين أفنيا نفسيهما في الصالح العام . لقد كان كل منهما مكملاً للآخر وقد علّما الناس أن كل قرار يجب أن يوضع موضع الاختبار الصعب من حيث مدى ما له من أثر على خير الجماهير ورفاهيتها ، وهو مبدأ كفيل بأن يجنبنا الخطأ أكثر من كل العبارات الرنانة التي تنتهي بحرف (I S M) ، أو كما جاء في عبارة جواهر لال نهرو :

« اعظم ماتقدمه من العبادات أن نتعهد بأن نكرس انفسنا للحق وللمبدأ الذي عاش هذا المواطن العظيم ومات من أجله »

رسالة الرئيس الهندي الراحل الدكتور ذاكر حسين بمناسبة الذكرى المئوية لغاندي

أستطيع بوصفي هندياً أن اتحدث اليوم الى الشعب الهندي عن المهاتما غاندي بنصيب اوفر من الحرية والثقة . لقد كانت الهند هي الموطن الذي ولد فيه غاندي ، ونطق ، وكتب، وعمل بدون انقطاع ولا كلل قرابة نصف قرن . وكانت الهند ايضاً الموطن الذي سال فيه دمه الطاهر عندما صرعته رصاصات مجرم ، وذهب شعلة لمجد لا يجارى من أجل قضية السلم والمحبة بين مواطنيه . ولكن كيف يسعني في الوقت الحاضر من تاريخ العالم أن أشرّح عقل الجنس البشري واستجاباته بوصفي هندياً وغير هندي. ففي ذهني أسرة الانسان كلها أسرة واحدة وغير مجزأة وغاندي أيضاً لم يكن هندياً فقط ، وهو لا ينتمي الى الهند وحدها . فقد تمثل خير ما في كل حضارة وثقافة معروفتين لنا . ونحن نرى الجنس البشري ما زال يواجه مسائل ويتعثر بمشكلات هي من صلب حياته وعمله . ولم يصادف التاريخ من قبل أبداً إمكان اقتراب « عالم واحد » منا كما يحدث الآن ، ومع هذا لم تكن هذه الامكانية في وقت من الأوقات أكثر خداعاً عما هي عليه اليوم . دعوني ، لهذا ، لا أتنصل من مسؤولية التحدث الى الناس في كل مكان، اللهم ان كان بوسعي أن اصل اليهم . وأتذكر ، تتنازعني عواطف لايمكن وصفها، أننا الآن على عتبة السنة المئوية لغاندي .

٤ *

إذا كان علينا أن نفهم من أجل أن نعرف ، وأن نفتح قابلية التسليم من أجل نفهم ، فإن من واجبنا جميعاً في الهند ، نحن الذين نقدس رسالة غاندي، أن ننقلها الى الناس في كل مكان وبكل ما في وسعنا من قدرة . ونحن على ما يبدو لا نستطيع أن نفعل ذلك ما لم يكن لدينا مقياس للايمان والاعتقاد بأن ماندر غاندي نفسه له، وما أنجزه ، له أهمية مستمرة للجنس البشري. وأنا نفسي أؤكد أن تأثير غاندي على التقدم البشري ستتزايد أهميته مع توالي العصور .

وغاندي ، شأنه شأن الرجال العظام الآخرين في التاريخ ، كان منهمكاً في أفكار وبرامج كانت أكثر ملائمة لوقتها الآني وبيئتها ، ولعلها لم تكن راسخة بالنسبة لكل الناس في كل وقت . ونحن نستطيع أن نتركها للتاريخ لتقصي مثل هذه المسائل غير الدائمة في فكر غاندي وعمله . ولكن علينا ألا نفشل اليوم في تركيز الانتباه على الفضائل التي لا تقدر بثمن للأفكار الأساسية ، وكذلك في تركيز الانتباه على الأساليب الأساسية للعمل والترتيبات الاجتماعية المصاحبة لها التي جاءتنا من غاندي . ومن الخطأ أن نتذكر غاندي قديساً فقط ، لا لشيء إلا لأنه كان بكل عمق انساناً في العالم المهتم بالمشكلات السياسية والاقتصادية والثقافية للهند الحديثة والعالم .

لقد كان انساناً كاملاً تتوازن فيه الفضائل الروحية والأخلاقية والاجتماعية والثقافية في موسوية رائعة لحياة كاملة . ولا يوجد زعيم في ذاكرتنا تتوازن في نفسه بمثل هذا الكمال الاستجابات الديناميكية لتحديات الروح الانسانية ولتحديات الحياة المادية في وقت معاً . إن التقدم الروحي والمادي كانا متلازمين ليس في فكر غاندي فحسب ، بل وفي كل منهج من مناهج العمل المخلص الذي أصبح هو تجسيداً له . يجب أن نحفظ هذا الأسلوب في عقولنا عند أية محاولة لفهم غاندي .

وأنا لا أدعي أبداً أن تفسيري هو نهـائي على أية حـال ، أو ملزم لأي شخص. وأكون مسروراً كل السرور إذا كانت كلماتي ستجعل مستمعيّ ينظرون نظرة جديدة بذهن منتج الى حياة غاندي وعمله .

لقد أشار غاندي ، قبل كل شيء ، الى الواقعية الحتمية لحكومة العـالم الأخلاقية . فلا الفرد ولا المجتمع ولا الأمة يستطيعون أن يعيشوا خارج نطاق القانون الأخلاقي إلاّ عند تعرضهم للهلاك . ولم يقر غاندي أبـداً احتمال وجود اختلاف بين « اخلاقية » الفرد أو الجماعة أو الأمة . فالأفراد والأمم يجب أن يشغّلوا أدوات السياسة والاقتصاد ضمن القانون الأخلاقي ، إذا كانت الحضارة والثقافة مما يقام لهما وزن. إن القانون الأخلاقي ،ضبط كل نوع من أنواع الاستغلال السياسي أو الاقتصادي أو الثقافي . كما ضبط ، على درجة واحدة من المساواة ، كل نوع من أنواع السيطرة من جانب الأفراد أو الجماعات على الآخرين . لقد كان غاندي يصر على عدم وجود اختلاف بين الأخلاق القومية أو الجماهيرية أو الفردية. إن نتائج القبول بعقيدة الممارسة العالمية للمبادىء الأخلاقية هذه بعيدة المنال ، مما يجعل قلة منا راغبة في مواجهة هذا التحدي ؛ ومع هذا فإننا إذا لم نفعل ذلك، فهل ثمة مستقبل على الإطلاق للمجتمع الانساني ، في عالم مليء بتهديدات التنافس والتزاحم والأسلحة النووية ؟

لا شيء يعرف عن غاندي قدر اصراره على نقـــاوة وسائل تحقيق أي هدف عظيم أو غاية عظيمة مهما كانت ثورية أو ملزمة . فقد كانت الوسائل النقية لا تعني بالنسبة اليه أكثر من العمل القائم على الحب واللا عنف . ببساطة متناهية

لقد حدد اللا عنف بأنه الحب عملياً . ولهذا كان الكره والعنف وسيلتين غـــير نقيتين . لقد كانت القسوة والارهاب والعنف مرفوضة تماماً . وإن واحدة من أهم الكلمات في اصطلاحات غـــاندي ، وهي « الساتياغراها » ، تعني بشكل أساسي العمل المباشر غير العنيف .

دعونا نوضح بشكل لا يدع مجالاً للشك في عقولنا أن اصرار غاندي الذي لا يعرف اللين كان على الفعل اللا عنيف وليس على اللا عنف فقط . إن لا عنف غاندي كان فعلاً ، هنا والآن، ضد كل اجحاف وظلم . ومع أن اللاعنف لهذا السبب ، هو قـديم في حد ذاته قـدم التلال ، فان الساتياغراها أو العمل المباشر اللا عنيف ربما لا يزيد عمره عن عمرغاندي . ولنتذكر أيضاً أن الساتياغراها ليست مجرد عمل فردي وإنما هي عمـل جماعي وجماهيري . ولم يكتشف غـاندي الساتياغراها فحسب، بل نظـّم وقاد ثلاث حركات عظيمة للا عنف ، تحتوي ملايين من الناس في الهند وتنقلهم من الخضوع الى الحرية، ومن الامبراطورية البريطانية الى الجمهورية الهندية . ولا يستطيـع أي تلميذ أمين للتاريخ أن ينكر أن التيـار الرئيـسي لنضال الهند من أجل الاستقلال يتألف من ثورات اللا عنف هـذه تحت زعامة غاندي . وقبل أن يكتشف غاندي « الساتياغراها » ويمارسها ، كانت تبدو حتمية تاريخية أن يخضع الضعيف للقوي أو يهلك . وبعد غاندي لم تعـــد هذه الحتمية صحيحة في تاريخنا . ففي الساتيا غراها وجد الضعيف في بـدنه القوي في خلقه السلاح الفعال ضد القوي في بدنه ولكن الضعيف في خلقـه . لذا ليس عن عبث وجود مريدين للساتياغراها ينظرون اليها على أنها أعظم سلاح في حقبة الانسان في معركة العدالة والحرية في كل مكان ووفق كل الظروف . وبقـدر ما يزداد تفهم العالم لمعنى الساتياغراها وقوتها ، تزداد مواجهة كل ظلم واجحاف بتحد رهيب من

جانب أولئك الذين يعتبرون ضعافاً لا حول لهم ولا طول . ومن الصعب أن نجد أي ظلم أو سيطرة يستطيعان مواجهة التحدي الرهيب من جانب ملايين البشر الراغبة عن قصد في الموت دون أن تخضع .

وعندنا بعد ذلك تعليمات غاندي حول احترام كافة التقاليد الدينية العظيمة في العالم على قدم المساواة . ولقد رأينا بعين لا تخطىء أن ملايين لا تحصى من البشر في أرجاء العالم لا تزال تعيش تحت تأثير ديانة أو أخرى رغم كل تطور العلم والتكنولوجيا . لقد أراد وحدة الأديان من أجل أن يكتشف قوتها الداخلية وما فيها من تأثير اقتصادي وسياسي . ومفتاح الوحدة الدينية الداخلية هو في الاحترام المتساوي للتقاليد الدينية كافة وفي الزيادة المتروية والذهن المتفتح . فبدون روح الدين والأخلاق اللتين تؤثران على السياسة والاقتصاد كان يمكن للأديان كلها أن تموت من الضعف أو تتلاشى أمام غزو المادية ، التي تنمو كموجة مد في غمرة العلم الحديث والتكنولوجيا . كان غاندي الزعيم السياسي في عصرنا ، الذي أثبت بما لا يدع مجالاً للشك أن الحوافز الراسخة في الدين يمكن أن تطلق وتجند من أجل الأهداف السامية في تحقيق الحرية الانسانية والعدالة الاجتماعية .

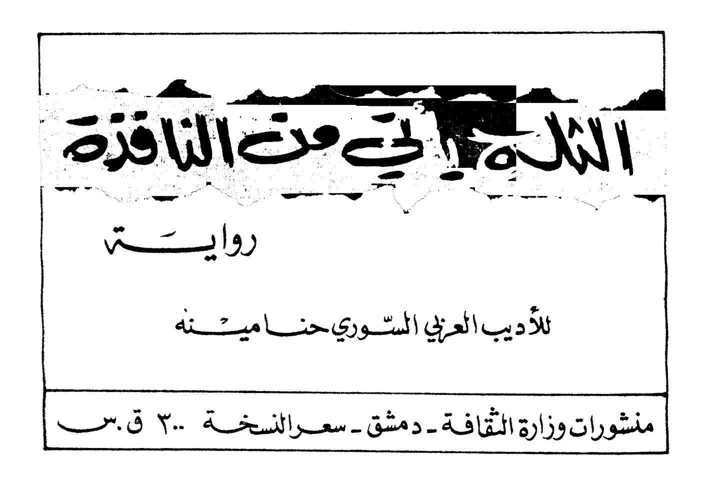
لقد خلق غاندي مفهوم ديمقراطية جديدة لا محيص لنا منها جميعاً إذا كنا نرغب أن نبقى ديمقراطيين حقيقيين . إن « الأفقر والأدنى والضائع » ـ اذا استشهدنا برابندرانات طاغور ـ ، كانوا من الأهمية بمقدار الأكثر تطوراً وقدره ضمن ديمقراطية ما . لقد رفض غاندي قبول الديمقراطية حكماً غير مقيد للأكثرية ، كما رفض بالتأكيد أن تكون دكتاتورية لـلأقلية ، مهما كانت حازمة أو ثورية . ولم يوافق أبداً على فكرة أن القطاعات الأضعف قد تخفق لأن القطاعات الأقوى قد ضيقت على الحرية والرخاء . من أجل أن تستحق الديمقراطية اسمها يجب ألا

تعامل الأقلية بعناية بالغة فحسب ، بل أن تستهدف مجموع حرية ومجموع صالح الشعب كله بدون أي تمييز في الجنس أو الطبقة . لقد نهض من أجل مجتمع لا طبقي ولا قبلي يتحقق من خلال نضال اللاعنف وتحفظه عقوبات السلام . هذا المفهوم عن الديمقراطية الجديدة الذي يصل الى أعمق مستوى بدون تحفظ يدعى « السارفودايا » . والفهم الصحيح للسارفودايا في سياق العـــالم اليوم يحمل في ثناياه أبعد آفاق الديمقراطية .

لقد نهض غاندي بدون تحفظ من أجل سلامة الفرد الكاملة وتطوره ، ولكنه أصر على أن هذا لا يمكن أن يكون إلا ضمن مجتمع غير مستغل ، مجتمع عادل كل العدل . إن أخلاقية الفرد وأخلاقية المجتمع ليستا منفصلتين . ومعيار الحضارة والثقافة عند غاندي كان العدالة المتكافئة والفرصة المتكافئة لكل انسان ؛ اللتين تسمحان للموهوبين أن يرتقوا الى أعلى عليين ، واللتين تمنحان الضعفاء الفرصة الكاملة أن يرتقوا حتى أعلى درجات طاقتهم . إن كل موهبة ذهنية أو عقلية أو جسدية لدى الأكثر رقياً يجب أن تكرس تماما وبدون تحفظ لخدمة الأقل رقيا . ويجب أن يتحقق هذا من خلال التربية والتشريع ومن خلال الساتياغراها ، حيث تكون ضرورية بصورة مطلقة . هنا تكمن بذور فكرة غاندي حول الامانة أو (الوصاية الاجتماعية Social Trusteeship) التي ما تزال بانتظار دراسة وتحليل أكمل من قبل خيرة مفكرينا .

أبمقدوري أن اسأل ، بكل تواضع وإخلاص ، هل يمكن لعصرنا الحاضر وجيلنا أن يعرض عن مثل هذا القائد المتألق الذي جمع بين ارقى ذهن وأكبر قلب ، والذي تجسدت فيه أعمق آيات الوفاء للصدق والحنان ، مقدماً بهذا ، القوة المحركة للعمل الثوري في قالب اللا عنف ؟ فبدون فلسفة غاندي الأخلاقية التي

تنقي سياستنا وترفع من اقتصادياتنا ، وبدون لا عنفه الذي يدفـــع بالأسلحة النووية بعيداً ويقود العالم الى نزع السلاح ، وبدون مفهومه عن الديمقراطية الذي يمنح الأمن والنمو لأفقر الناس وأضعفهم في المجتمع ، وأخيراً بدون التوفيق بين حرية الفرد وحرية المجتمع والأمة ، وهو ما ناهض من أجله ، ليس ثمة سوى أمل ضئيل في انقاذ الجنس البشري . فإما أن يكون من ميزة هذا القرن أن يصغي لغاندي ويقفز الى نظام اجتماعي جديد وعالمي من العدل والمساواة والسعادة ، أو تكون طامة عصرنا الكبرى بتجاهله والسير بثبات نحو حافة الهاوية التي لا يوجد فيها سوى ترسانة الأسلحة النووية . أنا لا أدافع عن أي تسليم أعمى بكل ما جاء به غاندي ، ولكنني أدافع ، بكل ما عندي من قوة ، من أجل دراسة أكمل وفهم أعمق لما نذر نفسه من أجله في عصرنا برسوخ وبطولة ودون نكوص.



مدخل إلى فلسفة غاندي

ندره اليازجي

« سيكون صعباً على الاجيال القادمة ان يصدقوا بأن انساناً كهذا ، بدمه ولحمه، قد سار على هذه الأرض » .

انشتاين

« عاش غاندي من أجل تحقيق السلام والانسجام والمصالحة الوطنية ، وكرّس حياته الثمينة من أجل تطبيق هذه المثاليات . ان لب تعاليمه ستظل حية لكل الأجيال والشعوب وذلك لأنها تتجاوز الزمان والمكان . اننا كثيراً ما انحرفنا عن الطريق الذي شقه لنا . واني متيقن من انه ، لكي نحيا ونظل أمة قوية ومتحدة ، يتوجب علينا أن نضع نصب عيوننا مبادئه الحكيمة » .

ذاكر حسين

« مات غاندي ... وبموته شعر الشعب الهندي باليتم واليأس . جميعنا نشعر بهذا الشعور ، ولست ادري متى يحين وقت تخلصنا منه . وهناك الى جانب هذا الشعور ، شعور آخر بالفخار والاعتزاز والامتنان بأن شخصاً جباراً مثله قد وهبناه في هذا الجيل. وفي العصور القادمة ، سيفكر الناس بهذا الجيل الذي سار فيه رجل الله هذا على الارض ، وسيفكر فينا ، نحن الذين ، مهما كنا صغاراً ، نستطيع ان نسير في طريقه ويمكننا ان ندوس تلك الارض المقدسة التي وطأتها قدماه ...

نهرو

يعتبر الدخول الى فلسفة غاندي دراسة للشخصية الانسانيـــة ولمعنى وجودها في هذا العالم. فقد كان غاندي مثال الانسان الروحي والخلقي والاجتماعي والسياسي والاقتصادي . انه كان مثالاً حياً للانسان الماهيّة والجوهر ، انسان الروح ، وتطبيقاً عملياً له . وإننا نستطيع القول إنه حقق ملكوت الله على الأرض .

ويختلف غاندي عن غيره من المنادين بالخلاص والأبدية . فبينما ينادي أولئك المصلحون الاخلاقيون بملكوت سماوي منفصل عن ملكوت أرضي ، ينادي غاندي بملكوت سماوي لا يطبق الاّ في المجتمع الانساني ولا يتحقق الاّ فيه . ولذلك لم يتخذ هذا الانسان الفاضل من العزلة ملاذاً له ولا من الانفراد والانقطاع عن الآخرين وسيلة للخلاص ، بل رأى الخلاص في المجتمع ، في عالم الناس . وآمن بأن خلاص الانسان يعني تحقيقه لوجوده الاجتماعي .

ولا يعتبر غاندي الشخصية الانسانية شيئاً منفصلاً عن الشخصية الاجتماعية . فالمجتمع ، في رأيه ، حقل لتطبيق الأخلاق والروح والفضيلة والقيم الفكرية كلها . وقد قاده مبدأه هذا إلى حمـــل مشعل التحرر الوطني والتحرر الانساني من كل خوف وعنف وكره ، كما قاده إلى إعلان جهاد على المساوىء الاجتماعية حتى يتحقق المجتمع الفاضل . ولا نبالغ ان قلنا ان غاندي كان المطبق الوحيد لمثل نادى بها فلاسفة أمثال أفلاطون والفارابي . ولهذا السبب ذاته ، فقد جمع هذا الانسان العظيم الذي حقق انسانيته خير تحقيق بـــين القداسة المجردة والقداسة المحققة ، بين المثال والواقع ، بين السياسة ومحبة الحقيقة .

ولم يكن غاندي مثل الفلاسفة الآخرين الذين ظلوا في أبراجهم العالية ينادون بالاصلاح الفكري والروحي والمادي للمجتمع . فهو لم يفعل مثل هؤلاء،

ولم يضع المؤلفات الكبرى ، ولم ينشيء أكاديمية أوليسيوم ، بل نزل إلى الجماهير ، الى المنبوذين ، وطبق آراءه ونفذها ، وعاش حياته الروحية دون أن يكون قد تسنّم مركزاً اجتماعياً . وفي عمله هذا ، نحت غاندي آراءه ومثله في صدور الهنود وسطّر أفكاره في عقولهم ، وأثار فيهم قواهم الوجدانية التي فعلت فيهم ، عندما استجابت لندائه ، فعل الروح في الجسد .

ونحن نعتقـــد ان البشرية لم تفهم غاندي حق الفهم ، ولم تدرك مغزى وجوده ادراكاً كافياً . ولو أنها فعلت ، لوجد الكثيرون الذين يتوجب عليهم أن ينادوا بما نادى به غاندي ، وأعني أن يطبقوا مثالية الانسان في واقعية الانسان . وسوف تظل هذه البشرية تتخبط في فوضى ماديتها وفي تعاستها حتى تقوم بتجربة غاندي .

* * *

في حديثنا هذا سندرس فكر غاندي في جوانبه العديدة . وسنشير ، بشكل خاص ، الى القواعد الاجتماعية الرئيسية التي أرسى عليها فلسفته العظيمة

١ ـ ماذا يقول غاندي عن نفسه :

« لست سياسياً في ثوب قديس . ولكن ، لما كانت الحقيقة هي الحكمة الأسمى ، فإن أعمالي تبدو ، بعض الأحيان ، بأنهـــا تنسجم مع فن السياسة . لكنني ، كما أعتقد ، مجرد من كل سياسة ما عدا سياسة الحقيقة والاهيمسا . (المحبة واللاعنف) . ويبدو لي انني افهم مثالية الحقيقة أكثر من مثالية الاهيمسا . وتخبرني تجربتي بأنني إن افلت الحقيقة من يدي ، فإنني لن اكون قادراً على حل معضلة الاهيمسا . ومع ذلك ، فإن الحقيقة والاهيمسا شيء واحد .

« أعلم ان طريقي صعب ويتوجب علي اجتيازه . فعلي ان أخلص نفسي الى درجة الصفر . وطالما ان الانسان لا يضع نفسه آخر الجميع، فإنه لن يخلص؛ فالأهيمسا هي الحد الأدنى للتواضع .

« فلو كان بإمكاننا محو « الأنا » و « ملكي » من الدين والسياسة والاقتصاد ... لكنا أحراراً ولحقنا السماء على الأرض . إن تابع الحقيقة لايمكنه ان يكون انانياً . ولا يكاد ان يجد المضحي بنفسه في سبيل الآخرين وقتاً لنفسه .

« ان خدمة الفقير كانت رغبتي القلبية التي ألقت بي بين الفقراء وجعلتني اتحد بهم . لقد أحببت الفقير كثيراً طوال حياتي ، وشعرت بأنه قريبي ورفضت كل تمييز بيني وبينه » .

« وبالنسبة لي يقع طريق الخلاص (موكشا) في العمل الدائب في خدمة بلادي والانسانية، ولذلك فإني اريد أن أتحد بالجميع وبكل شيء .

« ان حياتي كل لا يتجزأ ، وتتداخل فعالياتي ببعضها . وتنشأ هذه الفعاليات من محبتي للانسانية » .

« عندما أرى انساناً خاطئاً أقول : انني اخطأت مثله . وعندما أرى شهوياً أقول : انني اشتهيت مثله . وبهذه الطريقة أشعر بقرابتي لكل انسان في هذا العالم ، وأشعر بأنني لن اكون سعيداً ما لم يكن اكثرنا ادقاعاً سعيداً » .

« يجب أن لا تعني اختلافات الرأي العداء . واني اعطف على كل من يعارض مبادئي واميل اليه » .

« لست إلا باحثاً عن الحقيقة . واعترف بأنني وجدت طريقاً لها . لكنني لا أدعي بأنني وجدتها . ان ايجاد الحقيقة بتمامها يعني ان يحقق الانسان ذاته ومصيره ، أي أن يصبح كاملاً . لكنني اعي نقائصي ، وهذا هو ينبوع قوتي .

« إنني أطلب من أبناء الهند أن لا يكون لهم انجيل إلا انجيل التضحية بالذات . »

« رسالتي هي أن أعلم الساتياغراها (التعلق بالحقيقة ، المقاومة اللاعنفية للباطل) التي هي نتيجة حتمية للاعنف والحقيقة . واني أقول بأنه ليس هناك علاج لأمراض الحياة إلا اللا عنف . »

« عندما أصبحت عاجزاً عن القيام بالشر وأصبح فكري العالمي الشامل مجرداً من الأذى ، استطاع لاعنفي ان يحرك قلب العالم . »

« لا أشعر بأنني (مهاتما) . ولا أدري بأنني واحد من أكثر أبناء الله تواضعاً . لقد آلمني هذا اللقب . ان منحي لقب (مهاتما) شيء تافه . لقد نتج عن نشاطاتي الخارجية وسياستي التي هي أدنى جزء فيّ ، لذلك فهي فانية . إن ما يهمني هو تعلقي بالحقيقة واللاعنف والعفة التي هي الجزء الحقيقي والأعلى فيّ . فالحقيقة أعز علي من كوني (مهاتما) » .

« ان صوت الله والضمير والحقيقة،او الصوت الداخلي ، أو (الصوت المنخفض الهادىء) يعني أمراً واحداً . هو هذا الصوت الذي سمعته ، ولم يكن صدى لخيالي او وهمي » .

٢ – الحقيقة :

الحقيقة ، في نظر غاندي ، هي الصوت الداخلي . وليس باستطاعة أي انسان ان يجد هذه الحقيقة ما لم يكن متواضعاً غاية التواضع . فالحقيقة والمحبة – أهيمسا – شيء واحد ولا قيمة لغيرهما .

فالحقيقة هي المبدأ الحاكم الذي يتضمن مبادىء أخرى عديدة . وليست هذه الحقيقة حقيقة ، الكلمة بل حقيقة الفكر أيضاً . وليست هي حقيقة إدرا كنا

النسبية، بل هي الحقيقة المطلقة ، المبدأ الأبدي الذي هو الله . ولهذا ، فإن غاندي يعبد الله لأنه الحقيقة .

والبحث عن الحقيقة سهل وصعب . فهو صعب على المتعجرف وسهل على البريء . لذلك كان على الباحث عن الحقيقة ان يكون متواضعاً كالتراب . والحقيقة كشجرة كبيرة تزداد نمواً وإثماراً كلما زاد غذاؤها .

ويعتقد غاندي بأنه من الخطأ أن نتوقع وجود اليقين في هذا العالم، حيث أن كل شيء ليس يقيناً إلا الله . فكل مايحدث حولنا ويبدو هو زائل وليس أكيداً . لكن هناك كائناً سامياً يختبىء ويسمى يقيناً . فاليقين او الحقيقة هي الله .

وقد إستطاع غاندي ان يقيم علاقة بين الحقيقة والجمال . فلما كان للأشياء مظهران : خارجي وداخلي ، فإن الداخلي يعبر عن الحقيقة والخارجي يساعد على إظهارها ، ولذلك يكون الفن ، وهو مظهر خارجي ، تعبيراً عن الروح . فالحقيقة هي الشيء الأول الذي نبحث عنه ، والجمال والخير يتحققان فيه . ولذلك نجد الجمال في الحقيقة أو من خلالها . وليس الجمال الحقيقي إلا صفاء القلب ونقاءه .

٣ ـ انعدام الخوف :

يعتقد غاندي أن اللاخوف هو المطلب الأولي للروحانية وذلك لأنه يستحيل على الجبان ان يكون أخلاقياً . فحيث يوجد الخوف ينعدم الدين . فانعدام الخوف تربة صالحة لنمو الفضائل النبيلة . واللاخوف يعني التحرر من أنواع الخوف الخارجي ، الخوف من المرض ، الخوف من الأذية الجسدية أو

الموت ، الخوف من التجرد من الملكية ، الخوف من فقـدان الأعزاء ، الخوف من فقدان السمعة . . . الخ .

ولا يتحقق إنعدام الخوف إلا بتحقيق السامي (الإله) ذلك لأن التحقيق هو قمة الحرية من الأوهام . وتتوقف المخاوف الخارجية عندما تقهر المخـــاوف الداخلية العنيفة ، كالغضب والحماقة . ولا تختفي المخاوف التي تدور حول الجسد إلا عندما تحقق عدم الإرتباط بالجسد . وهكذا يكون الخوف من نسيج وهمنا. ولا يكون للخوف مكان في قلوبنا عندما ننفض عنا الإرتباط او التعلق بالغنى ، بالعائلة وبالجسد . وهذا لا يعني بأن يتم إلغاء هـــذه الأمور ، بل يعني ان يتبدل سلوكنا وموقفنا منها .

لكن هناك خوفاً لا نستطيع تجنبه ، هو خوف الله . ففي خوف الله يبطل خوفنا من الانسان . فعندما نترك الخوف يفعل فينا ، تموت الحقيقـة أو تتضاءل . فالقاعدة الذهبية هي ان نعمل دون خوف في سبيل مانؤمن به أنه حق. ان إنعدام الخوف لا يعني التباهي او نزعة العداء . انه هدوء العقل وسلامه ولهذا لابد لنا من ايمان بالله . فالشجاعة ليست صفة جسدية بل روحية .

٤ ـ الايمان :

يعتقد غاندي ان الايمان يقودنا وسط البحار العاصفة . وليس هذا الإيمان إلا دعياً حياً لله في داخلنا . ومن يحقق هذا الإيمان فانه لن يحتاج لشيء . وبدون هذا الإيمان لا يكون للعالم معنى . ولا يكون الإيـــان زهرة تعصف بها أقل العواصف بل هو الهيملايا التي لاتتبدل ولا تتزحزح .

وينبع إيمان غاندي من اعتقاد راسخ بأن التجربة جعلته يقر بحدود العقل . فالعقلانية مارد فظيع يدعي لنفسه القدرة الكلية . ولذلك يعتبر عودة الى الوثنية

كل محاولة لإعطاء صفة القدرة الكلية للعقل . ولكن غاندي لا ينادي بالقضاء على العقل ، بل يعلمنا حدوده . ولا يقول ان العقل يناقض الايمان بل إن الإيمان يتجاوزه ويتسامى عليه . فالإيمان شبيه بالحاسة السادسة التي تعمل بدون العقل .

أما الدين في نظر غاندي فليس هو الهندوسية ، بل هو الدين الذي يتجاوزها، الذي يعدل طبيعة الانسان ويربطه بالحقيقة في الداخل . ولا يشير الى الدين كطقوس شكلية أو الى الدين الذي يعتمد العادة ، بل يعني الدين الذي يشتمل على كل الأديان ، والذي يجعلنا نجابه خالقنا وجهاً لوجه .

فما هي ديانة غاندي !

ليس للدين في رأيه ، حدود جغرافية وذلك لأن لكل إنسان مكاناً فيه . انه دين عالمي يتجاوز مفهوم العرق واللون . ولهذا لا يربط غاندي بينه وبين الوطنية حتى لا يتحجر . فالدين شعور إنساني كامل (هودهارما) التي تعني الواجب الديني في عدم إيذاء الآخرين ، وفي القضاء على العداء ، وفي تحقيق مبدأ رفض الشهوات والشر ، وحب العالم .

ويؤمن غاندي بتعدد الديانات ظاهرياً وبوحدتها باطنياً . ويعتبرها طرقاً مختلفة تلتقي في نقطة واحدة . ولهذا فإنه لا يعتقد بإمكانية وجود دين واحد في العالم . ولما كانت هذه الحقيقة فإنه يقدم احترامه لجميع الأديان . فهو يؤمن ان روح الأديان واحد على الرغم من وجوده بأمثال عديدة . ويؤمن ان حكماء الناس يرون الروح ويتغاضون عن الأشكال .

ان غاندي يحب جميع الناس الذين ينتمون الى أنواع إيمان مختلفة، ويدعوهم الى حياة أفضل وذلك باحتكاكهم ببعضهم وبمحبة بعضهم . فالعالم مكان

صالح لتلاقي الأديان وللعيش بسلام ووئام . ولما كان الإيمان بالله حجر الزاوية في كل الأديان فان وحدتها قائمة على هـــذا الزعم . وليس من المستغرب ان يرفض غاندي سيطرة دين واحد على الأديان الأخرى .

وفيما يتعلق بالدين والسياسة يقول غاندي ان الحياة هي كل متحد . فلا ينقسم العقل الانساني أو المجتمع الإنساني الى أقسام تسمى إجتماعيـــة وسياسية ودينية واقتصادية . فالحياة الانسانية كل لايتجزأ ، ويستحيل وضع خط أوحد بين مقاسمها أو بين الأخلاق والسياسة . فحياة الانسان اليومية لاتنفصل عن كيانه الروحي . وكلاهما يتفاعلان معاً .

ويعترف غاندي بأن السياسي فيه لم يسيطر عليه كلياً . لذلك لم يكن تدخله في السياسة إلاّ لأن السياسة هي الحقل الذي تطبق فيه الأخلاق والدين . فلكي نعاني روح الحق الكلية الانبثاث ، علينا ان نحب أحقر الكائنات كما نحب أنفسنا . واذا كان علينا ان نحقق هذا المثال فإنه يتوجب علينا ان نظل داخل حقل الحياة . ولهذا فإن تكريس الانسان نفسه للحقيقة يقوده الى حقـل السياسة . ولا يستطيع الانسان ان يحيا حياة دينية روحية إلا اذا وجد نفسه مع الانسانية كلها ، بل لايستطيـع ان يفعل هذا ان لم يشارك في الحياة السياسية . وهكذا لا نستطيـع ان نقسم العمل الديني او السياسي او الاقتصـادي او الاجتماعي الى مقاسم عديدة . فالانسان لا يعرف الدين وهو منعزل عن الحيـاة الاجتماعية . فالمجتمع هو المكان الذي تتحقق فيه الفضائل الروحية والخلقيـة . فلا يمكننا ان ندعي بأننا فضلاء أو اننا متدينون أو أخلاقيون ما لم نكن نحقق انسانيتنا في المجتمع .

٥ ـ قضية المنبوذين :

المنبوذ في الهنـد هو كهدف لا ينتمي الى طبقة او مذهب Outcaste ،

وكل من يعتبر دنساً لا يلمس Untouchable. فالمنبوذ مجرد من كل صفة انسانية ودينية وسياسية وطبقية . فلا يحق له ان يعاشر إلا المنبوذين امثاله ولا يتزوج إلا منهم ؛ وينعدم وجوده بوجود الطبقات الأخرى . فالمنبوذ في الهنـــد يقابل العشار والخاطىء في فلسطين ايام المسيح .

هناك اعتقاد سائد عند الهنود – ويؤسفنا القول بأنه اعتقاد خاطىء – بأنه يتوجب على المنبوذ من لاطبقة له ان يقوم بعمله خير قيام ، فيرضي الطبقات العليا ، وذلك لكي يأتي من طبقـــة أفضل متى ولد من جديد . وهكذا يحتم المجتمع الهندوسي ان يظل المنبوذ منبوذاً حتى يقوم بالدور المفروض عليه في السلم الاجتماعي .

وان نحن اردنا ان نعلم حقيقة المنبوذ وكيف انبثق وجوده في المجتمع الهندوسي ، فانه يتوجب علينا ان نلم ، بعض الشيء ، بتعاليم الهندوس ، وعلى رأسها شريعة مانو .

يُعتقد ، كما هو قائم في شريعة مانو ، ان مانو قسم المجتمع البشري الى طبقات اربـع : طبقة البراهمين Brahmin وهي الطبقة العليـا ، طبقة المتدينين . طبقة الكشاتريا Kshatriya ، وهي طبقـــة المحاربين الأبطال . طبقة الفايشيا Vaishya او شودرا Shudra ، وهي طبقـــة المزارعين والتجار . وأخيراً طبقة اتيشودرا Atishudra وهي طبقة العمال .

وكما نرى ان هذا التقسيم لا يختلف كثيراً عن تقسيم بعض فلاسفة اليونان للمجتمع البشري . ولكنه ، ولسوء الحظ والفهم ، أدى ، ليس بسبب التقسيم ، الى تجريد الطبقة الأخيرة من وجودها .

ولقد جاهد غاندي في سبيل تحرير هذه الطبقة التعيسة التي أصبحت تشير الى النجاسة والقذارة . وبالفعل ، فقد حررها هذا القديس العظيم وجعـل من

أفرادها اسياداً مثل غيرهم . وأما طريقته فقد قامت على اعادة تفسير شريعة مانو ومبادىء الهندوس . ولهذا فقد أصر على ان التقسيم القائم لا يشير الى تفرقة او الى سيطرة طبقة على طبقة ، بل يشير الى تعاضد الطبقات وتماسكها . وحتى لو أبقينا على نظام التقسيم ، فان كل انسان يقوم بدوره المرتبط به . ولذلك احترم غاندي العمل واعتبره مقياس الواجب الاجتماعي بغض النظر عن ماهيته او نوعيته ولما كانت حياة الانسان تقوم على عمله فإن له ككل انسان حقه في الوجود الاجتماعي فلا تستطيع اليد ان تتعالى على الرجل او الرجل على اليد ، ولا يستطيع الرأس ان يتعالى على القلب . المجتمع كلٌ متحد باقسامه وأعماله . وقد أدت هذه النظرة الى تحرير المنبوذين في الهند .

قال غاندي : « ان محبتي للناس ايقظت فيّ قضية المنبوذين منذ صباي الباكر . فقد بدأت ثورتي لما قالت لي أمي : عليك يا ولدي ان لا تلمس هذا الولد لأنه منبوذ .

« ولو كان علي ان أعود الى الحياة مرة أخرى فانني أتوق لأن أولد منبوذاً ، وذلك لكي اتمكن من مشاركة المنبوذين احزانهم وآلامهم وان أتحمل نير العبودية المفروضة عليهم . وبهذه الطريقة أعمل على تحرير نفسي وتحريرهم من حالتهم التعيسة » .

٦ ـ اللاعنف :

يقوم اللاعنف على المبادىء التالية :

أ ـ اللاعنف شريعة الجنس البشري ، وهذا أعظم بكثير وأسمى من القوة الغاشمة .

ب ـ اللاعنف شريعة من يؤمن بإله المحبة .

ج ـ اللاعنف يقدم للانسان حماية كاملة لفكرة احترامه الذاتي ولشعوره بالشرف والنبل الانساني ، ولكنه لا يقدم دائماً حماية لملكية الأرض أو للثروة المنتقلة ـ على الرغم من ان ممارسته العملية تبرهن على انه رادع أقوى من حماية

الناس المسلحين للنبل والشرف . فاللاعنف ، في طبيعة الأشياء ، لا يدافع عن المكاسب التي تم الحصول عليها بطرق سيئة وعن الأعمال اللا أخلاقية .

د ـ على الأمم والأفراد الذين يرغبون في ممارسة اللاعنف ان يتهيأوا للتضحية بكل مالهم ماعدا الشرف . لذلك يناقض اللاعنف فكرة الاستيلاء على البلدان الأخرى .

هـ ـ اللاعنف قدرة يمارسها جميع الناس بالتساوي ـ الأولاد والشباب والرجال والنساء ، بشرط ان يكون عندهم ايمان بإله المحبة وأن يتصفوا بمحبته ، لا تفرقة فيها ، للجنس البشري كله . فعندما نقبل باللاعنف شريعة للحياة ، فانه ينبعث في كل الاعمال وكل الحقول .

و ـ يخطىء الكثيرون باعتقادهم ان اللاعنف لا يطبق الا في المجالات الفردية . إنما اللاعنف وسيلة للجماهير ايضاً .

اللاعنف ، في نظر غاندي ،لا يعني الخضوع لإرادة فاعل الشر او المتسلط ، بل يعني ان نلقي بثقل روحنا كلها ضد ارادة الظالم . واذا سار الانسان على هذه الشريعة ، فإنه يكون باستطاعة فرد واحد ان يتحدى قوة امبراطورية ظالمة وذلك لينقذ شرفه ودينه وروحه ، وليبني اساساً جديداً لتلك الامبراطورية الساقطة او ليعيد بناءها . فاللاعنف قوة ايجابية . وتقع ايجابيتها في إنها وسيلة حقة للصراع والجهاد ضد الشر والظلم ، وهي أكثر فعالية من اهراق الدماء والحروب التي تزيد الشر .

ماذا فعل غاندي لكي يحرر الهند ؟ وماذا علّم الهنود ؟

تفهّم غاندي العلل الرئيسية لوجود الانكليز في الهند . فطلب من الشعب الهندي ان يقاطعوا كل ما يمت الى الانكليز بصلة ، وعلّمهم ان لا يدفعوا

الضرائب بشرط ان لايتخذوا من العنف وسيلة . ونصحهم بالعودة الى الصناعات اليدوية البسيطة وان يعتمدوا عليها ليبدأوا من الصفر ويستغنوا عن كل مايستوردونه .

وقد حقق غاندي ، مع الشعب الهندي ، فلسفة اللاعنف والعصيان المدني في أجمل صورها . ولم يعكر صفو غاندي إلاّ بعض الأمور الداخلية ، كالمشاحنات التي كانت تقع بين الهندوس والمسلمين . وفي حالة من هذا النوع كان غاندي يصوم ، ويستمر في صيامه حتى تعود العلاقات الطيبة الى طريقها السديد . لقد علّم غاندي أن تعيش الأكثرية ، الهندوس ، مع الأقلية ، المسلمين ، بسلام ومحبة . وهكذا انتصرت فلسفة اللاعنف ، وانتصر غاندي ، وانتصرت المحبة .

يقول غاندي :

« اني مثالي واقعي . واللاعنف ديني ومذهبي . اللاعنف شريعة الجنس البشري ، والعنف شريعة الغاب ، فالروح غافلة في الحيوان ولذلك فإنه لا يعرف إلا شريعة القوة المادية . ان عزة الانسان وكرامته تتطلب منه الطاعة لشريعة أعلى وأسمى ، هي قوة الروح .

« القديسون : Rishis (الفقراء) الذين اكتشفوا شريعة اللاعنف وسط العنف كانوا اكثر عبقرية من نيوتن . وكانوا محاربين اشداء اكثر من ولنغتون . لقد اهملوا السلاح لأنهم عرفوا لا جدواه ، وعلموا عالماً متعباً بأن خلاصه يتحقق باللا عنف وليس بالعنف » .

« انني أعرف طريقاً واحداً هو طريق الأهيمسا . أما طريق الهيمسا فإنه ليس طريقي ، لذلك لا أميل الى استغلال القوة .

« تعلمت مثالية اللا عنف في زوجتي وذلك عندما حاولت ان اخضعها لارادتي الغاشمة . لقد كانت مقاومتها العاقلة لإرادتي ، من جهة ، وخضوعها الهادىء للألم الناتج عن حماقتي ، من جهة ثانية ، مرشداً لي جعلني أشعر بالخجل من نفسي . فشفيت من حماقتي ومن سوء تفكيري بأنني قد ولدت لأحكمها » .

وحول موضوع المجتمع اللاعنفي يقول غاندي :

« أعتقد ان اللاعنف ليس فضيلة فردية، بل هو فضيلة اجتماعية كالفضائل الأخرى . فاللاعنف ينظم العلاقات الاجتماعية، والمجتمع يتحد باللاعنف كما يتحد العالم المادي بالجاذبية .

« لا تستطيع الحكومة ان تكون لا عنفية تماماً . وذلك لأنها تمثل الشعب كله . واني أؤمن بامكانية تحقيق مجتمع لا يكون للعنف فيه مكان .

« ليس هناك في العالم دولة بدون حكومة . لكنني اعتقد بأنه باستطاعة الهند ان تبني دولة بدون حكومة .

« أن علم الحرب يقود الانسان الى الدكتاتورية ، أمـــا اللا عنف فإنه يقود الى الديموقراطية الصرفة .

« ليس بامكان اللاعنف ان يقبض على ناصية الحكم ، وليس بإمكانه ان يهدف اليه . لكنه يستطيع ان يفعل اكثر من ذلك: انه يستطيع ان يسيطر على القوة وان يرشدها » .

وفي مجال العنف الشعبي يقول :

« تعلمني تجربتي ان الحقيقة لا تزدهي بالعنف . لذلك فإن من يؤمنون بعـــدالة قضيتهم يحتاجون الى ينبوع من الصبر لا ينضب لكي يحققوا العصيان المدني .

« اني أناهض العنف الحكومي بقدر ما أناهض العنف الشعبي .

« اني اقاوم العنف وذلك لأن الخير الذي ينتج عنه مؤقت وزائل . اما الشر الذي يفعله فإنه دائم وابدي » .

وفي حقل التوسع وتحقيق الاطماع يقول :

« علي ان أحيا . ولن اكون عبداً او تابعاً لأمة او لأي انسان . علي أن أحقق استقلالاً مطلقاً او علي ان أفنى .

« ان ايماني شديد بالمقاومة السلبية وذلك من أجل ضمانة الحرية ، واني أفضل ان اموت على ان أطيع ارادة غاشمة تحرمني من استقلالي » .

٧ - الساتياغراها:

هي محبة الحقيقة أو هي المقاومة اللاعنفية للاحقيقة او للعنف .

يعتقد غاندي بأن الساتياغراها سيف له اكثر من حدين . هي سيف يبارك من يستعمل ومن يستعمل من أجله . وبدون اهراق نقطة دم واحدة يعطي نتائج عظيمة . ويعتقد غاندي ايضاً ان المقاومة السلبية وسيلة هامة لإذابة القلب المتحجر . وينكر ان تكون هذه المقاومة سلاح الضعيف ،وذلك لأنها تحتاج لشجاعة اكبر من الشجاعة الوهمية في حقل المقاومة المادية . ففي رأيه

ان مقاومة كاملة تصدر عن انسان واحد تكفي لكسب معركة الحق والصواب ضد الباطل والخطأ . فالمسيح وكراغر ولاتيمر وريدلي وتولستوي وسقراط وغيرهم كانوا أفراداً حملوا مشعل الشجاعة الحقة ، المقاومة السلبية . فقد تسلح هؤلاء بقوة الروح لابقوة الجسد . ولذا ، فإن الشعب الذي يتسلح بهذا السلاح ، ينتصر على مساوئه كلها .

ولهذا السبب ، يدعو غاندي الى العصيان المدني . فلكي يكون العصيان مدنياً عليه ان يتصف بالاخلاص وباحترام الغير وبالعفة وعدم التحدي ، كما يجب ان يقوم على مبدأ أُحسن فهمه ، وان لايكون انانياً اويؤسس على الارادة السيئة او الكره . لذلك كان العصيان المدني أنقى انموذج للاضطرابات الدستورية . فهو يعتبره الحق الطبيعي للمواطن ، حق المواطن الذي يبطل ان يكون انسانا إن هو تخلى عنه . والعصيان المدني لايقود الى الفوضى . ومن هذه الزاوية ، يطيع الساتياغراهي قوانين المجتمع بذكاء وكما يطيع ارادته الحرة ، وذلك لأنه يعتبر هذه الطاعة واجباً مقدساً .

وفي هذا المجال يقول غاندي :

« الساتياغراها هي المحو الكامل للذات (الانانية) ، هي التواضع الكامل والصبر الكامل والايمان الكامل . انها جزاء ذاتها .

« الساتياغراها بحث دائم عن الحقيقة وتصميم على الوصول إليها .

« هي قوة تفعل بصمت وبطء من حيث الظاهر . وفي الواقع ، لاتوجد قوة في العالم أسرع منها او اكثر ايجابية .

« الساتياغراها الرقيقة لاتجرح . انها ليست نتاج الغضب او الخبث . انها ليست حقودة او متباهية . انها مقاومة مباشرة للإلزام . وهي استعاضة تامة عن مبدأ العنف .

« ان جهاد الساتياغراها ينبثق عن القوي بروحه ولاينبثق عن الشكاك او بليد الذهن . انها تعلمنا فن الحياة والموت ، ولما كان الموت حتماً فان مايميز الانسان عن الحيوان هو جهاده الواعي والوجداني لكي يحقق الروح فيه .

« لاتنتصر الساتياغراها بالإرادة السيئة ، لأن الذين يعتقدون بأنهم ضعفاء يعجزون عن المحبة » .

٨ - التجرد من الملكية :

ينادي غاندي بمبدأ التجرد من الملكية . وينبع نداؤه هذا من ايمان راسخ في حكمة الديانة الهندوسية والبوذية . فالتعلق ، الذي هو رغبة يؤدي الى الألم والشر . فالألم نتيجة حتمية للتعلق . فاذا تعلق الانسان بالملكية او رغب بها انساقت قوى عقله وروحه وراءها ، فيناهض العالم من أجلها وبالتالي يفقد انسانيته ويضيع على نفسه فلسفة المحبة . ولذلك فقد رفض غاندي مبدأ الملكية لأنه لايريد أن يكتنز كنوزاً على هذه الأرض . وعلى الرغم من أنه كان ضد الملكية ، وقد جرّد نفسه منها ، لكنه لم يستعمل مبدأ العنف مع الأغنياء . فهو يعلمهم أن يحولوا أموالهم الى مافيه خير الانسانية ، وان يكتفوا بالقدر الممكن منها . فالثروة الحقة ، في نظره ، لاتعني ان يحتفظ الانسان بستين تفاحة بل ان تكون عنده تفاحة او تفاحتان . ومازاد على الواحدة او الاثنتين يعتبر شراً او ذلك لأنه حرمان الآخرين . يقول غاندي :

« لما وجدت نفسي وسط معركة الدوامة السياسية ، سألت نفسي : كيف أبقى نقياً لاتدنسني اللاأخلاقية واللاحقيقة بكل مايسمى بالمكاسب السياسية ... لقد خلق هذا السؤال صراعاً عنيفاً في داخلي باديء الأمر مما أدى الى نزاع خفي مع زوجتي وأبنائي . لكنني توصلت الى هذه النتيجة : ان كان من واجبي خدمة الشعب الذي ألقيت نفسي في خضمه والذي أشهد على متاعبه يوماً بعد يوم ، فانه من الأهمية أن أتخلى عن كل ثروة او ملكية .

« تجردت من كل شيء . لكن تقدمي في حقل التجرد كان بطيئاً لأن البداية كانت مؤلمة ، الانتصار على الذات ، اما في النهاية فقد شعرت بالغبطة .

« وشعرت كأن حملاً ثقيلاً قد سقط عن كتفي ، كما شعرت بأنني أصبحت استطيع السير براحة وان اقوم بواجبي او بعملي في خدمة ابناء وطني بغبطة لاتوصف . وبالفعل أصبح امتلاك شيء ما عبئاً ثقيلاً .

« وباكتشاف علة غبطتي ، اكتشفت ايضاً بأنه يلزم ان ادافع عما امتلكه ضد العالم كله ، إن أنا احتفظت بشيء . وهكذا انتصرت على عدائي للآخرين بمجرد التخلي عن الملكية .

« لعل العالم يهزأ من تجردي هذا . لكنني اعتبر خسارتي هذه كسباً ايجابيـاً . واتمنى لو نافسني الآخرون في هذا المضمار ، في قناعتي . فقناعتي هذه هي كنزي الثمين . ومع انني ابشر بفلسفة الفقر لكنني انسان ثري .

« ان مدنيتنا وحضارتنا لاتعتمدان على مضاعفة حاجياتنا ورغباتنا ، بل على تقييد هذه الحاجيات ، وذلك بالنكران الذاتي .

« اللاملكية مرادفة للاسرقة . فالشيء الذي لايعتبر مسروقاً في أساسه يجب ، مع ذلك ، ان يصنف كملكية مسروقة ، إن كنا نمتلكه ، ولم نكن نحتاج إليـه . والباحث عن الحقيقة لايجهز نفسه بأي شيء للغد . ولذلك فإن الاغنياء يقتنون الاشياء الكثيرة التي لايحتاجونها والتي تُهمل وتضيع ، بينما يجوع الملايين حتى الموت وهم بحاجة ماسة الى هذه الاشياء الضائعة .

« لو ادّخر الانسان مايحتاجه فقط ، لما وجدت حاجة ، ولعاش الجميع بقناعة وسعادة . فالاغنياء لايقتنعون كالفقراء ولا يكتفون مثلهم .

« على الاغنياء ان يتحلوا بفضيلة اللاملكية وذلك وفق روح انسانية تنبت في شعور عالمي بالمحبة . فلو أنهم احتفظوا بثروتهم ضمن حدود الاعتدال لشبع الجائع ولتعلّم امثولة القناعة . »

٩ ـ العمل :

يعتبر غاندي العمل شريعة سنها الله للانسان ليكون وسيلته الوحيـدة للحصول على خبزه اليومي . كما يعتبر ان كل من يحصل على خبزه بدون عمـل يكون لصاً .

ولهذا السبب فإن هناك نزاعاً بين رأس المال والعمل ، بين الغني والفقير ، ولكن غاندي يريد ان يضيق الشقة بين هذين القطبين . فهو ينادي بكسب الخبز اليومي الذي يعتبر قوام الانسان الشريف والنبيل . لكنه ، على عكس بعض المتطرفين من المفكرين السياسيين ، يعمل على اقامة انسجام في المجتمع الانساني ؛ فهو لايدعو الى ثورة اقتصادية بقدر مايدعو الى ثورة انسانية ووجدانية . انه يثير الاغنياء والرأسماليين لكي يتنازلوا عن انانيتهم المتعصبة . وفي الحد الأدنى ، يعلمهم أن يحولوا ثرواتهم الى نفع اجتماعي.

لكن غاندي لاينكر على العمال حق الاضراب والمطالبة بأجور عادلة . لكن هذا الحق لابد وأن يتوقف عندما يقبل الرأسماليون بمبدأ المفاوضة . ومن ناحية أخرى يحث غاندي الحكومة على تبني العدالة والمساواة .

١٠ ـ سارفودايا:

يؤمن غاندي بوحدة الانسان . ولهذا يعتقد بأن الكسب الذي يحققه انسان واحد في الحقل الروحي يعتبر كسباً للآخرين وان سقوطه يعني سقوط الآخرين . ويعتقد بأن الشريعة الروحية لاتعمل في حقل ،بل في جميع الحقول الاقتصادية والسياسية والاجتماعية . فوحدة الانسان والانسانية في صورة واحدة هي مفتاح المحبة والسلام . ولهذا السبب ، يشعر غاندي بأنه فقير من الفقراء . ولكن هذه الوحدة لاتتحقق مالم يتنازل الانسان عن انانيته ويتجرد من مطامعه وجسديته .

ان خدمة الانسان ، في رأيه ، هي خدمة الله . فلايستطيع الانسان ان يدّعي بأنه محب لله وهو يكره الانسان ، ولهذا فانه ينادي بالطهر الذاتي والنقاء

الروحي والجسدي . ومن خلال هذه الخدمة ، يتوصل غاندي الى فكرة الواجب والحق وفكرة الوسيلة والغاية .

لم يكن غاندي مكيافيلياً وذلك لأنه يؤمن بوحدة الوسيلة والغـــاية وبتفضيل الواجب على الحق • وفي الحقيقة ، طالب غاندي الأمم المتحدة يوم أعلنت حقوق الانسان ان تضيف على اعلانها ذاك واجبات الانسان. فعلى الانسان واجب. وليس واجبه الأول إلاّ خدمة الآخرين ومحبتهم .

وعلى هذا الاساس فقد آمن غاندي بفلسفة الياجنا التي هي « عمل » موجه لازدهار الآخرين ، يقوم به فاعله دون الرغبة بتعويض مقابل .واما كلمة «عمل» فإنما يقصد بها العمل الفكري والمادي . وكما نعتقد بأن غاندي قد نادى بتقديم مواهب الانسان الفكرية والمادية ، على مذبح الانسانية ومن أجل سعادتهـــا وتقدمها . ولما كانت الياجنا قد ولدت معنا ، فاننا نظل مدينين للآخرين طوال حياتنا ، مدينين لهم بخدمتنا وتضحيتنا .

وفي هذا المضمار يهاجم غاندي الحضارة الحالية التي يسميها حضارة شيطانية فهو يرى ان الروح مقيدة في هذه الحضارة وان الشر حر من القيود. فالآلة تسيطر على الانسان، والتقدم المادي يهيمن. ولهذا يظل الانسان متخلفاً في حقل الروح . فالكره والحقد والكبرياء والكذب والحروب والاطماع والانانيـة والشهوات والعنصرية مازالت تسيطر على الانسان ، بل زادت في الكم والكيف. فلو تقدم الانسان بروحه بنفس النسبة التي تقدم عادته ،لزال الاستثمار والاستعباد والطمع ولسادت المحبة والوئام .

ان غاندي ينادي بسلام عالمي قوامه التقدم الروحي الذي يقوم على فلسفة المحبة . ولا ينتج هذا السلام عن التقدم الآلي او التقني بـــل عن التقدم

الخلقي . الآلة في يد المستثمر شر وفي يد الأخلاقي خير . والصناعة والعلم شرٌ في يد المتخلف روحياً وخير في يد الانسان الانساني. والتقدم المادي يزيد الانسان الذي لم يحقق في نفسه ملكوت الروح فساداً . ومع هذا كله لا يهدف غاندي الى الغاء التقدم العلمي بقدر ما يهدف الى زيادة التقدم الروحي .

والاشتراكية في نظره لا تعني الحصول بالتساوي على الأمور المادية بقدر ما تعني التعبير الكامل عن الشخصية الانسانية . ولما كان الانسان ، في اي مجتمع كان ، غربيـــاً أم شرقياً ، عاجزاً عن تحقيق هذه المساواة المادية، لذلك يناد‌ي غاندي بتحقيق روحي في الانسان يقوم على تربية الشخصية الانسانية .

١١ - براهما شاريا :

هي طريقة الحياة التي تقودنا الى براهما (الله) ، ولهذافإنها طريق مفتوح للباحث عن الله . وتعني السيطرة التامة على الجسد . وتتم هذهالسيطرة في الفكر والكلام والعمل . فالباحث عن الله يحب جميع الأشياء وذلك لأن الله موجود فيها . ومحب الله يحيا طريق الحقيقة والطهر ، ويتعين على الانسان ، ان يحب الآخرين او ان يضحي من أجلهم مالم يكن قد انتصر على نزواته ودوافعه وغرائزه كلها . ولهذا لايستطيع الأناني الادعاء بمحبة المجتمع وخدمته وذلك لأنه لم يسيطر على انانيته . ولا يستطيع الشهوي ان يدعي المحبة والتضحية طالما انه شهوي يرى في الجنس وسيلة لاشباع حيوانيته.

براهما شاريا تشير الى سيطرة الانسان على حواسه وارادته وفكره . فهي اذن حالة عقلية ومادية على السواء . واين تطبق براهما شاريا ؟ إنها تطبق في المجتمع . انها تطبق مع الآخرين . ولذلكفإن المجتمع لايستقيم مالم يكن الانسان صالحا وطاهرا ، يحترم جسده ويعتبره هيكلا للروح النقية الطاهرة . فا لمجتمع

حقل لاختبار فضيلتي واخلاقي وانسانيتي . ولهذا فإن الاصلاح الاجتماعي يبدأ باصلاح الانسان ذاته ، اصلاح روحه وخلقه وجسده وفكره .

* * *

الرجل .. ورسالته

للكاتبة الهندية

ك. سانتانام

ترجمة : هشام الدجاني

قد يقال عن المهاتما غاندي انه كان أعظم من رسالته ، وهو قول يصدق عليه ، أكثر مما يصدق على أي عظيم آخر من عظماء التاريخ . ومن المؤكد الآن أنه يملأ نفوسنا بشخصيته أكثر مما يملأ نفوسنا بتعاليمه . إذ من يستطيع أن يتفكر في نهجه الرائع ، وإرادته التي لا تقهر ، وشجاعته التي لاتجارى ، وغيرته الكبيرة على مثله ، وعنفه الذي لا يرحم عندما يتعلق الأمر بالمبادىء ، وعطفه الذي لا حدود له على الضعفاء ، وفوق كل ذلك، سيطرته التي لاتجارى على بدنه وعقله وعواطفه ، دون أن تمتلىء نفسه بالحب والاعجاب والرهبة ؟ ان الابتعاد عن وجوده البدني قمين بأن يصور لنا شموخه على نحو أكثر وضوحاً، تماماً كما تبدو أبعاد قمة الجبل أوضح رؤية من مكان بعيد .

وليس بوسعنا أن ننسى أن شخصية النبي إن هي الا" المادة المتفجرة التي تعطي رسالته القوة الدافعة الى التحرك في الفراغ والزمن ، كحرارة النجم الفوارة التي تمكن أشعته الضوئية من الوصول الى نهايات الكون .

ليس من السهل تقديم حساب دقيق عن رسالة مهاتما غاندي . فقد كان رافضاً دوماً لأية قواعد نظرية محددة لعقيدته ، وكان قانعاً بأن أي عمل في حياته يجب أن ينظر اليه على أنه تجربة في الحقيقة التي وقف نفسه من أجلها . لقد كان معجباً بالقول إنه لا يفعل سوى محاولة فهم اقتفاء تعاليم معلمي العالم العظام من الريتشيين والأوبنيشيديين ، من أمثال بوذا وشانكارا ويسوع وتولستوي. وهذا القول صحيح الى حد بعيد . ولكن ليس ثمة شك في أن مساهمته في الدين والأخلاق هي متميزة ومتفردة كمساهمة شانكارا في الفلسفة الهندية ، علماً بأن الأخير له خبرة في فلسفة الأوبانيشيديين .

وتعاليم غاندي الأساسية يمكن أن تصنف تحت ثلاثة أصول : الحقيقة ، واللاعنف ، والساتيا غراها Satyagraha . ولست أحاول هنا تقديم حساب ، ولو كان موجزاً ، عن عقائده في أي من هذه المسائل . وإنما سأحاول فقط أن أشير الى كيف يجب أن يتفهم شخص ، لم يتبع عقائد غاندي بشكل وثيق ، كتابات غاندي حول هذه العقائد .

لنأخذ مفهوم غاندي عن الحقيقة . إن كلمة « الحقيقة » في حد ذاتها كانت تسبب حالة من النشوة في فكر غاندي . فحبه للحقيقة كان شيئاً يشبه حب العاشق الطاهر لمحبوبته . ولكي نوازن بين حقيقة غاندي وأفكارنا العادية عن الحقيقة ، أو بين العبارة كما تستخدم في العلم ، فاننا سوف نجعل كثيراً من كتاباته أشياء مبهمة كل الابهام .

ذلك أن حقيقة غاندي كانت مفهوماً ديناميكياً . كما هو الحال في التصور الحديث لعـــدد يوصف بأنه نهاية سلسلتين لا متناهيتين ، فإن كافة أرقام احدى السلسلتين أكبر من هذا الرقم وكافة ارقام السلسلة الأخرى أصغر منـه ، تبدو حقيقة لدى غاندي في أية مسألة محددة هي الحد النهائي لسلسلتين تقريبيتين . والمعنى الأساسي للحقيقة عنده ، كما كان يستخدم بشكل عـــام ، هو الاعتقاد الأخلاقي الذي يدفع الانسان الى العمل وفقه .

وطبيعة هذا الاعتقاد وقيمته تختلفان وفقاً للتطور الروحي للفرد ونقـاء حياته وتفكيره .

لذا فإن الحقيقة ، كالذهب ، ليست نقية كل النقاء او كاملة كل الكمال . لقد تعود غاندي أن يساوي بين الله والحقيقة الكاملة . ومن واجب كل باحث عن الحقيقة ان يعمل في كل لحظة على ضوء الحقيقة كما يراها في تلك اللحظة، وأن يجهد في الوقت نفسه من أجل مفهوم أكثر نصاعة وكمالاً عن الحقيقة ذاتهـا . لذا فإن ما هو حقيقي اليوم قد يبدو خطأ غداً ، ولكن هذا لا يؤثر على صحة العمل المأخوذ اليوم وفق ما اعتبر حقيقياً .

وما قد سمي بنسبية الحقيقة او خاصية كما هو جوهر تعاليم غاندي ، وهو يقدم لنا مفتاحاً لكثير من الألغاز والتناقضات البينة في كتاباته .

وبصورة مساوية من الديناميكية يعالج غاندي مفهوم اللاعنف . ان الامتناع عن استخدام العنف الجسدي ماهو إلاّ الحد الأدنى المجرد للاعنف الذي يمكن أن يرضى به المرء عند تعامله مع أعداد غفيرة من الناس . ولكنه يتوقف عن ان يصبح لاعنفاً مالم ينفذ قُدُماً الى العقل والعواطف وينقيها قبل كل شيء من كل انانيـة وغضب وكراهية ، ويملأها أخيراً بالرضى والحب حتى لأعدى خصومه . ثمــة

متسع في هذا المفهوم لكافة درجات اللاعنف : من اللاعنف الجسدي والتقليدي المجرد عند جين الساذج حتى اسمى درجات اللاعنف عند بوذا وماهافيرا .

أما عقيدة غاندي في الساتياغراها فيجب أن تعتبر حجر الزاوية في تعاليمه . وانا على ثقة أنها رسالته الأولى . الحقيقة واللاعنف يشكلان الفرضيات الاساسية لها ، وقد يفترض بشكل سلبي أن أي شيء يتعارض مع آخر لا يمكن ان يكون ساتياغراها . وقد وصف غاندي كيف صاغ الكلمة ليميزها عن المقاومة السلبية من جهة واللامقاومة المسيحية من جهة أخرى . وليست الساتياغراها تنافر شيء مع آخر . انها تتجاوزهما معاً . وكما يصبح العنصر المشع ، كالراديوم او الاورانيوم ، عنصراً خاملا عندما يفقد طاقته الاشعاعية ، كذلك الساتياغراها يمكن ان تصبح في بعض الشروط ، مقاومة سلبية أو لامقاومة . ولكن يمكن أن ننقل روحها بشكل أفضل بواسطة هذا التعبير : « هي كفاح ديناميكي من أجل العدالة » .

من غير الممكن في مدى مقالة قصيرة شرح الانطباعات النظرية لعقيدة الساتياغراها أو الاشارة الى الشروح العملية التي قدمتها لنا حياة غاندي والحركات العظيمة التي قادها في جنوب افريقيا والهند وفقاً لمفهومه عن الساتياغراها.

لقد فهم غاندي الحياة على انها صراع ازلي بين قوى الخير والشر بدون أية راحة من هذا الصراع اثناء الحياة الفانية . وهو لم يرفض عقائد الخلاص بالمعرفة أو الشك . لقد اعتبرها ، في الواقع ، توابع جوهرية للكارمايوغا . قد يصل الأفراد الخارقون والموهوبون الى النجاة ، حتى في هذه الحياة ، من خلال رؤية الكاهن الهندوسي أو بواسطة مجموع العبادات لله . ولكن بالنسبة للانسان الطبيعي تظل حياته على الأرض حياة عمل عادي ونضال مستمر . طبيعي ان الباغافاد غيتا كان مدونه الرئيسي .

ولكن غاندي لم يتردد في اعادة تفسير الغيتا نفسه على ضوء حقيقته هو. فالحقيقة واللاعنف والألم التطوعي المقصود تشكل جميعها العناصر الاساسية للساتياغراها . لذا فإن قيمة الساتياغراها تعتمد على نصاعة الحقيقة وعمق اللاعنف ودرجة الرغبة في معاناة الألم .

والساتياغراها ، كما يراها غاندي ، هي قانون الحياة لكل روح تطمح الى الحقيقة والكمال . وقد علمنا ان الساتياغراها هي أيضاً قانون كل مجتمع يسعى الى ان يكون مجتمعاً متحضراً حقاً . وغاندي ، شأنه شأن كل الانبياء ، كان متعطشاً الى أن يرى مذهبه قد تحقق عملياً وبشكل فوري ، ليس من قبله ومن قبل حوارييه الخلص فحسب ، بل كذلك من قبل مواطنيه والعالم كله .

تحت قيادته الملهمة حتى الطفل العادي يمكن أن يتحول الى ذهب خالص . ولكن تغيير المجتمع هو عملية بطيئة غاية في البطء . فهي قد تستغرق عقوداً وقروناً من الزمن قبل ان يختار عدد كاف من الرجال اتباع عقائد غاندي في الحقيقة واللاعنف والساتياغراها اتباعاً خالصاً ، بحيث يمكن توجيه حياة هذا العالم نحو مُثُله . واذا كان هو اليوم ميتاً ، فإن الزمن في صالحه.

الشعر

مأساة فاوست الجديد

محمّد أحمد العزبّ
القاهرة

ماذنـبُهُ ..
قدكان يَهْوى الشعر - يهْوى الفكر - يهْوى الفلسفهْ
يهْوى إِذا جُنَّ المساء
أن يستريـح على كتابٍ تاركاً للريـح حتـى معْطفه
لكنهم ..
حـين انحنى يبكي ويكتب للجموع
سرقـُوا من الليل الشموع
ورموْهُ بالشيطـان حتى خَوَّفـَهْ !

* * *

ماذنبُه ..

قد كانَ يهوى المعرفه

خُبْزاً لكل الناس

نبعاً للعطاش

ديوانَ شعرٍ للملايين التي لاتستريح على فراش

لكنهم .. وَفَدُوا عليه .. من النوافذ .. والمداخل .. والسقوف

وَضَعُوا على عينيْه آلاف السيوف

رَقَصُوا به في كلّ ركْنٍ من جدار

حتى اسْتدار

وانهار يشْتُمُ كلَّ حرْفٍ في صحائفه

ويبصق فوق أكتاف الحوار

منْ يومها ..

وعباءةُ الفنان فوق ذراعه مِزَقٌ ..

وفوق يديه .. وَشمٌ .. واخْضرار !!

* * *

لاتلعنوا هذا الزمان

« فاوسْت » أحْرى أن يُلاعِنَ كلّ أيام البَشَرْ

« فاوسْت » غنى .. وانتحر

« فاوسْت » أصْمَتُ من حَجَرْ

أحكى لكم عن صمْته

يوماً .. وقد غاب القمر

وتساقطت كُتَلُ الجليد على المفارق في الظلام ؟
« فاوسْت » حَنّ إلى الورق
وإلى القلم
وارْتجّ في يده القلم
وبكى ، بكى .. حتى قرارات الندم
وانساب يكتب في جنونٍ ..
عاصراً جرْحَ الألم
وَفَدُوا عليه من النوافذ .. والمداخل .. والسقُوفْ
لكنه مازال يكتب ملءَ طاقات الزخَمْ
وضعوا على عينيْه آلاف السيوف
لكنه مازال يكتب شاهراً في وجههم وَجْهَ القلم
لاتدْهشُوا ..
خرّوا على رجْليْه ..
صلّوا للذي رفض الصلاة ..
وللذي شَتَمَ الصنَمْ !!

* * *

– فاوسْت ..
بِعْتَ لنا شرُوحَكَ
بعْتَ روحكَ ..
بعْتَ كلّ المُفْرداتْ
لمْ تبْقِ غير عباءة الفنان تسْتُرُ من دَمامتِكَ الزريّه .

والآن تكتب ماتريد .. كأنما لكَ ماتريد ؟
فاوسْت ..
الحبْرُ لم يَنْشَفْ على ورق الوصيَّهْ !!
– يا أصدقاء ..
أنا بعْتُ فيما بعْتُ فلسفتي .. وشعري . .
بعْتُ كلّ الأبجديّهْ
لكنني استبْقيتُ شيئاً واحداً ..
ما بعْتُكُمْ كُلَّ القضيّه !!

* * *

صَلَبُوه في جذْع الحَرَسْ
أغْرَوْا به كُلَّ الحرس
شنقُوا صدى كلماته في ألف حبل من حبال الكلماتْ
نشروا قصائده محرّفة وضائعة السماتْ
قالوا :
تَراجَعَ !!
وانحنى فوْق الفُتَاتْ !!
ماذنبُهُ ..
إن كان يصرخ « لا »
فنسمعها « نعم » ؟ !!
لا ترفعوا صلواتكم من اجله ..
هذا البريءُ المتّهَمْ

لا تفعلوا ..

إني أخافُ إذا فعلْتُمْ ..

سادتي ..

أن يستحيل الى صَنَمْ !!!

* * *

.. وتخضر المقابر

ممدوح عدوان

كل أقوالي صارت صدئه
ودروبي لم يعد فيها سوى
تلك الصوى المنطفئه
أمطر الخوف عليها
فأعاق الأمنيات البطره
كل شيء مات إلا الرهبة المختبئه
وأنا الظامىء تدنيه أمانيه من البحر ،
وتسقيه فتحيي ظمأه
كلما جابهني الضوء ارتمى في القلب وهج المجزره
واشرأب العار ظلاً

شد خلفي مئزره

غير اني قادم رغم حصار الأوبئه

سوف آتيك بخوفي وأنا أعبر هذي المقبره

سمم العمر ، ارعشت أوراقه ،

صودر في حلقي النداء

منعوا عني الهواء

غير اني لم أزل أحمل في الصدر رئه

ولذا أنهض وحدي

بين آلاف الدمى المتكئه

حاملاً نحوك قلباً صدئاً

عل شيئاً فيك يجلو صدأه

لم أزل أقوى على الحب

بهذي الجثة المهترئه

* * *

سأناديك بما تقوي عليه الحنجره

وبما أبقى لدي الوجع الدامي ،

وما أبقى الوباء

لاتخالي حرقتي آخر ومضه

لاتخاليها انتهاء

انها الخلق ونار الابتداء

فبقلبي لم تزل ترجف نبضه

وبها الوهج الذي يقوى على الحب ،
بها الوهج الذي يغسل من عمري الخواء
فأحبيني بما عندك من يأس
بما حملت من مر الليالي
علميني
رغم ذل قد عرفنا حمأه
رغم مافينا من الموت بأنا
لم نزل نملك رفضه
حينما فاجأني الحب ، انجلى ليل ،
أضاءت كبرياء
فرأيت الحلم في صدري وليداً راجفاً
والموت ناراً تصطلي كي تدفئه
فأحبيني بما خفت من الموت الذي يملأ وجهي
وارفعي جبهتي المنكفئه

* * *

هذه الكأس التي لم تشربيها
والتي لم تمنحيها
لم تزل من وجعي ممتلئه
فاطمئني
لم يزل وجهك فيها
زاهياً كاللؤلؤه

* * *

ما الذي يعرفه عنك المطر ؟

مر بالأمس حيياً

غض لم يلق تحيه

مرت الريح التي تحمله

كانت حبيبه

من ترى امتص من الريح البطر ؟

وخشينا كلمة توقظ أحزان المساء

فصمتنا في حذر

ثم لم نقو ، ذكرناك .. انهمر

وبقينا في العراء

العطب !

محمد عمران

« ١ »

شفتي سلم إليكِ . تسلقتْ صلاتي . دخلتُ عينيكِ .
قلتْ : الشمسُ في إصبعي ، أضيئك . قلت : الماءُ ،
أسقيكِ . قلت : وجهكِ آياتي . قطفتُ الصمتَ
المعرشَ في قلبي .
(خذي خمرتي . افرحي . صدأ العمرِ
اغسليه .)
قلت : المحبة منجاةٌ . ولاشط . والزمان
غريقٌ ! !

* * *

« ٢ »

انطفئي فيّ . اشتعلي .

(لاميلاد اذا لم يكن الموتُ) ،

انهري . انحفري . انغرزي في قاعك . عودي

جسداً نبوياً مغتسلا بالفرح الناري . تعري

في شفـــة الزمن المخنوقِ انصبي في رئتيهِ

دماً وهواءً ، حتى يمنحكِ القدرةَ . والعالم

موتُ ! !

* * *

« ٣ »

وكلما كبرتِ بي كبرتُ . استيقظت مدائنٌ

جديدةٌ . تفتحت جبالٌ عاشقةٌ . وأَورقت .

وجئتني . يداكِ مستقبلي . أبني على مداهما

زمانيَ المنهدّ . كلُّ حجرٍ سفينةٌ

نجوتُ !!

* * *

« ٤ »

لانجاةٌ إذن ! عطبنا يداكِ

موفأٌ من هشاشةٍ . أغرقيني .

واغرقي .

لو يجيئنا الطوفانُ !!

* * *

« ٥ »

لأنكَ انغرزتَ في رمادكَ العتيقِ ، وانفصلتِ
عن موائدِ الضياءِ ؛ جعتَ متَ . انطفأتْ
فيكَ نبوةُ اللهيبِ . غاصَ في أقدامكَ النهارُ .
صارَ تاجراً مساوماً . لأنكَ اتسختَ بالمحابرِ
الصفراءِ ، ماأغتسلتَ ، مانفضتَ وجهكَ
القديمَ ، ماتعمدتْ عيناكَ في مجامرِ القراءةِ
الزرقاءِ والحمراءِ ، ماقطعتَ سُرة الولادة
لأنكَ انعصرتَ في قارورةِ العبادةْ
تشربُكَ الغربانُ ، في سوادها ، وفي بياضها .
لأنكَ التففتَ في عباءةِ الجوعِ ، ومااحترقتَ
بالنهارِ . صرتَ جسداً مُطفأً . مستنقعاً .
تغوص في أوحالكَ الارادةْ ! !

* * *

« ٦ »

يوماً أتيتُ . ركضتْ في شفتي بشارة عرجاءُ .
عند أول الطريق انكسرتْ . تعثرتْ بحجرِ الموتِ .
ارتمتْ . تركتُها تموتُ . جئتُ وحدي .
صوتاً بلا عبارةْ
مكسَّراً بأضلع الحجارةْ
يوماً اتيتُ . من يجيءُ العهرَ في كهوفهِ ؟ المرأةَ

آن حيضِها ؟ الأقذار في القُمامةْ ؟
من ينحرُ الغمامةَ ؟
لحماً ، لجوعِ شهريارٍ فاجرٍ . من شهرزادُ تكسرُ
النابَ ؟ من الحمامةُ المطوقةْ
تُشير كيف تقلعُ الشِباكُ ، كيف ينقذُ الحَمامُ ؟
من يجيء ؟ جئتُ . ما رأيتُ ؟
وجهاً من الزجاجِ . جسداً من الزجاجِ . التقطتُ من
مستقبل الطريق حجراً . سمعتُها تنوحُ . لم أكن
شجاعاً . تصلبت أصابعي على الحجرْ
وعدتُ
لو أنني ثانيةً أتيتُ
لو أنني رميتُ
زجاجكَ العتيقَ بالحجارهْ
لو أنني ما خفتُ . ما أشفقتُ . ما تصلبتْ
أصابعي على العبارهْ
لو أنني كسرتُ
تاريخك الصديءَ ، ما انهزمتُ !

* * *

« ٧ »

يعود بي تشردي . أَقولُ : وجهُها محطتي .
جزيرتي الوحيدةُ :

(الليلُ لديكِ جسدٌ مفترشٌ . ووجهكِ
الذي أرضعته طفولتي ، رمانةٌ
مكسورةٌ ؛ تنقلها النمالُ حبةً
فحبةً ...)
لا ، لن أَجيءَ العهرَ في كهوفهِ . المرأةَ
آن حيضِها . لن أَدخلَ القمامةْ !

* * *

« ٨ »

يرتمي نازفاً على شفتي جرحُكِ . أَنهارُ . أَلعقُ
الدمَ . كلبٌ أَنا . أُفتحُ أنيابي على لحمكِ
المفضضِ تأتيني كلابٌ . خمرٌ لنا ، موائدُ
من شعرٍ لنا ، لحمكِ المرتمي على ليلنا الكلبيِّ .
المرتمي على رغباتِ . أطعمينا أمجادنا . أنتِ
لولم تذبحي ، كيف نعتلي الكلماتِ ؟

* * *

زانٍ ، ويداكِ امرأةٌ أغصبها ، وسريري الكلماتْ
أذبحها ، أدفنها في كهف الكلماتْ
ويداكِ بضاعةْ
أعرضها في سوقِ الكلماتْ
جاريةٌ ، وأنا النخاسُ
« يامن يشري أمَةً بشرتها ماسٌ ونحاسُ ! »

ويداكِ حقيبة
احملها ، وأسافرْ (١)
ويداكِ زبيبهْ
آكلها ، وأسافر
ويداك زريبه !

---

(١) يقول محمود درويش :

« وطني ليس حقيبة
وأنا لست المسافر ! »

صلاة في محراب التاريخ

خالد محي الدين البرادعي
الكويت

تساءلتمْ أحبابي عن الوطنِ
وجاء نداؤكم ، عبرَ السنينِ العُجفِ يوجعني :

ـ لمن تلك السفوحُ الخضرُ ؟
غابت عينُ يَعْرُبها ؟
ومكتوبٌ ، بخطِ الكوفةِ العربيِّ
أوصافٌ لصاحبها ؟
فتىً ، متوقّدُ النظراتِ
فيه براءةُ الحملِ
وأسمرُ ، أدعج العينينِ
رحبُ الخطْوِ ، والأملِ ؟

– بدنياكم أَحبّائي
هنا ، في العُدْوةِ الشرقيةِ الوَمَضاتِ
في الجولانِ
في الأغوارِ
عبرَ شعابِ سيناءِ

هنا من بعد ما اصطبغتْ
بلون الثأر رؤياهُ
يناديكم أحبائي
وجالت في الحروف الحمر عيناهُ :

– إِذ أغمضت في الصلوات عينيّا
ورَنّ حداءُ شاعركم بأُذْنيا
أرى دنيا
جفونُ الشمس ترقصُ في بواديها
حَبابُ الصبح يسبَحُ في شواطيها
على نغمات حادي العيسِ
تنمو في محاجركم أقاحيها
وتنضجُ – كاخضرار الشِّعر في فمكم – أناسيها

* * *

– أحبائي !
أنا ما زلت أهوى ضوءَ مشعلكم

وأنهلُ ماءَ جدولكم
فان أَبْكِ ، افتراسَ اليأسِ والأحزان
ضَوْءاً من أزاهركم
وإِن أَشْكُ ، اهتزازَ الرؤيةِ البيضاءِ
يغمرها تساؤلكم
فلا نسيانَ ، لاعتبى أحبائي
ولكني ، قصيرُ خطىً
وهذا الليلُ يملأ كُلَّ أشيائي

أحبائي ، أحبائي
لَكَمْ عبثَ الأسى
واللهفةُ الحَرى بأحشائي
ومن عامينِ ، لاح بصيصُ هذي النارْ
خلفَ الهُوَّةِ السوداءِ والأسوارْ
وأوحى الطيفُ فَيْنانا
لألفٍ من فَوارسكم
تخَطَّوْا رُقعةَ الصحراءْ
واجتازوا حدودَ الصبحِ : مامعكم ؟
يجيءُ تساؤلُ الأيامِ :
ما معكم أحبائي ؟

ويربو المربَعُ النائي

بزادِ فوارسِ الأعرابِ
بالبذراتِ . بالزهراتِ . بالكلماتْ
يوقظ راقدينَ جثَوْا على النزواتْ
في محراب آلهةٍ مزيَّفة
يعالجها انكفاءُ الليلِ فوقَ مواطىءِ اللذّاتْ

* * *

أحبّائي !
وَضعتُ الخطوةَ الأولى
على هضَباتِ أسفارِ
حضارتكم باحرفها
لألتمسَ الهوى والدفءَ
من قبساتِ سالفِها
أخضّلَ يابسَ الأحلامِ
في نسمات وارفِها
وأفتحَ كُوّة طمَرت
رياحُ البُعد عن حبي معالمَهَا
فأجتازُ السنينَ الألفْ
وألثم مقبضاً للسيفْ
قال لعابد النزواتِ والطاغوتِ حاملهْ :

بهذي الغرسةِ الحمراءِ حَذْوَ الحَرْفْ
نعمر زاهرَ الدنيا
نُفجّرُ كامنَ الرؤيا

* * *

أحبائي !
أتغمرنا ، وتُدْفئُنا
وتحرقُ ثوبَ ليلٍ كانَ
يعلكُنا ويبصقُنا ،
حضارتُكُمْ ، أحبائي ؟

القصّة

النسيان

جورج سالم

كان كل شيء على ما يرام حين انتهى الى الضفة في الأرض المقفرة . تلفّت يمنة ويسرة فلم يجد أحداً بجواره ، ولم يجد من يتعقّب أثره أو يراه حيث كان ، فاطمأنت نفسه وهدأ روعه وأيقن أن الأمور ستسير كما قدّر لها أن تسير، ثم شخص ببصره الى الأفق البعيد - الى ما وراء النهر - فظهر المنظر في ضوء الفجر ذي الأنوار المتكسّرة باهراً رائعاً مخيفاً بجماله ، وقال في نفسه : « ها قد وصلت » أما أهله وزوجته وأولاده فقد خلّفهم هناك وراءه ، بعيداً عنه ، ولن يستطيعوا اللحاق به أو معرفة مكانه الا بعد ساعات طويلة جداً .

وكان النهر - الذي لا يختلف عن جدول صغير الا بعمقه وغزارة مياهه - يسيل في هدوء وصمت محدثاً تكتكة خفيفة أشبه شيء بتكتكة الساعة الكبيرة ذات الرقاص التي تزين غرفة الاستقبال في منزله . وتوقّف هنيهة يتأمل صفحة الماء الرقراقة ، قال في نفسه : « ليس من يدري متى أخذ هذا النهر يجري ولا الى أين.

يجري ولا متى يتوقف » . ثم أضاف ساخراً : « ومن يجرؤ أن يقول أنـــه سيتوقف عن الجريان ذات يوم ! »

داعبته نسمات الصباح فأحس في صدره بما يشبه الدغدغـة فاستسلم لهذا الشعور في نشوة غريبة ، وهبّت موجة من ريح قاسية فأثارت على أقدامه غباراً متصاعداً من الأرض المقفرة التي توقف فيها ، فقال : « هيهات البقاء ههنا ! ». كل ما حوله متسخ درن ، والتفت قليلا الى الوراء ، لا شيء غير مألوف : تطـّل من بعيد ، من أعماق بلدته المباني العالية والأشجار ، وبالقرب منه الأعشاب البرية والعوسج ، وهنا أشجار الصبار بأوراقها المملوءة بالأشواك المدببة كالإبر ، لا شيء جديداً في هذا المشهد الرتيب المتكرر الذي ألف رؤيته صباح مساء منذ مئات المئات من الأيام. وفي اللحظة نفسها أهاب به صوت ـ لا يدري من أين انبعث ـ أن انظر أمامك ولا تلتفت الى الخلف . وأمامه بعد الضفة الثانية من النهر كان المشهد الرائع الجميل الذي لا حد لجماله ولا يستطيع اللسان البشري أن يصفه ، يتمثّلُ بكل بهائه وجلاله ، هو كون شبيه بفردوس ما رأته عين ولا سمعت به أذن انسان ولا خطر على بال بشر تتلألأ فيه نجوم وأقمار يخطف ضوءها البصر . وتساءل في قرارة نفسه : « أتراني خصصت بهذا الملك وحدي ؟! » وأرهف السمع لكي يلتقط كلمات أخرى تنبعث من ذاك الصوت الذي لا يدري من أين يأتيه ، ولكنه لم يسمع هذه المرة صوتاً بل سمع نغماً عذباً لم يكن قد تبيّنه من قبل ، نغماً لا يشبه أي نغم أتيح له أن يسمعه في حياته كلها . ظلّ فترة مشدوها مشدوداً الى هذا السحر الفائض المتدفق .

لم يستطع أن يجذب ذاته مما كان يحيط به إلا بعد لأي وجهد ، اذ لا بد له أن يقوم بما وطـّد العزم على القيام به . فاستدار يبحث عن بعض الألواح الخشبية

حوله ، الا أن الأرض كانت مقفرة خالية ، فبحث في كل اتجاه وسار طويلا حتى انتهى به المطاف الى حقل ، فراح يفتش فيه عن لوح أو ألواح خشبية . قال في نفسه : « ان مجموعة من الأغصان يربط بعضها الى بعض بحبل متين قد تفي بالغرض » . وهمّ بتناول بعض الأغصان المقطوعة ، فاذا به يجد لوحاً خشبياً يعلوه التراب ، قال في فرح ظاهر : « هذه بغيتي ! » وحمل اللوح الخشبي ومضى الى ضفة النهر مسرعاً خوفاً أن يراه أو يسمع وقع أقدامه انسان ما .

قال : لست أجيد السباحة والنهر عميق القاع فيما يبدو لي ، وسيتاح لي بواسطة هذا اللوح العبور الى الضفة الأخرى ، وهناك سأقيم وأقطع صلتي بكل ما حولي ومن حولي متنعماً الى الأبد بهذا الفردوس الفاتن .

وضع اللوح على الأرض وراح يدفعه حتى يلامس الضفة الثانية ، كانت هذه أعلى قليلا من الأولى ، فالتمس بعض الحجارة الصلبة ووضعها تحت طرف اللوح فاعتدل كأنه ميزان قويم ، وضغط على اللوح في عدة أماكن منه فوجده صلباً يستطيع أن يتحمل ثقل جسمه ، ومدّ ذراعه بجهد كبير كي يلامس منتصفه فوجده قوياً مرناً كذلك . قال : « ان كل شيء على ما يرام ! ولم يبق الا ان أسير عشر خطوات وينتهي الأمر لي »

وما ان همّ بوضع رجله على طرف اللوح الخشبي – بل قبل أن يلامس بأطراف حذائه جانب اللوح – حتى نجم له جنديان لا يدري كيف ظهرا ولا من أين أتيا ، وبصوت واحد متشابه ، في نبرة واحدة ، قالا له :

– قف !!

فتوقّف وهو لا يدري ماذا يجب أن يفعل ، ولا كيف ينبغي أن يتصرّف ، فقد كانت المفاجأة ساحقة !

لزم الجنديان الصمت فلم يتحركا ولم ينبسا بحرف ، فلزم هو أيضاً الصمت واقفاً متجمداً كتمثال من الملح !

وبعد لحظات قدّر أنها أطول من أطول ساعات انتظار مرّت به في حياته ، قال الجنديان بصوت واحد :

– الى أين أنت ذاهب أيها الرجل ؟

أحسّ بأنه يسترد أنفاسه التي كادت تنقطع . قال بشيء من الضعة والخجل :

– سأمضي الى هناك ، الى الضفة الثانية !

انبعثت من الجنديين في آن واحد وبحركات متشابهة ضحكات مجلجلة مدوية . ثم أشارا الى اللوح الخشبي وقالا :

– هذا غش وخداع !

فلم يفهم أول الأمر ما يعنيان، ونظر اليهما نظرات فيها مزيج من الدهشة والاستنكار والتساؤل .

قالا له :

– ان من يريد أن ينتقل الى هناك (وأشارا بطرف أصبعهما الى الضفة الثانية) عليه أن ينزل الى النهر فيقطعه سباحة .

أجابهما ، وكأنه وجد أخيراً حجة قاطعة ومبرراً لعمله :

– ولكنني لا أجيد السباحة .

نظر أحدهما الى الآخر، ثم التفتا اليه وقالا له :

– لا بأس ، انما نحن هنا لهذا السبب ، فباستطاعتنا أن نغوص معك فنجعلك تجتاز بصحبتنا نهر النسيان هذا .

ابتسم لهذا الحل ولم يجد فيه ضيرا ، وقبل أن يفتح فمه ليعلن موافقته ، قفز الى لسانه هذا السؤال :

– ماذا تقصدان بنهر النسيان ؟

ضحك الجنديان ثم قالا له :

– أأنت على استعداد للعبور ؟

نظر اليهما في فزع ، وصرخ بشيء من العصبيّة :

– أنبئاني أولاً ما معنى نهر النسيان ؟

قال الجنديان :

– اعلم إذاً أن كل من يريد الوصول الى هناك عليه أن يغوص ويستحم قبل كل شيء في نهر النسيان هذا .

فسأل في دهشة :

– ولماذا ؟

قال الجنديان بمكر :

– تلك أصول اللعبة . لم نضع نحن أصولها ولا ندري تفسيراً لها ، انما نحن موكلان بتنفيذها .

بدت الحيرة عليه فسألهما :

– ولكن لماذا ينسى ، وماذا عسى أن ينسى ؟

فأجاباه فوراً :

– كل شيء ، وهذه أصول اللعبة !

وبدا أنه ، للمرة الثانية ، لم يفهم حرفاً . قال الجنديان وقد نفد صبرهما :

– عليك أن تقرر ، وينبغي أن يتم ذلك بسرعة .

قال :

– وماذا ينسى ؟

نفض الجنديان ايديهما الواحدة بالأخرى وقالا :

– ينسى ماضيه كله مثلاً ، ينسى حياته ، ينسى الشقاء والعذاب والالم والفقر وما أشبه ذلك ...

هزّ رأسه أول الأمر في شيء من الفرح . حسن أن ينسى المرء دفعة واحدة كل هذه المصائب المتراكمة . ولكنه سرعان ما استدرك وقال :

– ولكنه سينسى أيضاً أفراحه ومباهجه ولحظات سعادته !

فهز الجنديان رأسيهما موافقين .

لبث حائراً ثم قال :

– أما من حل ثالث ؟!

– لا وجود للحل الثالث في أصول هذه اللعبة .

وأشارا اليه اشارة الاسراع كأنهما يتعجلانه .

قال في نفسه : « كيف أجرؤ على أن أضيع في لحظات قصار أجمل ماجمعت في حياتي وأثمن ماتكوّنت منه لحمة وجودي . وكيف يريد هذان الجنديان أن أنسى سعادتي وأفراحي وآلامي وأحزاني وكل ما أعطى حياتي معناها فأفرغ ذاتي من محتواها ؟ هل يستطيع الانسان أن يتخلّى عن ذاته بمثل هذا اليسر وهذه السرعة ؟!

قال :

– واذا رفضت النسيان ، ورغبت عن الاستحمام في مياه النهر ؟

قالا له :

– ذلك شأنك ، فأنت أردت المجيء ، ولم ندعك نحن !

– وما العمل في مثل هذه الحال ؟

– الأمر في غاية اليسر : تعود من حيث أتيت تعاني الألم والشقاء والعذاب والتعاسة في بلدتك .

استدار في تصميم مولياً النهر ظهره . وسمع وهو في طريق العودة صوت تحطم اللوح الخشبي وتناثره شظايا في كل اتجاه .

حوارية

الذئاب تعوي عند اكتمال القمر

غسّان جزائري

يدغدغ الموت ضحيته . فالسطحي يموت وعلى وجهه ابتسامة ، والقوي يموت وعلى وجهه كشرة رهيبة تضع في نفسه حداً لسخافات الموت .. انه ذلك الوجود الكريه الذي يخشاه من يعيش في رفاهية بعيداً عن الشعور بالذنب ، ويطلبه من يقاسي آلام الحياة ويعاني تبكيت الضمير يحمل عبأه وعبء الذين لا يبالون . مسكين .

– لقد سمعتهم يقولون ذلك .

– أنا .. لم اسمع شيئاً . لقد كنا معاً ، اليس كذلك ؟ ولكن يخيل إلي اني قرأت شيئاً من هذا القبيل .

– كان يعيش فى مغارة ، والمغارة لا يأوى اليها الا الذئاب . لقد خدع الجميع . لقد كانوا يعيشون في بقعة الارض نفسها . كانوا يقولون : في المغارة ذئاب هذه اصواتهم (يسمع الآخر صوت ذئب) . وقال المشككون : ربما

كان يموت . وقال آخرون : حذار، حذار ان تقتربوا من المغارة فقـــد ينقض الذئب عليكم ويمزقكم إرباً إربا . لن يسمعكم احد ان صرختم : النجدة ، ربمـــا يتجاهلون نداءكم كما هم دائماً يفعلون . وقال آخر : كنت اقطنها قبل ان تغـدو موطناً للذئب . لم يكترث بالآخر احد . ما بالك ترتجف ؟

– (دعك من هذا . دعك من هذا) .

– قالوا ان الذئاب لا تعوي الا عنـد اكتمال القمر، وكان الذئب يعوي دائماً . هذا ما كان يحيرهم .

– من يدري ربما كان القمر مكتملا في مخيلته .

– اجل .. لم افكر في هذا . بل لم يخطر ببالي ذلك . غريب . حقاً . لماذا لا تخبرهم انت بنفسك ذلك ؟ كان الذئب حديث اهل القرية . كانوا يحملون في يدهم مشاعل حتى في وضح النهار ويحملون في يدهم الاخرى عصيا طويلة قاسية في رؤوسها حراب حديدية وكلما طالت فترة وجود الذئب بينهم تناقص عدد القوم وكسب الذئب مؤيدين له منهم . وقف من بين القوم رجل وصرخ : الى متى سيدوم خوفنا من هذا الذئب اللعين ؟ الى متى سنعيش في ذل ؟ في قلق ؟ ونهض آخر ورد على الاول بعنف : اننا لا نخاف احداً . اننا لا نخشى شيئاً .

– لماذا تنظر الى السماء ؟

– القمر مكتمل اليوم .

– ربما يعوي ذئب آخر . (يسمع عواء ذئب) ماذا حـــدث للذئب الاول ؟ قلت انهم اقتربوا من مغارته .

– اجل . اقتربوا ولكنهم رجعوا يجرون خلفهم اذيال الفشل . لقد صرخ احدهم : هيا . اسرعوا .. اهربوا .. اهربوا .. الذئاب تطاردكم .

ـ وماذا فعلوا ؟

ـ صدقوه فركضوا . لم يتبين أحد صدق القول .

ـ لم يكن هناك ذئب أو ذئاب ... أليس كذلك ؟

ـ أجل لم يكن هناك ذئب أو ذئاب . كان هناك كلب بري شارد يحتضر . ان مات سيندثر . عواؤه يقض مضاجع القوم يجعلهم يتوجهون اليه كلّ على حدة كل عدد من السنين . يقفون بعيداً عن المغـــارة ويصرخون صرخات جوفاء . يزمجرون . يتسمرون حين لايسمعون أي صدى . ثم يصرخون من جديد صرخات عشوائية محمومة يريدون أن يرهبوه . انه كالشيطان لايرونه . لابد انهم ضلّوا الطريق . فقدوا طريق المغارة والمغارة تسكنها الذئاب . وحين عرفوا انهم ضلّوا الطريق عادت لهم شجاعتهم وصار كل واحد منهم يروي للجميع بطولاته السابقة وانه لولا أن ضل الطريق لعاد وهو يحمل جثـــة الذئب اللعين ولهذا السبب لم يذهبوا معاً ولكنهم التقوا صدفة في الطريق . كان هناك تشديد غريب على كلمات معينة . واختلف القوم كلهم يريد أن يعود بجثة الذئب وقف أحدهم ممن كان يسمونه معتوهاً وعلى وجهه كشرة وقال للجميـع : كان بودي أن أعود بالذئب في قفص واجعل منه مورد رزق لي ولكن لابأس . سأضحي من أجلكم واترك لكم شرف صيد الذئب كيلا تغضبوا . وهنا قام أحد الحضور فابتسم وصفعه صفعتين قويتين لم يترك له فرصة ادارة الخد الآخر وقال له : خذ هـــذا جزاؤك وجزاء من يسخر منا . قال الهرمون منهم وقد كاد التأثر أن يصرعهم : مسكين دعوه . دعوا المعتوه وشأنه . سينقذه الموت ان اصابه . وقف المسكين بعد أن شكك بموقف الذي صفعه وقال بحرقة : لقد مات الذئب وبقيت

روحه فينا . كلنا ذئاب وهنا حدث هرج ومرج ولغط ووقفت أصرخ : أيها الناس . أيها الناس . فلم يجبني أحد وكأنما عقدت السنتهم جميعاً وراحوا ينظرون إلي نظرات غريبة وكأني ارتكبت جريمة أو خيانة ، وارتبكت .

وحين هدأت نفسي صرخت : أيها الذئاب . أيها الذئاب . قالوا : نعم . نعم . وغص البعض بكلمة نعم وسقطوا مغشياً عليهم .

(يسقط زميله مغشياً عليه ويقف الآخر مشدوها)

العلم والأدب

د . بطرس مدور [1]

ترجمة : محيي الدين صبحي

هل ترك الأول للآخر شيئاً يقوله ؟ أم هل غادر الشعراء من متردم ؟ فماذا يمكن ان يقال في هذا المجال بعد أبحاث ريتشاردز وهكسلي وسنو وآخرون ؟

لذلك سأبدأ بسرد الأفكار التي لن اعالجها : لن اتحدث عن الثقافة ، ولا عن التوفيق بين العلم والأدب ، ولا عن أن الأدب الخيالي مهدئاً أو مهيجاً للأفكار العلميـة أو العكس . ولن أقول مع وردزورث ان الاكتشافات والأفكار والمغامرات العلمية ستحتل جزءاً أكبر في مادة الشعر . ولن أعيد تعنيف المستر بيكوك لنقاد المجلات الذين « يستمرون في عملهم الأدبي وكأن لم يوجد بعد علماء في الرياضيات أو الفلك أو الكيمياء أو التاريخ او الاقتصاد السياسي .. »

---

(١) من أصل لبناني ، مدير المؤسسة القومية للابحاث الطبية في انكلترا ، نال جائزة نوبل للطب عام ١٩٦٠ .

فاذا حذفنا ذلك فماذا يبقى في موضوعنا ؟ تبقى ملاحظة لويس ديكسون « حين يصل العلم ينصرف الأدب » وهي الملاحظة التي تعكس أحزان كيتس من أن تحليل قوس قزح جعل من الامور المرعبة أموراً عادية بليدة .

هذه الملاحظة سأقلبها رأساً على عقب ، وسأجعل قضيتي التي أريد البرهان عليها هي أنه (حين يصل الأدب ينصرف العلم) . ثمة حقول في المعتقدات والمعارف الانسانية يجد العلم والأدب كلاهما لديها مايقولانه، هذه الحقول نجدها مثلا فى النواحي الثقافية والاجتماعية من علم الانسان (الانثر بولوجيا) وفي النواحي النفسية والسلوكية لدى الانسان ، وحتى في علم الكون (كوسمولوجيا) . فهذه الموضوعات تكمن في حقل الأدب حين يعالج آمال الانسان ومخاوفه ومعتقداته وحوافزه ، حين يتح الأديب من نفسه ويتعمق شروط حياته ، وحين يبحث أمور الثقافة العامة ، وهو اصطلاح أعني به نموذج الطريقة التي يفكر بها الناس ويتصرفون . وعلى العلم في هذه الحقول أن يوجد نوعاً من الفهم، خيالياً في أصوله (كما أود أن أبرهن) لكنه يخضع لرقابة الحقيقة التجريبية .

لا يوحين ذلك بأن العلم والأدب يتعاونان للوصول الى هدف مشترك ، بل على العكس ، إنهما يتنافسان حيث يجب أن يتعاونا . إنني شديد الأسف لهذا الحال وأتمنى أن يكون الجميع أصدقاء . وقد قال ألدوس هكسلي:

« أيها الادباء ، أيها العلماء ، دعونا نتقدم معاً نحو المجهول الذي يتسع أمامنا دوماً وأبداً » .

ان هذا لطموح جميل . غير ان تحقيقه يقتضي أولاً أن يتفهم الأديب والعالم انجازاتهما ومناهجهما ومفهوماتهما ، ونوع ونمط الحركة التي يتجه اليها تفكيرهما . لذلك سأناقش التخيل والنقد في كل من العلم والأدب ، لأبين لماذا

لايمكن أن يتوافق مفهوما الأدب والعلم ومناهجهما . بعد ذلك سأقارن بين فكرة الشعر عن الحقيقة وفكرة العلم عنها ، وفي النهـــاية سأستعمل التحليل النفسي الفرويدي وعلم النفس العقلي الراهن ، لأبين الطريقة التي يتنافس بها كل من العلم والأدب على الاكتشافات التي يدعيها كل منهما لنفسه .

لأبدأ بمناقشة حدود المخيلة ومداخلاتها ثم العقلية النقدية التي تتبعها في كل من الأدب والعلم . ان النظرية الرومانسية الرسمية تجعل العقل والمخيلة نقيضين ، أو على الأقل يشقان طريقين متناوبين يقود كل منهما إلى الحقيقة . فأما طريق العقل فطويل ملتو يقصر عن بلوغ القمة بأنفاس لاهثة متهدجة . وأما المخيلة فانها تعدو قفزاً إليها . لذلك فالعقل يتقدم دائماً في مناطق كانت تحتلها المخيلة .

وليست هذه هي النظرية الرسمية التي يعلنها الشعراء ، كبـــار الشعراء الرومانسيين فقط ، وانما كان يعتنقها أيضاً كبار العلماء من نيوتن إلى باكون وميل . واليوم نجد ألدوس هكسلي ، الرجل الذي يحق له أن يتكلم عن العـــلم والأدب كليهما بسلطة متساوية ، يقول : « العلم هو الملاحظة النزيهة البصيرة والممارسة دون تحيز ، وهو الاستدلال الصبور ضمن نظام من المفاهيم المترابطة منطقياً » .

هذا مع العلم بأن هكسلي قد يكون آخر رجل ينكر دور المخيلة في العلم . غير أن المخيلة الخلاقة في العلم موهبة أفراد نادرين يحققون في توهج الحدس مالا نحققه نحن إلا بالجهد الجهيد في ممارســـة « صناعة التحليل » حسب قول وردزورث . غير أن النقطة هي أن بامكاننا أن نتوصل إليها – قد لانكون جميعاً عباقرة ولكن بامكاننا أن نتوصل الى اكتشاف ما دون حدس ، بالرغم من أن ذلك لم يحدث حتى الآن .

هذه هي النظرة الرسمية للمدرسة الرومانسية عن التزام العلم بالعقل . غير أن كثيرين لم يعودوا يؤمنون بها بعد أن فكروا ملياً في طبيعة تجريبات العملية العلمية . فبزغ مفهوم مختلف تماماً في كتابات هيويل وبيرس وكارل بوبل .

وفحوى النظرية الجديدة هي أن كل تقدم في الفهم العلمي يبدأ بمغامرة تأملية . أي بتصور سابق لمفهوم « مايمكن ان يكون صحيحاً » . وهذا التصور يبتعد كثيراً أو قليلاً عن الاعتقاد السائد . إنه ابتكار عالم ممكن ، او جزء منه. بعد ذلك يعرض هذا التصور للنقد كي نرى ما إذا كان هذا العالم المتخيل قريباً من العالم الواقعي .

وعلى ذلك فان التفكير العلمي في كل مستوياته تفاعل داخلي بين حادثتي تفكير ، أو حوار بين صوتين: المتخيّل والنقدي ، بل لعله حوار بين الممكن والواقعي أو بين المقترح والمعروض .

في هذا المفهوم لاجراءات العملية العلمية يتكامل على الدوام النقد والمخيلة . وعلى ذلك ، فالمخيلة دون نقد خليط مضحك من المبالغات والأفكار السخيفة ،أما النقد دون مخيلة فهو أرض قاحلة . يعتقد الرومانسيون ان الشعر أو الاكتشاف الخالق يتناقضان تمام التناقض مع التفكير التحليلي ، فهما شيء بعيد عن تفاعل العقل مع الواقع . وبذلك أخطأوا كشفاً من أعظم الكشوف ، وهو التعاون بين المخيلة والتفكير ، بين الابتكار والملكة النقدية ، وأنا أدعو ذلك كشفاً مع أنه ليس عمل رجل واحد .

قد يقول قائل : « نحن نقبل رأيك بأن التفكير العلمي قد ينحل إلى حوار بين الملكات النقدية والابتكارية ، أو إلى شيء من هذا القبيل عامة ، ولكن ماهو الأمر العلمي المميز في ذلك ؟ ولماذا يجب أن نتشبث به لنميز العلم

من الأدب الخيالي ؟ ، وقد يستشهد على سؤاله بقول ماثيو أرنولد « الشعر جمعية نقد للحياة . » غير أن ارنولد نفسه كان يرى النقد والابتكار على طرفي نقيض ، ولعله حين قال « ان ملكة النقد أدنى درجة من ملكة الابداع » أظهر لنا أنه ليس لديه أية فكرة عن وجود أشكال من الذكاء لاينطبق عليها تصنيفه .

والخلاصة هي أن فكرتنا التقليدية عن دور المخيلة والنقد في العلم والأدب تقوم على الدعاوة الخاطئة التي بثها الشعراء الرومانسيون والفلاسفة الاستدلاليون ، بينما يرى المحدثون أن المخيلة هي القوة المحركة للعلم والأدب معاً ، غير أن المخيلة والتقييم النقدي لانتاجها في الحقل العلمي يعملان متكاملين مترابطين . وإذا تبنينا اتجاهاً توفيقياً قلنا إن العلم شكل من الشعر (بمعناه الكلاسيكي الواسع) يعمل فيه العقل والمخيلة متضامنين . هذا هو أهم كشف للتحليل الفكري في الفكر الحديث .

* * *

إذا اردنا الآن بحث الأسلوب العلمي وجدنا « الفلاسفة الجدد » في القرن السابع عشر يصرون على ان الكتابة العلمية والكتابة الأدبية متباينتان متناقضتان ، ففي الكتابة العلمية يكمن العنصر التخيلي في المفهوم وليس في اللغة التي تجعل المفهوم واضحاً قابلا للادراك . ويجب أن يتم الوضوح بأسلوب طبيعي . يقول إ . ريتشاردز « نحن نصدق العالم لأنه يستطيع أن يبرهن على ملاحظاته وليس لفصاحته أو سهولة عرضه ، بل إننا نشك به حين يحاول التأثير فينا بهذه الوسائل . »

في أيام « الفلسفة الجديدة » وصلت المنافسة والمنازعة أوجها بين الفصاحة والحكمة ، بين الاسلوب والمضمون ، بين الوسيلة والرسالة ، بعد أن استمرت

مايقرب من ألفي عام . فليس من سبب يجعل الكتابة العلمية والفلسفية موضوعاً للأدب والبلاغة .

لم تتزعزع هذه الفكرة إلا حين انتشر تأثير الكتابة الفلسفية في الحقبة الألمانية ، بين منتصف القرن التاسع عشر ونهاية الحرب العالمية الأولى . فقدخضع الفكر وتشوش بغوامض الميتافيزيقا الألمانية . واحتل الاسلوب المحل الاول ، وأي اسلوب هو ؟ مصقول ، مليء بذاتية الكاتب ، ذو وقفات كأنما ينتظر كاتبه خلالها انفجار التصفيق . وكان له تأثير محزن على نوع الفكر الحديث في الفلسفة والعلوم السلوكية والانسانية .

يتصف هذا الاسلوب بنقص الوضوح إلى درجة من الصعب معها متابعته . ولقد عم الغموض جميع المجالات ، حتى قال جونسون عن درايدن « كان يستمتع بالسير على شفا المعنى حيث يختلط النور والظلام أولاً بأول » .

ان الغموض في الأسلوب رذيلة مهما تكن دوافعه . وكان (كنت) يقول ان هدف الكتابة الغامضة أو الصعبة هي أن تخلق وهم العمق في نفس القارىء . وأرى أن أي شخص إذا كان لديه شيء أصيل يقوله - سواء في مجالات العلم أو الفلسفة أو الأدب أو مابينها - فانه لن يجازف بأن يقوله بشكل غير مفهوم ، عامداً متعمداً . فالكاتب الغامض إما أن يكون غير ماهر أو أنه يخطىء هدفه .

. . .

سأقارن الآن بين فكرتي العلم والشعر عن الحقيقة ، بقدار مايساعدنا ذلك على معرفة وتحديد العوامل الأدبية في الفكر العلمي أو شبه العلمي .

حين تستعمل كلمة « الحقيقة » في نص علمي تدل دائماً على شيء له صلة بالواقع . فالشيء حقيقي حين يكون في الواقع حقيقياً - هذه هي القضية . وهذه

الحقيقة التجريبية - الحقيقة بمعنى أنني في هذه اللحظة أكتب في غرفتي ولست راكباً في طائرة . ان هذه الصلة بالواقع هي الاختبار الذي تخضع له جميع النظريات العلمية مهما كان شأنها .

لننبذ على التو فكرة أن الحقيقة التجريبية كما يستعملها العلماء - أو حتى المحامون والمؤرخون - هي الفكرة الأولية أو الجوهرية التي يفهمها كل انسان فهماً لدنياً أو حدسياً . على العكس من ذلك ، فالحقيقة فكرة متقدمة جداً وناضجة جداً بحيث نجهد في سبيلها ولا تأتي إلينا عفواً ولا سهواً . ولننبذ أيضاً التفسير الاستدلالي للطريقة التي تدخل بموجبها الحقيقة في الاستطلاع العلمي . ففي النظريات الاستنتاجية الكلاسيكية عن المنهج العلمي تكون الحقيقة العملية السهلة هي مايفترض أن يبدأ به التفكير العلمي . فنحن نبدأ بتفهم دقيق لوقائع القضية ؛ نبدأ بصورة جلية زودتنا بها الحواس ، بحيث يستطيع التفكير العلمي أن يضع فوقها المزيد من الحقائق العامة أو القوانين الطبيعية . وترى النظرية الاستدلالية أننا لانقع في الخطأ إلا حين نخطىء في فهم الوقائع التي ظننا أن بامكاننا الاعتماد عليها . الخطأ تابع لعدم التمييز في الرؤية ، وللقراءة الزائفة « لكتاب الطبيعة » حيث تكمن الحقيقة ويمكن استخراجها إذا استمسكنا بالعامل الذي يخص قضيتنا ، بكل اخلاص الاطفال وبراءتهم .

هذا المفهوم عن الحقيقة والخطأ غير واقعي بالمرة . فالنظريات العلمية تبدأ كتراكيب متخيلة - انها تبدأ كالقصص ؛ كما أن هدف النقد أو التنقيح في التفكير العلمي هي أن نجد ماإذا كان لهذه القصص صلة بواقع الحياة العملية أو لم يكن . لذلك ليست الحقيقة تجريبية أو نظرية ، هي نقطة البداية في البحث العلمي بل هي الاتجاه الذي يتحرك بموجبه التفكير العلمي . ان صحة هذه الموضوعة

تستتبع أنه لايمكن التمييز بين الاعتبارات الخيالية للعالم في العلم والشعر ، بحسب أصولها . فهي تبدأ متوازية ، لكن كلا منها ينحو نحوه الخاص في مرحلة متأخرة . كلنا يروي حكايات ، لكن الحكايات تختلف باختلاف الأهداف التي نتوقعها من كل حكاية ، وباختلاف أنواع التقييم الذي نقيمها به .

لم يكن اختلاف الحقيقة الشعرية عن الحقيقة العملية امراً مسلماً به على الدوام . يقول السير فيليب سدني « الشاعر لايؤكد شيئاً لذلك فهو لايكذب أبداً . ذلك أن الكذب هو أن تؤكد صحة شيء زائف . غير ان الشاعر لايؤكد . » فاذا تساوت الاشياء كان الاختيار بين مايتصل بالحقيقة ومايهجرها ، وسيقع الاختيار على الحقيقة . أما اذا كان الاختيار بين ماهي عليه الاشياء وبين مايجب أن تكون ، فان الأولى اختيار مايجب ان يكون في حالات الاستعمال والتعلم . إن العالم مقيد بمسألة خاصة ، وكل مفهوم يصدر عن هذا الأمر الخاص ليس له إلا قوة « المشابهة الظنية » وليس له قوة الحقيقة الشعرية .

وفكرة أن الحقيقة الشعرية كشف عن المثالي - أو مايجب أن يكون - متسلسلة عن ارسطو الذي ألبسها معنى أخلاقياً . غير ان الأستاذ بوتشر لاينسبها لأرسطو . ويقول ان سبب نسبتها اليه قوله « الشعر أعمق فلسفة وأرفع من التاريخ » (ويمكن أن نضع العلم موضع التاريخ) وقد قال ماقال لأن الشعر يكشف عما يجب أن يكون على ضوء الفهم الصحيح لنوايا الطبيعة وليس لأعمالها التي تأتي فجة ناقصة . فالشاعر يتبين الهدف الذي تعمل من أجله الطبيعة ولا تنجزه بدقة . وبذلك فالشاعر امرؤ فوق الطبيعة ، وهو الناطق عن أعمال لم تفلح في انجازها .

يغني مفهوم أرسطو الحقيقة العلمية ، أو أنه يبدلها بحقيقة أرفع تمثل

البرهان على بصيرة أعمق وأوسع – حقيقـة هي من الرفعة بحيث تخسر الطبيعة إذا لم تتبعها .

هذا التفسير يرجع الى العهود الكلاسيكية ولم يعد يدافع عـنه أحد ، وهذا لايعني أن أحداً لم يعد يؤمن به . أما التفسير الثاني للحقيقة الشعرية فيقال إنه يمثل حقيقة ليست علوية بل من نوع آخر . فهي تحمل مفهوماً بديلا او مجموعة من البدائل تعني فهمنا العملي بأن تجعلنا نندفع ونفكر في «مجـــال أوسع من العملي » .

في هذا المفهوم الثاني للحقيقة ، سيحكم بصحة بناء من الأفكار الخيالية – كالاسطورة مثلاً ، خاصة إذاتدخلت فيها عوامل سحرية – إذا كانت متماسكة في مجموعها كوحدة ، ليس فيها تناقض داخلي ، ولا نهايات سائبة ، وأن تواجه ما هو غير متوقع . ليس بامكان كلمة واحدة أن تصف هذه المجموعةمن الخصائص ، لكن أية قصة أو نظرية أو صورة عن العالم أو بنية خيالية من أي نوع – فيوسعها أن « تكون معنى » يمكن أن « نؤمن به » – تخضع لهذا المفهوم. لا ريب في أن جميع النظريات العلمية يجب أن تكون معنى ، ولكن يضاف إلى ذلـك قدرتها على التلاؤم مع الواقع ، كي تكون صحيحة عند التجريب . ان عدم القدرة على فرض هذا الشرط الأخير فتح لنا عالماً أوسع وأكثر تنوعاً وأدعى إلى الثقة من الحياة الواقعية .

لقد ذكرت الأساطير . حين درس ليفي شتراوس تفكير المتوحشين ، نبذ الاعتقاد التقليدي بأن الأساطير سخافات بدائية وأنها تركيبات بريئة سخيفة لا تمثل سوى مرحلة أولية في تطور التفكير العلمي . بل على العكس : « بوسع المرء أن يفكر بالدقة الهائلة للتفكير السحري والأعمال الشعائرية كتعبير عن فهم

لا شعوري لحقيقة الحتمية ، وهو الشكل الذي توجد عليه الظاهره العلمية . »
وبدلاً من أن نعارض بين السحر والعلم « من الأفضل أن نقارنهما كمنهجين متوازيين للاستطلاع العلمي . » أو « كمستويين علميين تخضع بموجبهما الطبيعة للاستطلاع العلمي » و « كلاهما صادق » .

كان ليفي شتراوس يريد أن يقول ان الاسطورة « تكون المعنى » مثلما أن النظريات العلمية التقليدية « تكون المعنى » . ولم يشعر بأن فشل الاساطير في قياس الواقعة - أي في اجتياز أعلى امتحان يؤهلها للتلاؤم مع الحياة الواقعية - لا يؤهلها لحيازة الصفة « العلمية » . ويخبرنا شتراوس بأن بعض أهالي سيبيريا يؤمنون بأن لمس منقار طائر نقار الخشب يشفي وجع الضرس :

« قد ينهض الاعتراض بأن علماً من هذا النوع ليس له تأثير عملي . والرد عليه هو أن هدفه الرئيسي ليس عملياً . فهو يلبي تطلبات فكرية بدلاً من أن يلبي حاجات عملية ... فليس السؤال الصحيح هو ما إذا كان لمس منقار الطائر يشفي عملياً وجع الضرس ، بل ما إذا كنا ننظر إلى ضرس الرجل ومنقار الطائر كشيئين متلازمين (ان استعمال هذا التطابق لأهداف علاجية هو أحد الاستعمالات الممكنة) وما إذا كان في وسعنا ادخال هذا النظام الأولي في الكون من خلال هذه التصنيفات » .

هذا بيان جلي عن قضيته ، ولست أجدها مقنعة بالمرة . إنني لأتساءل : طلبات من ستلبى : طلبات المتوحشين أو علماء الانسان ؟ وبأي معيار سنعرف ما إذا كان عالم الانسان نفسه لا يبتدع أسطورة عن الأسطورة ، علم أساطير ميتافيزيقي ؛ أو ان يميل أحد الموجعين يوماً إلى طريقة في التفكير أعظم نجاعة؟ المسألة هي أن تكوين المعنى والايمان به شرطان ضروريان ، وليسا بكافيين في عملية

التعقل التي تدعى العلم أو الادراك العام . ان عـالم الأساطير عالم « تكون فيه المتناقضات صحيحة » وهو عالم لا يكون فيه نقيض الحقيقة زائفاً بل يعتبر حقيقة أخرى ، وإن كل حقيقة تروي قصة تختلف عن سابقتها ، أو أنها برهان على تفسير للعالم يختلف عن نقيضه . إن كل أسطورة أو مجموعة مـــن الأعمال السحرية قد تخدم الهدف أو مثيله . وليست الحجة الـتي أوردها ليفي شتراوس ليؤكد بها النظرة الشائعة من أن الأساطير نوع من التحسس التقريبي للعلم ، أو هي أولى المحاولات لتكوين المعنى من تعقيدات هذا العالم ، ليست حجته هذه في نظري إلا لتبرير النظرة الشائعة . لأن الأساطير ليست حقائق واقعية ، بـل هي في أفضل حالاتها بنيات مشابهة للحقيقة ، أو نوع من الترشيح لما يمكن أن يكون حقيقة ، لكنه ترشيح معفى من الامتحان .

ان الرجل العادي لا يلاحظ على الدوام ناحية القصور في مجرد تكوين المعنى وتبادل الرأي . ان نظرية فرويد في التحليـل النفسي أسطورة تستجيب لأوصاف ليفي شتراوس . فهي توجد بعض النظام في الأشياء المشتتة ، كما أنها تجمع الشتات وتكون المعنى ولا تترك نهايات سائبة ولا تفتقدمطلقاً إلى الشرح . هذه النظرية تقدم في حالة الارتبـاك الراحة والخلاص . ولكن ماذا عن نواحي العلاج فيها ؟ إنها تخرج بلباقة مـن مأزق منقار الطائر ، لأن معظم المفكرين المعتمدين ، أو ان الرأي الشائع بين الناس يرى غاية التحليل النفسي المعالجة والشفاء . بل إن هدفها اضفاء فهم أكثر جدة وعمقاً على شروط موضوعها وعلى طبيعة العلاقة بين المريض (الموضوع) وبين بقية الناس . ان هذه النظرية تضرب حول المريض بنية اسطورية ذات معنى قابل للتصديق بصرف النظر عن صحته أو خطئه . وقد تستطيع بنية أخرى أن تقدم مثل ذلك للمريض أو أقل منه .

ينبذ الطب العقلي الآن فكرة المعالجة ويبدلها بفكرة « الشفاء » . فالمجنون يشفى عندما تترتب أفكاره وينشيء علاقات اجتماعية ليس فيها جنون ، أي خالية من التناقض وعداوة المجتمع والاستلاب . ولقد حـل « الفهم » محل « الشرح » . والفهم هنا يعني عملية الادراك التي يكتشف فيها الطبيب معنى النظام الفكري الذي يدفع المجنون إلى أفعاله .

ففي علم النفس الفرويدي كما في الأساطيري ، لا معنى للموافقة العقلية أو عدمها . فالمسألة مسألة قناعة ، أي أنك تقع في شرك الخطة التي يفكر بوجبها الكاتب ، أي أنك تستسلم له وتستنبط الأوهام من أجل ذلك .

إنني لشديد الأسف أن تكون هذه المعالجات النفسية شديدة الأذى ، لا لأنها ضارة أو فاشلة إنما لأنها تمثل طرازاً من التفكير يعيق نمو فهمنا للأمراض العقلية . لنأخذ على سبيل المثال ضعف العقل كموضوع حقق فيه الطب العقلي بعض النجاح . فإذا كان لدينا طفل ضعيف العقل بدا سليماً حين ولد : ماهي علته الآن ؟

هل دفعته بعض مشاهداته المنسية لتناقضات الحياة إلى الانسحاب إلى عالمه الداخلي الصامت ؟ أم أن في بنيته نقصاً في المورثات ؟

نوعان من الأسئلة يطرحهما المحلل في العيادة والطبيب في المخبر . ان الطب العقلي النظري ينبذ فكرة السبب العضوي للشذوذ، بينما يريدها العالم أن تكون صحيحة . فاذا وجد في العلم والطبابة شيء مشابه للنقد الأدبي ، فلا يجوز ان نبحث فقط في ما له سبب يجعل الناس يؤمنون به ، بل في الأنواع التي يريدون أن يؤمنوا بها ، وفي التاريخ الثقافي للكيفية التي جعلت الناس يخضعون لعادتين أو أكثر من عادات التفكير التي لايمكن أن تتوافق معاً .

ينتج مما تقدم أن مدارس علم النفس ـ من فرويدية وغيرها ـ تتطرف في الأخذ

بمفهوم للحقيقة يمت الى الميلة الأدبية في جوهره ، لكن نقيض الحقيقة ليس الخطأ بل حقيقة أخرى مماثلة .

قلت في مطلع الدراسة ان قصدي أن أبين كيف أن العلم يميل الى طرد الأدب ، وأن الأدب يميل الى طرد العلم من جميع المجالات التي يدعيها كلاهما لنفسه ، وبخاصة مجالات التعلم التي تتعلق بالسلوك البشري في أوسع معانيه .

ان العـــلامات المميزة لادعاء الأدب في العلم ، كما يتبين من هذه الدراسة ، هي :

أولاً – ثمة ادعاء صريح أو ضمني بأن الأدب أعمق بصيرة ممـــا ينجزه العلماء في مخابرهم أو المؤرخون او اللغويون أو الفلاسفة التقليديون ، وبصيرة الأدب تحدق وراء العالم الصغير لأنابيب الاختبار والرسوم التخطيطية ووسائل القياس ، أي وراء الوقائع .

ثانياً – ثمة ترابط في أعلى درجات المخيلة مع الفشل أو الفتور في تطبيق العملية النقدية بحيث لم تعد ملكات النقد والابداع تعمل معاً بحيوية بل تميـــل الى التنافس ، ومع هذا الترابط ينشأ المعسكر الذي ينكر أهمية الالتزام بالتقويم أو بالتبرير ، وقد يذهب مذهب انكار التفكير العقلاني .

ثالثاً – هناك الأسلوب الذي تعلن به حقائق المخيلة . وهو أسلوب قد يبهر ويخدع في البداية، لكنه في النهاية يربك ويقرف لأنه يستغل الاستعمال البلاغي الفاسد للغموض .

قد يتساءل المرء إذا ظلت هذه الاعراض وراء متناول النقـــد ، واذا ركب أصحاب هذه الانحرافات رأسهم في انكار مبادىء البرهان أو العلاج أو أي نوع من أنواع التقويم ، وافلتوا من كل العقوبات التي تفرض على الفيزيائيين

أو المؤرخين أو العلماء التجريبيين ، فأي شيء يوقف اتساع نفوذهم وتظاهرهم الذي لاحد له .

الجواب بسيط . حين تتغير « الموضات الفكرية » سينساهم الناس كما نسوا الفلاسفة الرومانتيكيين في القرن السابع عشر أو فلاسفة المناهج في القرن التاسع عشر . وهذا اسوأ مصير ينزل بهم .

احذروا الصهيونية

تأليف : يوري ايفانوف

عرض وتلخيص

ميشيل كيلو

يسد هذا الكتاب ليوري إيفانوف ، الكاتب السوفياتي الذي عاش فترة طويلة في اسرائيل، ثغرة كبيرة في الفكر السياسي الاشتراكي . لقد أشار لينين أكثر من مرة الى أن الصهيونية تشكل تياراً رجعياً للبرجوازية اليهودية ، كما أشار مرات عديدة الى ضرورة تحليل القوى المناهضة للاشتراكية تحليلاً حسياً ومفصلا . ولكن الصهيونية خرجت لسنوات طويلة من حقل الرؤيا الاشتراكية وبقيت متوارية في ظلام فكري مطبق ، حتى بعد أن اتضحت بالدلائل المحسوسة، منذ نهاية القرن الماضي ، حتى أيامنا هذه ، طبيعتها المعادية للاشتراكية ولثورة

(١) احذروا الصهيونية - ترجمة احمد داود - منشورات وزارة الثقافة - دمشق ١٩٦٩ .

التحرر الوطني ، والمغرقة في رجعيتها . ان كتاب « احذروا الصهيونية » يمثل محاولة جادة لدراسة وتحليل هذه الظاهرة الرجعية الامبريالية ، دراسة لا تقتصر فقط على مناحيها التطبيقية ، بـل تتناول كذلك أسسهـــا النظرية وارتباطاتها الواقعية . ونحن نأمل ألا تكون هذه الدراسة رد فعل فقط على ما قامت به الصهيونية في عدوان حزيران ضد العرب ، بل أن تمثـل خطوة أولى على طريق « تحليل هذه القوة المناهضة للاشتراكية تحليلاً ملموساً ومحسوساً » كائناً ما كانت الشعارات التي ترفعها، والمناطق التي تسكنها .

. . .

يقسم المؤلف كتابه الى خمسة فصول هي :

١ً – بين الوهم والواقع

٢ً – حين ترمى الحجارة وحين تجمع الحجارة

٣ً – متاهة .. لكنها مفضوحة

٤ً – أمام الخيار

٥ً – إحذروا الصهيونية .

أما في المقدمة القصيرة التي كتبها المؤلف لكتابه فهو يطرح سؤالاً هاماً وأساسياً حول تلك القوى التي «استطاعت لأعوام طويلة أن تخلق نوعاً من (التوازن) بين اسرائيل من جهة والدول العربية من جهة اخرى، والتي استطاعت أن تجعل قسماً من الرأي العام في بلدان اوروبا الغربية والولايات المتحدة يقف، وفي الوقت المناسب ، الى جانب العسكريين الاسرائيليين، والتي قامت بعمليات التجسس وكشف العديد من أسرار الدول العربية العسكرية والمدنية ، وقامت

بتغطية حاجات اسرائيل العسكرية والمالية »[1] ، ويجيب على تساؤله بأن « الحديث عن التعاون المتبادل بين العسكريين الاسرائيليين والاوساط الحاكمة في الدول الامبريالية » [2] .. لا يكفي للاجابة عن هذه التساؤلات ، وأنه « لا بد من الحديث عن حلقة وصل كان لها الدور العملي في تأمين كل الاستعدادات اللازمة للتوسع الاسرائيلي المرحلي [3]» .. « هذه الحلقة هي اتحاد الصهاينة العالمي الذي لعب دور النفق السري بين أكثر القوى رجعية في الدول الامبريالية ، وبالدرجة الأولى في الولايات المتحدة وبريطانيا وألمانيا الغربية ، وبين العسكريين الاسرائيليين [4]» .. ويؤكد الكاتب على أن الكونسرسيوم الصهيوني الدولي المتمثل في المنظمة الصهيونية العالمية وفرعها الحقيقي ، المؤتمر اليهودي العالمي ، انما هو من اضخم اتحادات رؤوس الأموال ، وهو « الوزارة الأرضية لشؤون يهود العالم اجمع ، ومركز للجاسوسية الدولية ، وجهاز إعلامي ودعائي على مستوى عال من التنظيم »[5] ، كما يملك هذا الكونسرسيوم ٨٠ ٪ من الأراضي ، و ٩٠ ٪ من الصناعات في اسرائيل ، بحيث تلعب طبقتها الحاكمة « دور الشريك الصغير فيه » [6] . هذا الكونسرسيوم العالمي متمثلاً في المنظمة الصهيونية العالمية يرتبط ارتباطاً وثيقاً بالاحتكارات الضخمة للدول الامبريالية وفي مقدمتها الولايات المتحدة ، ولديه ، مثل الاحتكارات الامريكية « مجال واسع » لمصالحه في الشرق الأدنى ، ولهذا فان دوره في هذه المنطقة ليس دور صبي أوكلت اليه مهمة ما ، بل هو « يستخدم » « كرب عمل » الأوساط الحاكمة الاسرائيلية لتنفيذ مخططاته ومآربه التي لا تقف حدودها عند نقطة معينة كقناة السويس مثلاً ، أما إزاء الاحتكارات الامريكية ،

---

(١) احذروا الصهيونية : ص ٨ .

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦) احذروا الصهيونية : ص ٨ ، ٩ .

« فهو لم يلعب بعد دور المشترك الأخير في تقاسم ما يغنمه اللصوص »(١) .

بعد هذه المقدمة التي يضع المؤلف فيها الحركة الصهيونية وإسرائيل في مكانها الصحيح من الصراع القومي والطبقي المحلي والعالمي ، ينتقل الى موضوعه الاساسي : الصهيونية بين النظرية والتطبيق .

١ - بين الوهم والواقع :

« نشأت الحركة الصهيونية وتكونت ايديولوجياً في نهاية القرن التاسع عشر ، فترة المعارك الطبقية الحادة التي خاضتها البروليتاريا الدولية ، وفترة انتهاء عملية تحول الرأسمالية الى امبريالية » (٢) .

وككل ايديولوجيا امبريالية تمتاز الصهيونية بتناقض الصورة التي تقدم نفسها بها مع محتواها الحقيقي . وقد بدأت الحركة الصهيونية نشاطها بأكذوبة « أن اليهود ظل يراودهم حلم العودة الى فلسطين عبر آلاف السنين »(٣) ، فكتب نورمان بنتفتش ، وهو صهيوني بريطاني : « ان الصهيونية قديمة قدم أسر الشعب اليهودي وتدمير الهيكل من قبل نبوخذ نصر » (٤) ، كما كتب هوارد ساشار ، وهو صهيوني بريطاني ايضاً : « ان صهيون لم تكن مجرد أضغاث أحلام . لقد كانت تحف بها قلوب اليهود من شتى بقاع العالم » (٥) . أما الايديولوجي ناحوم سوكولوف فيؤكد أن الصهيونية « تبقى على مر آلاف السنين المثل الاعلى الذي باسمه كان افضل أبناء شعبنا يعملون ويناضلون ويعانون ويموتون » (٦) ، ويضيف جاستس براندز : « منذ تدمير الهيكل ، أي مايقرب من الفي عام ، لم يفارق اليهودي حنينه الى فلسطين » (٧) . كل هذه التصريحات تهدف بالدرجة الاولى الى تبرير الصهيونية وتطلعاتها الامبريالية ، وإضفاء طابع تاريخي عليها ، وإظهارها وكأنها

---

(١) احذروا الصهيونية : ص ١٠ .

(٢ ، ٣ ، ٤ ، ٥ ، ٦ ، ٧) احذروا الصهيونية : ص ١٩ ، ٢٠ .

رديفة « للتاريخ اليهودي » . إلا أن الصهاينة يعلمون أن ما يسمى « بالتاريخ اليهودي » لم يكن شيئاً خارج الزمان والمكان كما يصورون ، بـــل هو مرتبط بالحركة الواقعيـة للشعوب التي عاش اليهود بينها واندمجوا فيها في كثير من الحالات ، ولهذا فهم يتحدثون عن هذا التاريخ بعيداً عن الوقائع ، ويحاولون اضفاء مسحة دينية عليه تقترب في كثير من الأحوال من جو الوهم الذي يسود العهد القديم الذي يؤرخ لتاريخ الهجرة والنزوح من مصر الى فلسطين والاستيطان فيها بروح « شعب الله المختار » . ان الصهاينة لم يكلفوا انفسهم عناء البرهنـة على « قدم » الحنين المزعوم الذي واكب « التاريخ اليهودي » للعودة الى فلسطين ، بل اكتفوا بتكرار مزاعمهم حول هذا « الحنين » ، وذلك لاقناع قادة البلدان الامبريالية في مطالع القرن العشرين بأنهم انسب حرس لمصالحهم في هـذا الجزء الهام من العالم . ولم يقدموا تاريخهم في هذا السياق إلا كتبرير يُسهّل على قادة الدول الامبريالية عملية منحهم فلسطين ، خاصة وان في هذا التاريخ مالا يسر الصهاينة على الاطلاق . كتب المؤرخ الصهيوني سالو بارون يقول : « لقد كان ممثلو الجالية اليهودية البابلية يفرضون على اليهود جميعاً وفي كل البلدان ان يصلّوا بالدرجة الاولى **من أجل ان يحفظ الله حياة ابناء بابل الحكماء** . ان كثرة اليهود وتحسن اوضاعهم المادية في بابل جعلت آباءهم الروحيين هناك يؤكدون انه هنا **(في بابل)** يتفجر نبع الحكمة والنبوة ، ومن هنا بالذات **(وليس من اورشليم)** يشع برج الفجر الوضاء على شعبنا بالنور . » (١) . ويقول ليونارد شتاين : « لقد وجدت الجاليات اليهودية المزدهرة منذ القدم في مصر وسوريا وبلاد ما بين النهرين وفي ايطاليا واليونان . ولقـــد توزع اليهود من فلسطين قبل انحطاط الدولة اليهودية وسقوطها بأمد طويل . وفي الواقع فقد كان عدد اليهود في فلسطين قبـــل المسيحية ٧٠٠ الف نسمة ، بينما كان عددهم في الامبراطورية الرومانية وحدها في تلك الاثناء ما يقرب من اربعة ملايين ... » (٢)

---

(١) و (٢) احذروا الصهيونية : ص ٢٦ ، ٢٧

كما يؤكد المؤرخان الاميركيان سكراموزا وماكاندريك ان الامبراطور الروماني (كلوديوس) أمر اليونانيين في الاسكندرية : « بوجوب احترام الحريات التي منحها اغسطس لليهود . وفي الوقت ذاته فقد انذر اليهود بألا يحاولوا اغتصاب امتيازات اكبر ... وألا يقوموا بتشجيع الهجرة السرية من فلسطين الى مصر ! » (١)
وفي عام ٥٣٨ ق . م سمح كورش امبراطور فارس بعودة اليهود الى اورشليم ، «ولكن السواد الأعظم آثر البقاء في بابل »(٢) كما يقول الحاخام الاكبر في بريطانيا عام ١٩٤٧ . ويعلق يوري ايفانوف على ذلك بقوله : « هكذا كان يبرز في كل عصر وضع معين لايرضى عنه الصهاينة . فقد كان على جميع الدروب في رأيهم ان تقود اقدام اليهود الى فلسطين بالذات ، ولكن الدرب الى فلسطين لم تكن لتلائم تلك السفرات التجارية البعيدة التي بددت شمل الجاليات اليهودية في شتى ارجاء المعمورة » . (٣)

لماذا لم يرغب اليهود في العودة الى فلسطين ، رغم الفرص العديدة التي أتيحت لهم ؟ للاجابة على ذلك نذكر حقائق التاريخ الاساسية ، وحقائق التاريخ هذه تتحدث عن وجود يهود موسرين ، ويهود « عاديين » كانوا يمتهنون الزراعة ومختلف الحرف والتجارة الصغيرة . لقد اندمج هؤلاء بالمجتمعات التي كانوا يعيشون بين ظهرانيها ، وبلغ من ذلك أنهم اقلعوا في معظم البلدان عن استخدام اللغة العبرية كوسيلة للتفاهم . فأخذوا في المانيا يرتلون الأناشيد باللغة الألمانية . واعتبر المؤتمر القومي العام لممثلي اليهود في عام ١٨٨٥ أن« اميركا هي ارض صهيون» وأعلن : « نحن لا ننتظر العودة الى فلسطين » ، كما حذف اليهود الالمان قبل ذلك كل ما كان يذكرهم باورشليم : « شتوتغارت هي اورشليم » . وحوّل اليهود في مناطق اخرى صلواتهم من اللغة العبرية الى اللغة الآرامية والسريانية ،

---

(١) و (٢) احذروا الصهيونية : ص ٢٩ ، ٣٠

(٣) احذروا الصهيونية : ص ٣١ .

وكتبوا باليونانية كتبهم الدينية المقلدة للتوراة . هذا ما يتعلق باليهود العاديين الذين كانوا يسيرون بسرعة نحو الاندماج مع مجتمعاتهم ، حتى قبل المسيحية . أما الموسرين فقد سخروا لصالحهم افراد الجاليات اليهودية الذين حاولوا فرض عزلة عليهم تفصلهم عن مجتمعاتهم : « لم يكن من قبيل الصدفة انه في بلاد بابل ، حيث كانت المقاصد الجشعة لزعماء تلك الجاليات اكثر حدة من اي مكان آخر ، لجأ اولئك الزعماء الى فرض عقوبة الفصل على كل من يشق عصا الطاعة والولاء لابناء الدين الواحد ، فظهر اول كنيس يهودي آنذاك »[١] ، كما يؤكد جيمس باركس . أما الانكليزي الصهيوني ساشارفيؤكد: « لقد جاء قيام الجيتو الاول في اسبانيا وصقلية في الفترة المبكرة من القرون الوسطى بناء على طلب اليهود انفسهم »[٢]. ويكتب ليلينتال بناء على ما اورده الصهيوني سالوبارون : « ... لقد اصر حاخامات اليهود وربابنتهم على الانفصال في شؤون السياسة والدين ، حتى ان القوانين الاساسية الناظمة لحياة الجيتو التي اقرت في البرتغال جاءت بناء على طلب يهود البرتغال انفسهم » . (٣)

لقد تبلور هذان الخطان عبر التاريخ القديم والحديث ؛ اغلبية تسير نحو الاندماج ، وأقلية ثرية تعارضه وتقيم « كياناً خاصاً » لليهود في المجتمعات المختلفة مستنـــدة في ذلك الى عزلهم عن شعب البلد الذي يقيمون به إما عن طريق المحاجر الخاصة (الجيتو) ، أو عن طريق إثارة حنق المجتمع عليهم ، أي بواسطة اللاسامية . وقد ازداد هذان الخطان تبلوراً مع تقدم المجتمعات الحديثة ، وبعد الاحداث البارزة كالثورة الفرنسية ، وسقوط النظام الاقطاعي ، ونمو البروليتاريا الاوروبية . لقد اجتاحت هذه الاحداث « مصير الشعوب أجمع ، وكان لها قوة هائلة في تحطيم حواجز الجيتو التي اقيمت في القرون الوسطى »[٤] . ولقد

---

(١) احذروا الصهيونية : ص ٢٥ .

(٢) و (٣) احذروا الصهيونية : ص ٤٠ .

(٤) احذروا الصهيونية : ص ٤٨ .

كتب لينين واصفاً التحول الذي حدث في حياة اليهود: «في اوربا كلها كان سقوط القرون الوسطى وتطور الحرية السياسية يسيران جنباً الى جنب مع رفع الوصاية السياسية عن اليهود، ومع انتقالهم من لغتهم العامية الى لغة الشعب الذين يعيشون بين ظهرانيه، ومع التقدم الاكيد لاندماجهم مع السكان المحيطين بهم» (١). لقد اهتزت دعائم «اليهودية» التي كانت نقطة الارتكاز الرئيسية للتجار واصحاب البنوك والمصانع من اليهود، واندمج نضال اليهود مع الطبقة العاملة الأوروبية، و«بينما كان الكادحون اليهود بين خمسة عشر الفاً من المتمردين الذين نفتهم السلطات الفرنسية دون محاكمة بعد ثورة ١٨٤٨؛ كان آل روتشيلد وبيتمان يقدمون القروض لبابا روما، وللجنرال لويس كافينياك الذي قام بسحق ثورة ١٨٤٨ في فرنسا، ولمترنيخ في النمسا»(٢). وقد حدث نفس الشيء في روسيا فقدم هوراتسي جينتسبورغ، أحد أثرياء اليهود، الهدايا للقيصر كتعبير عن امتنانه لقتل العصاة بالرصاص. وكان العمال اليهود بين هؤلاء العصاة بالطبع.

لقد افزع هذا التطور اثرياء اليهود الذين فهموا ان اندماج الجماهير اليهودية في اوروبا يعني نهاية سيطرتهم عليها، ولهذا فكروا «بجمع شمل اليهود في دولة قومية خاصة»، مع أنه لم يكن يهمهم في البدء مكان «جمع الشمل» هذا، الى ان بدأ الوطن العربي يدخل حلبة الصراع بين القوى الامبريالية، وخاصة بين انكلترا وفرنسا. لقد بدأت هذه العملية التاريخية مع حملة نابليون على مصر فكان نابليون يرغب في توطين اليهود في سورية لحماية مصالحه الاستراتيجية في هذه المنطقة. وقد نبه مشروعه هذا الاستعمار البريطاني الى أهميته، فكتبت جريدة التايمز اللندنية في ١٧ آب ١٩٤٠ مقالاً تبحث فيه مصير سورية بعد اخراج ابراهيم باشا منها، فقالت: «ان الاقتراح القائل بتهجير اليهود الى بلاد آبائهم ليسكنوها

---

(١) احذروا الصهيونية: ص ٤٨.

(٢) احذروا الصهيونية: ٥٠.

تحت حماية خمس دول لم يعد يشكل مسألة جديرة بالبحث فقط ، بل هو موضوع قائم فعلاً ويتطلب دراسة جدية » (١) ، وفي نفس العـــام طالب السياسي الانجليزي شافتسبوري وزير خارجية بريطانيا بالميرستون « بتحويـــل سورية الى مستعمرة انجليزية ، ولأن هذا يتطلب رأسمال وايد عاملة .. فاننا اذا ما درسنا حتى النهاية مسألة عودة اليهود من زاوية التمركز والاستيطان في فلسطين لتبين لنا ان هذا ارخص السبل وأضمنها لسد كل حاجيات هذه المنطقة الفقيرة بالسكان » (٢). وقد فضح هربرت سكفيت رئيس وزراء بريطانيا في مذكراته منطق خلفه لويد جورج ، فكتب يناقش أحـــد المخططات الكثيرة للاستيلاء على فلسطين :

« ومن دواعي العجب أن لويد جورج كان احد المدافعين عن الاقتراح . وليس من حاجة للقول بأن ما يهمه ليس اليهود ، او ماضيهم ومستقبلهم ، لكنه كان يعتبر انتقال الاماكن المقدسة الى حماية فرنسا « **الملحدة** » كارثة حقيقية »(٣) . وفي العقـــد السابع من القرن التاسع عشر أنشئت في انجلترا « الشركة الاستعـــمارية السورية الفلسطينية » بقصد « ضمان استيطان **سوريا وفلسطين والبلدان الاخرى المجاورة** لها من قبل **الفئات المرضي عنها** »(٤) . هكذا لم يبق على الصهيونية سوى الظهور ، وإلا « فستجد انجلترا نفسها مضطرة لاختراعها »(٥) ، كما قـال الزعيم الصهيوني ماكس نورداو في مطلع القرن العشرين .

لقد التقف الرأسماليون اليهود الفرصة فسارعوا عام ١٩٠٢ الى تأسيس « التروست الاستعماري اليهودي » برأسمال قدره (٢) مليون جنيـه استرليني ، مقتدين في ذلك **بسيسيل رودس** الذي استعمر مناطق مساحتها **٧٥٠ الف ميل مربع في افريقيا** ، مع ان رأسماله لم يكن يتجاوز نصف مليون جنيه استرليني

(١و٢) احذروا الصهيونية : ص ٥٠ ، ٥١ .

(٣و٤و٥) احذروا الصهيونية : ص ٥٤ ، ٥٥ ، ٥٧ ، ٥٨ .

ولقد بدأت الصهيونية نشاطها « كمؤسسة رأسمالية صرفة » ، كما قال سوكولوف ، وكان المساهمون فيها من كبار المحتكرين المرتبطين ارتباطاً وثيقاً بالاوساط الامبريالية .

٢ – حين ترمى الحجارة وحين تجمع الحجارة[١] :

بعد سقوط أسوار جيتو القرون الوسطى التي كانت تؤمن لزعامة الجاليات اليهودية سيطرتها على جماهير اليهود ، وبعد الوهن الذي أصاب اليهودية (« الجيتو الروحي »)[٢] نتيجة لتطورات العصر الجديد ، بدأت القوى المهتمة بالسيطرة على اليهود بخلق أشكال جديدة للجيتو ، وكانت الايديولوجيا الصهيونية هي هذا الجيتو الروحي الجديد .

لقد أدرك ايديولوجيو الصهيونية أن اليهودية لم تعد صالحة كجيتو روحي لليهود ، ولكنهم حاولوا بعثها من جديد عن طريق الصهيونية التي صوروها وكأنها قديمة قدم التاريخ . يقول آحاد هاعام : « ليس اليهود فقط هم الذين تخلوا عن الجيتو ، بل الجيتو أيضاً تخلى عن اليهودية ... التي تحطمت كل تحصيناتها الدفاعية نتيجة تماسها مع الثقافة الجديدة .... وحينما تتخلى اليهودية عن حواجز الجيتو ، فانها ستقع في خطر فقدان الـ « أنا » الخاصة بها ، أو على الأقل ستفقد كمالها القومي ، وربما ستنقسم الى

---

(١) لا بد أن نشير هنا الى وجود بعض الأخطاء في ترجمة هذا الكتاب كقول المترجم مثلا في الصفحة الثامنة « واضح أن مثل هذا العمل الواسع المتشعب من شأنه أن **يضاعف** كثيراً من امكانيات استخبارات اسرائيل وجهازها الدعائي » ، والصحيح أن يقال : . . . الواسع **المتشعب يفوق كثيراً** ... الخ . كما يوجد خطأ في ترجمة هذا العنوان ، فهو ليس « حين ترمى الحجارة وحين تجمع الحجارة ، بل « لتفريق الحجارة وقت ولجمع الحجارة وقت » ، وهو مأخوذ من **سفر الجامعة ، الاصحاح الثالث** .

(٢) احذروا الصهيونية : ص ٧٠ .

أشكال شتى يحمل كل منها طابع وجوده الخاص تماماً ، كتلك البلدان التي يتوزع اليهود فيها »[1] . لقد كان على الصهيونية أن تعيد خلق «الأمة اليهودية العالمية» [2] ، كما قال مارتن بوبر ، وذلك عن طريق « جعل الدعاية لأفكارنا جزءاً لا يتجزأ من العبادة (اليهودية) »[3] ، يضيف هيرتزل الذي كان يؤمن كسواه من النظريين الصهاينة أن الديانة اليهودية لا تمثل سوى مرتبة ثانوية في سلم القيم الصهيوني .

ما هي مقومات « الأمة اليهودية العالمية » كما يفهمها الصهيونيون ؟ . إنها « وحدة الثقافة اليهودية » و « ماضي اليهود التاريخي ذي السمات المتميزة » و « طريقة تفكيرهم الخاصة » . أما عن « وحدة الثقافة **اليهودية** » فقد كتب ماكس نورداو قائلاً : « إننا سنحافظ على **الثقافة الأوروبية** ... وسنسخر من النصائح التي تدعونا لنتحول **الى آسيويين** »[4] . وكتب هيرتزل معرفاً الأمة : « الأمة هي مجموعة من الناس تكونت تاريخياً واكتسبت سمات مميزة بفعل الحياة المشتركة ، وحافظت على وجودها ككل موحد **بفضل وجود العدو** . فلو أضفنا الى هذا كله كلمة «يهودية» لصار في مقدوركم أن تفهموا قصدي عندما أتكلم عن الأمة اليهودية »[5] . إن السمات المميزة للأمة ليست مسألة جوهرية بالنسبة لهيرتزل ، وإلا لكان تحدث عنها بشيء من التفصيل ، ولهـذا اكتفى بالتحدث عن « العدو » مؤكداً كل مرة أنه « اللاسامية » . إن وجود « الأمة اليهودية » رهن بوجود « اللاسامية » ، ولكن هذه باقية إلى الأبد ، كما يقول الصهاينة الذين بذلوا كل ما بوسعهم لتأبيدها عن طريق افتعالها بدفع الشعوب إلى كره اليهود من جهة ، ودفع اليهود الى معارضة الاندماج في مجتمعاتهم من جهة أخرى، وخاصة بين أوساط الطبقة العاملة . ولقد

(١ ، ٢ ، ٣) احذروا الصهيونية : ص ٧٧ ، ٧٥ .

(٤ ، ٥) احذروا الصهيونية : ص ٨٠ ، ٨١ .

فضح لينين أكثر من مرة نشاط البوند المعادي للعمال اليهود ، وأكد الصلة بين اللاسامية ومصالح الفئات البرجوازية ، واتهم البوند مباشرة بممارسة نشاط صهيوني لعزل العمال اليهود عن اخوانهم عمال روسيا وبالعكس .

لقد أكد ايديولوجيو الصهيونية أكثر من مرة الآمال التي يعلقونها على زرع اللاسامية في طريق تحرير اليهود واندماجهم ، وقد تساءل هيرتزل عام ١٩٠٢ أمام الجمعية الملكية البريطانية : « ما الذي يقدر على ارغام اليهود على الهجرة من بلدانهم وتأسيس الدولة اليهودية ؟ ، وأجاب: اللاساميون»[١] ، كما أشار في مناسبة أخرى الى أنه « ليس في الأمر ما يتطلب كبير جهد كيما يتاح للحركة النمو والانتشار ، ففي هذا المجال يعمل اللاساميون لصالحنا »[٢] . إن الأسس النظرية للصهيونية تكمن في مفهومي « الأمة اليهودية العالمية » و « اللاسامية » المفهومين بصورة قبلية ، فالأمة اليهودية العالمية موجودة ما دام هناك لاسامية ، واللاسامية موجودة ما دامت هناك امة يهودية عالمية. انهما لا يشترطان بعضهما فقط الى حين اقامة «الدولة اليهودية» بل هما تستمران الى الأبد ، ولهذا يبرر وجود « الأمة اليهودية » بوجود الأمم الأخرى ، بغض النظر عن ساميتها أو لاساميتها . هكذا تتحول الاشتراكية الى لاسامية (يعتبر ايديولوجيو الصهيونية ماركس وانجلز ولينين لاساميين !) ، وتتحول الأنظمة الديموقراطية والاتوقراطية والديكتاتورية الى أنظمة لاسامية . هذا هو السياق الاستراتيجي للصهيونية ، أما تاكتيكها فهو يتغير من مكان الى آخر ، حسب درجة اندماج اليهود في مجتمعاتهم . لقد قيل ليهود أوروبا الشرقية أن الصهيونية ستقيم دولة اشتراكية : « ينبغي على الدولة اليهودية ، إذا ما انشئت ، أن تصبح دولة اشتراكية . إن على الصهيونيـــة أن تندمج بالاشتراكية كي تصبح مثالاً

(١ ، ٢) احذروا الصهيونية : ص ٨٥ ، ١٠٦ .

لشعوب أوروبا كلها »[1] أما في أوروبا الغربية فكان هرتزل يطمئن الرأسماليين الى أن « الأثرياء اليهود الذين يخفون كنوزهم الآن ، ويبطرون خلف الستائر المسدلة ، ستتـــاح لهم فرص التمتع بلذائذ العيش هناك »[2] (أي في الدولة اليهودية) . ويتحدث بينسكر بصراحة اكبر : « ... إن أفضل قوانا تتمثل في رجال المال والعلماء ورجال النشاط التطبيقي »[3] . في نفس الوقت كان « الاشتراكيون » الصهاينة يؤكدون استحالة تحرر اليهود في مجتمعاتهم : « ليس للثورة الروسية أية علاقة بالنضال من أجل مستقبلنا، لأنها لا تحل المسألة اليهودية، حتى ولا مسألة يهود روسيا، كما انها تحول بيننا وبين الصهيونية »[4] . لقد نشأت الصهيونية في أحضان البرجوازية اليهودية الكبيرة ، وكانت تعكس رغبة ومساعي هذه البرجوازية لإعادة إحكام السيطرة المفقودة على الجاليات اليهودية المنحلة ، وإذا كان هناك من ميزة لها ، فإنما هي عداؤها للاشتراكية ولحركة التحرر الوطني .

٣ ـ متاهة ... لكنها مفضوحة

يمكن المرء أن يطلق على هذا الفصل والفصل الذي يليه (أمام الخيار) عنوان الصهيونية في التطبيق . لقد ذكرنا أن للصهيونية طبيعة معادية للحركات الاشتراكية ولحركة التحرر الوطني . وفي هـــذا الفصل يعرض الكاتب لبعض الأحداث غير المعروفة حول الصهيونية وثورة اكتوبر .

في الثاني من أيار عام ١٩١٨ عقد سراً في موسكو مؤتمر لاحدى المنظمات الصهيونيـــة المتنفـــذة وهي منظمة « تسيري - تسيون » ، وقد حضر المؤتمر مندوبون من ٢٢ مدينة روسية كبيرة . وقد جاء في تقرير المؤتمر الختامي

(١ ، ٢ ، ٣) احذروا الصهيونية : ص ١٠١ ، ١٠٢ .

(٤) احذروا الصهيونية : ص ١١٣ .

ما يلي : «ان المسألة الأساسية في السياسة الروسية هي مسألة الثورة الروسية ،وخبرات الثورة الاشتراكية ، أي تجارب البلشفيك في ميادين الصناعة والمالية واقتصاد الدولة والسياسة الخارجية ... ونتائج هذه التجارب من انحطاط الدولة وتدهور الاقتصاد ... ووضع الشعب اليهودي ، والافقار الاقتصادي وتجويع الوسطاء والتجار والخدم والحرفيين نتيجة لاضطهادهم في الأجزاء المحتلة من روسيا ، والوضع عينه السائد في روسيا الاشتراكية بالنسبة لليهود نتيجة لتجارب البلشفيك الذين يقتلون الصناعة والتجارة ... ان مطالبنا السياسية تبقى كما كانت عليه : **تشكيل حكومة تتمتع بكفاءة لايشترك فيها البلاشفة**»[1] . وقد قال ليزين ، أحد المشتركين في المؤتمر : «طالما ان البلشفية لاتزال تتمتع بقدر من القوة ، فان علينا أن لانعدم الوسائل للنضال ضدها . فنحن في حياتنا اليومية نصطدم مع المؤسسات البلشفية على الدوام . ولقد أعرب المثقفون الروس عن موقفهم ضد أعمال التخريب ، وعلينا ، **الى حد ما** ، أن نرفض تلك الأعمال أيضاً ، ولكننا سوف نقوم بذلك في مختلف فروع الحكومة البلشفية حيث تتاح لنا فرص العمل»[2] وأكمل مندوب استراخان المخطط «ان نضالنا هو تنظيم كل العناصر الديمقراطية لكي نقبض على زمام السلطة بأيدينا حين سقوط البلشفية»[3] .

يعود كره الصهاينة للثورة الاشتراكية الأولى الى أسباب عديدة أهمها أن «الاشتراكية عدو قاتل ... للفكرة القومية اليهودية» أي للصهيونية كجزء من الايديولوجيا الامبريالية ، وأن ثورة اكتوبر كانت ضربة عنيفة «للأمة اليهودية العالمية» لأنها فتحت أمـــام جماهير اليهود طريق الانعتاق الطبقي والقومي ، ممـــا كاد يهدد فكرة الصهيونية المركزية باستحالة التحرر اليهودي خارج «الوطن القومي» بالانهيار التام (لقد أنقذ وعد بلفور الصهيونية من هذا التهديد المميت !) . أما سبب العداء الثالث فهو حرمان الحركة الصهيونية من ثروات الرأسماليين اليهود في روسيا ومن تبرعات اليهود الروس التي بلغت سنة ١٩١٤ مبلغ ٢٣٧ مليون مارك الماني ،

(١ ، ٢ ، ٣ ، ٤) احذروا الصهيونية : ص ١١٩ ، ١٢٠ .

وهو مبلغ هائل بمقاييس ذلك العصر . لقد وجهت ثورة اكتوبر الاشتراكية ضربة قاصمة للكونسرسيوم الصهيوني الدولي ، ولهـذا فقد تركزت كل جهود الصهيونية للقضاء عليها ، فدخل الصهاينة في « حكومات » دينيكين وسكوروبادسكي وبيتليورا ، وشكلوا كتائب حربيـة صهيونية قاتلت ضد الثورة الوليدة ، ووضعوا انفسهم في خدمة التجسس والتخريب ضد الدولة السوفياتية ، وأسسوا مختلف الجمعيات الهادفة الى تهريب ثروات الرأسماليين تحت اسماء مختلفة « كالجمعية الخيرية اليهودية » . وبعد توطد الدولة السوفياتية بدأت المنظمات الصهيونية تشن «حملة دعائية جماهيرية ضد الاتحاد السوفياتي للتشهير بالاشتراكية ، وبقصد خلق فئات من « **المثقفين الليبراليين** » داخل الدولة الاشتراكية ذاتها »[١] .

لقد لعب فشل الصهاينة في استعادة مراكزهم الضائعة في الاتحاد السوفياتي دوراً كبيراً في زيادة الحاح الصهاينة على غزو فلسطين ، خاصة وأن اندماج اليهود مع مجتمعاتهم لم يقتصر على بلاد السوفييت فقط ، بل تعداها الى العديد من البلدان الأوروبية التي ازداد تلاحم اليهود فيها مع سواهم من طبقات الشعب ، وخاصة الطبقة العاملة ، في سياق العديد من الثورات التي شهدتها تلك البلدان . لقد رأى الصهاينة آمالهم وهي تتهاوى ، فبدؤوا نشاطاتهم لدفع اليهود نحو فلسطين عاملين لتحقيق أهدافهم بخطة مزدوجة ، فتعاونوا مع النازية في « نزع » اليهود من مجتمعهم ، وأسسوا في المانيا « معسكرات اعادة تربية » لليهود ، بقصد توجيههم نحو فلسطين ، بدلاً من ذهابهـم الى الولايات المتحدة والدول الغربية الأخرى ، وهو ما كان يحدث في معظم الاحيان . وسمحوا في نفس الوقت للنازيين بارتكاب جرائمهم ضد اليهود بقصد دفعهم الى الهجرة نحو « وطنهم القومي » ، المكان الوحيد الأمين كما كانوا

(١) احذروا الصهيونية : ص ١٣٣ .

يقولون لجماهير اليهود . هذا من جهة ، ومن جـــهة ثانية زادوا من ارتباطهم بسياسة كل من الولايات المتحدة والمانيـــا النازية على حساب بريطانيا ، فشهـــدت المنظمة الصهيونية العالميـــة في الاربعينات فترة صراع عنيف على القيادة خاضته العناصر العميلة لكل من هذه القوى والمرتبطة بها ، وليس من قبيـــل الصدف أن يبزغ في هذه الفترة نجم العميل الألمـــاني القيصري ناحوم جولدمان ، كما أنه ليس من قبيل الصدف اتفاقه مع وايز رئيس « الكونغرس اليهودي الاميركي » حول مسألة انشاء كونغرس يهودي عالمي **« غير صهيوني »** ولقد تأسس هـــذا الكونغرس وصار جولدمان رئيسه وبقي كذلك حتى عام ١٩٦٨ . هذه التطورات والأحداث لم تكن تعني تحول الحركة الصهيونيـة عن خطب ود بريطانيا واستغلال امكاناتها الى أقصى حد ممكن . وجل ما في الأمر أن الصهاينة كانوا يتحولون من التعامل مع والعمالة لـ القوة الامبريالية التي كانت قائدة دون التخلي عنها نهائياً . وفي هذه النقطة يكمن في الحقيقة جوهر الصهيونية كحركة تحاول تجميـع كل القوى الامبريالية حولها ، بغض النظر عن التناقضات التي تمزق هذه القوى .

٤ ـ أمام الخيار

« هذه أرضكم يابني اسرائيل . . . من النهر المصري العظيم ، الى نهر الفرات العظيم »[١]

بمثل هذه الأقوال يستقبل المهاجر في فلسطين المحتلة ، **فاذا ما كان ممن يعرفون اللغة العبرية** ، فانه سيستطيع قراءة وسماع الجملة التاليـــة لميناحيم بيغن :

أنتم الاسرائيليين عليكم ألا تأخذكم رحمة عندما تظفرون باعدائكم . عليكم ألا ترحموا حتى تدمروا نهائياً ما يسمى بالثقافة العربية التي سوف نبني على انقاضها حضارتنا نحن »[٢]

(١ و ٢) احذروا الصهيونية : ص ١٨٨ ، ١٨٩ .

ان شعـــار « **ارغام العرب على الرضوخ المطلق** » هو جوهر ومحتوى السياسة الصهيونية في فلسطين ، ويترجم جابوتنسكي هـــذا الشعار الى مستقبل محسوس فيتحدث عن أنه من الضروري « أن نخلق وضعاً من « الامر الواقع » ، ونوضح للعرب أن عليهم مغادرة أرضنا ليحطوا رحالهم في الصحراء »[1] . ويتجلى تطبيق هذين الشعارين ، **تدمير الثقافة العربية** ، أي الشخصية العربية المتفردة تاريخياً ، **وطرد العرب الى الصحراء** ، فيما قامت به الدولة الصهيونية حتى الآن حيال العرب الذين كانوا يقطنون فلسطين ، فقد طردت غالبيتهم الساحقة الى الصحراء فعلاً ، وبذلت جهودلئيمة لمحو الشخصية الثقافية والتاريخية المتفردة للأقلية العربية الخادمة التي بقيت في فلسطين . ولا شك أن هذا المصير ينتظر كل من سيسقط تحت الحكم الصهيوني كائناً ما كان موقعه من الحرب العربيـة - الاسرائيلية ، فقصد الصهاينة هنا هو تأكيد حتمية انتفاء شخصيتهم ما دامت الشخصية العربية قائمة والعكس .

اننا لن نتحدث بالتفصيل ، على مافي ذلك من أهمية ، عن الطرد والتشريد والفظائع التي ارتكبت بحق الامة العربية ، ولكننا نريد أن نؤكد مع يوري ايفانوف على أن هذه الأساليب لم تكن تستهدف في سياقها الأخير سوى تدمير كل امكانية لتحرر العرب عن طريق تدمير كيانهم الاجتماعي .

احذروا الصهيونية

« لم يكن ظهور وقيام دولةاسرائيل هو المنطلق الأساسي للفكرة الصهيونيةالقائلة ان اليهودية أسمى من كل شيء . ان ذلك المنطلق يتمثل في هـــدف اخضاع اليهودية العالمية بشتى الوسائل لارادة المركز الصهيوني السائر في ركاب الامبريالية (٢)، الأمر الذي يعني بالنسبة لبن غوريون : « تقديم المساعدات لاسرائيل سواء شاءت

(١ ، ٢) احذروا الصهيونية : ص ١٨٨ ، ١٨٩ ، ٢٣٩ .

حكومة تلك البلاد التي يعيش فيها اليهود ويخضعون لهـــا أم لم تشأ »[1]، ويعني بالنسبة لحاخام بريطانيا الأكبر : «علينا أن نفعل كل شيء من أجل ألا يبقى في العالم كله يهودي واحد يتهرب من واجبه . . . ان على الشبيبة أن تكون على أهبة الاستعداد للقتال ، وان على الآخرين لدى أول مخابرة هاتفية من اسرائيل أن يتوجهوا حالاً ودونما ابطاء الى هناك ويحتلوا أماكنهم المعينة في الجيش ، وعلى الباقين أن يلتزموا بدفع الضريبة عن كل نفس ومن كل يهودي . . . ان علينا جميعا أن نكون رهن اشارتهم حين يشاؤون»[1]
هذه المقاطع والاستشهادات تفسر الخطر الجسيم الذي تتعرض له حركة التحرر الوطني العربية وغيرهـا من حركات التحرر الوطني ، بل والدول الاشتراكية نفسها ، فالصهيونية ليست مليوني اسرائيلي ، بل هي اكثر تشعباً وقوة وسطوة من اسرائيل بكثير ، إنها ملايين اليهود الذين تتعاطف معهم أقوى امبرياليات التاريخ ، ويمكننا دون خوف الوقوع في المبالغة أن نقول أن الصهيونية صارت قاسماً مشتركاً اعظم تتلاقى عنده جهود كل البلدان الامبريالية ، وإذا كان ذلك واضحاً في شيء ، فإنما هو واضح في جعل اسرائيل قطعة من أوروبا داخل آسيا ، واعتبار القاعدة الصهيونية في فلسطين جزءاً لا يتجزأ من العالم الحر الذي حسمت اموره سلفاً ، ولا يجوز لأحد مساسه ، إذا كان لا يريد أن يغامر بخوض حرب عالمية .
إن الكونسرسيوم الصهيوني الدولي الذي يهدف إلى السلطة بجميع الوسائل الممكنة في نظام الامبريالية ، هو خطر كبير على حاضر العالم ومستقبله ، ولن تقف الصهيونية عند حد ، إذا لم تضطر لذلك .

إن كتاب « احذروا الصهيونية » هو بلا شك من أهم الكتب التي صدرت في السنوات الأخيرة بلغتنا ، وإذا كان صدوره عن كاتب سوفياتي شيء مفرح ، فإن عجز كتابنا عن دراسة الصهيونية بمثل هـذا العمق والموضوعية هو أمر محزن حقاً .

(١،٢) احذروا الصهيونية : ص ٢٣٨ ، ٢٣٩ .

إسرائيل أمّة مفتعلة

د. فرانتس شايدل

عرض وتلخيص : هشام الدجاني

من خيرة الدراســات الأوروبية التي ظهرت عن اسرائيل في الآونة الأخيرة كتاب ترجمته وأصدرته وزارة الثقافة بعنوان: « إسرائيل أمة مفتعلة »[1]. والكتاب من وضع المؤلف النمسوي الدكتور فرانتس شايدل الذي حاول في كتابه ان يبرهن بطريقة علمية على عدم وجود مايسمى أمة يهودية أو عرق يهودي أو قومية يهودية . واسرائيل إنما هي كيان مصطنع يعيش على هبات ومساعدات الدول الغربية وتأييدها . وليس لهذا الكيان المصطنع أية حقوق دينية أو حضارية في فلسطين . ولعل هذا مادفع المترجم الى ان يعطي الكتاب عنوان : « اسرائيل أمة مفتعلة » .

ولأهمية الكتاب من حيث موضوعية معالجته وخطورة معــلوماته

---

(١) اسم الكتاب بالألمانية: ISRAEL ; Selbstmordversuch durch Nationalismus
أو : اسرائيل : محاولة انتحار من خــلال التعصب القومي . ترجمة محمــد جديد ، منشورات وزارة الثقافة بدمشق ١٩٦٩ ،

يجدر بنا أن نستعرض في جولة سريعة أهم ماأراد المؤلف ان يؤكده ويركز أضواءه الكاشفة عليه .

يتحدث المؤلف في مقدمة الكتاب عن التعصب القومي الاسرائيلي . ويصف القومية اليهودية فيقول : « قومية تعصبية تملكت في العقود الأخيرة قسماً كبيراً من اليهود كالوباء المريع » . ويرى المؤلف أن هذه القومية كانت شركاً سقطت فيه القلوب اليهودية الناشئة . وفي الوقت الذي كانت فيه أوروبا تتجاوز القومية، راح بعض اليهود يجرون كالمجانين وراء الدعوة القوميـــة الضيقة . وإذا كانت الصهيونيـــة تعني بالنسبة الى اليهود الذين يعيشون خارج إسرائيل رفض الإندماج وتخليد اللاسامية بذلك ، فهذا يعني ان الصهيونية تسير على أفضل طريق يؤدي بها الى ان تصبح حفارة قبور اليهود .

ويصف المؤلف الطغمة الحاكمة في اسرائيل، المستفيدة وحدها من فرض الأغلال القومية على اليهود ، بأنها « طغمة محترفة متعصبة تشكل أقلية صغيرة ، ولكن بيدها زمام الحل والعقد في العالم اليهودي . وهي تشكيل ثيوقراطي [٢] - قومي يتألف في المقام الأول من النخبة الروحية القديمة ».

والمؤلف لايتحامل على اسرائيل أو اليهود ، بل إن كتابه أشبه بنصيحة صادقة الى اليهود ألا يعصف بهم التعصب القومي . وهي نصيحة موجهة خصوصاً الى اليهود الأحرار والانسانيين المندمجين او المستعدين للإندماج في العالم كله،ولم يسقطوا ضحية القومية . فقد إنهارت بالمغامرات القومية شعوب أكبر وأشدبأساً من هذه الحفنة من الاسرائيليين، وأقوى من هذا التركيب المصطنع لأمةيهودية.

---

(٢) ثيوقراطي : كلمة من أصل يوناني معناها السلطة ذات المصدر الالهي .

يؤكد هذا قول المؤلف : « ومن كان يكنّ لليهود نية شريفة فإنه لا يستطيع أن يتمنى إلا التغلب على النزعة القومية ، والعودة الى جادة الصواب والتعقل ، والاقتصار على المهام الدينية » . وإنشاء دولة « إسرائيل » ، في نظر المؤلف ، يضر بالمصالح الحقيقية لليهودية نفسها .

وتعلو كلمات المؤلف حتى تصبح اتهامات قاسية مدعمة بالحجج وبالبراهين ، وحتى تصبح سهاماً طاعنة موجهة الى صدر الدولة الباغية . فهي دولة أقيمت على أساس من الظلم والدم المسفوك .. وهي تمثل تهديداً خطيراً ودائماً للسلام العالمي . وإذا كان المؤلف قد تصدى للقومية اليهودية ولدولة إسرائيل ، رغم أنه يعرف مسبقاً ما سوف يجر عليه هذا التصدي من انتقام عملاء الصهاينة ، فإنه لم يفعل ذلك إلا لحماية نفسه وحماية رفاقه في الانسانية ، كما ذكر المؤلف نفسه ، من شرور الصهاينة .

وقد لقي ما كتبه المؤلف بصدق وإخلاص صدى طيباً لدى اليهود الشرفاء في أرجاء العالم . فهذا يهودي ألماني يعيش في الولايات المتحدة كتب له يقول : « ... إن كثيراً مما في كتابك ليصدر عن قلبي وعن قلوب كثير من اليهود الآخرين : فأنت تعبر بدقة عما لا نجرؤ نحن على قوله خوفاً من الصهاينة الذين يتمتعون بالقوة اليوم ... » .

ويسوق الكاتب في مؤلفه كثيراً من أقوال زعماء سياسيين معروفين ، ونواب في البرلمان ، ورجال فكر ، وصحفيين ، متناثرة في كتابه ، وبعض هؤلاء من اليهود أو ممن كانوا يعطفون على اسرائيل ، تؤكد كلها وعي هؤلاء على حقيقة التعصب القومي الاسرائيلي ، وطبيعة اسرائيل العدوانية .

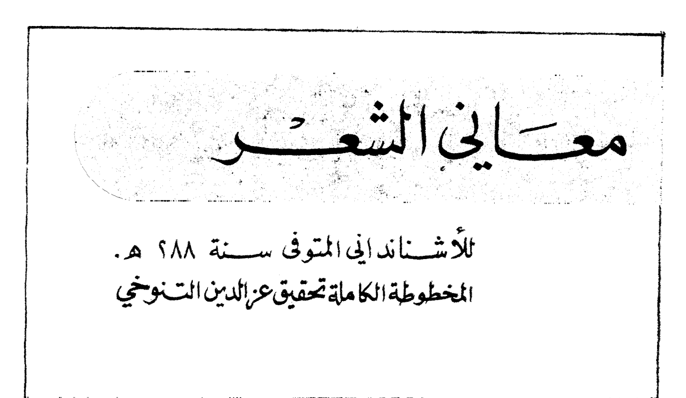
تقوم فكرة الكتاب الرئيسية على اساس أن الدعوة القومية الصهيونية

هي أخطر على اليهودية ذاتها وعلى اليهود أنفسهم من أية أخطار خارجية اخرى .
من هنا ينطلق المؤلف : إن هذه الدعوة القومية الصهيونية، وهذا التجمع العشري ليهود العالم وفي دولة « اسرائيل » على أساس قومي مفتعل سيكون وبالاً آخر الأمر على يهود اسرائيل ويهود العالم أكثر من شيء آخر . وما جهود المؤلف في كتابه هذا سوى محاولة جادة ومخلصة لإثبات هذه الحقائق بإسلوب علمي محكم يستند إلى أرضية واقعية، ويتميز بأصالة النظرة وعمق الفهم لحقيقة أهداف الصهيونية ونواياها، وحقيقة أساليبها وطرقها . إنه يسبر أغوار الصهيونية من خـــلال عرض تاريخي ومنطقي متسلسل ، ويفضح الدعوة القومية الصهيونية ، ويعري القائمين عليها ، ويكشف حقيقة نواياهم والنتائج التي سيؤدي اليها تعصبهم الشوفيني الأحمق وصلفهم وغرورهم اللذان لا يطالهما صلف وغرور . ويورد المؤلف الاستشهاد تلو الاستشهاد مديناً الطغمة القومية المتعصبة من أقوال رجالها . من ذلك قول آخاد هاعام ، وهو أحد ابرز قادة الفكر الصهيوني : « .. سيسود شعبنا اليهودي كل الشعوب الأخرى .. إن اسرائيل هذه .. هي الأمة العليا التي تملك القدرة على التوسع .. وعلى أن تصبح سيدة العالم دون النظر بعين الاعتبار الى ما يمكن أن يكلف هذا الشعوب الأخرى .. الشعوب الأدنى مقاماً .. » .

لقد بلغت بهم الشوفينية والغرور حـــد اعتبار اليهود سادة العالم ، وحد المجاهرة والتبجح بهذا الرأي . انه منطق نازي جديد !

وهذا الصلف والغرور نجدها بدرجات حادة متفاوتة عند جميع المسؤولين الصهاينة والاسرائيليين . إنها ظاهرة عامة في الفكر الصهيوني ، لا بل صفـة من أبرز صفات هذا الفكر .

إن « اسرائيل أمة مفتعلة » كتاب قيم ، يضم معلومات دقيقة وأفكاراً موضوعية صحيحة تستند الى أسس راسخة من الدقة والواقع. هذا الكتاب الذي كتبه قلم أوروبي حر استطاع الوصول الى لب الحقيقة .. الى جوهر الصهيونية وتعريتها وفضح وسائلها ، يستحق قراءة واعية واهتماماً جاداً من جميع مثقفينا ووسائل اعلامنا في الداخل والخارج . إنه يضيف الى معلوماتنا الكثير ، ولكنه بالنسبة للعقل الأوووبي اكثر من سند وأكثر من وثيقة علمية بقلم كاتب اوروبي متجرد . انه سفير اعلامي لنا لدى العقل الاوربي الذي يقتنع بلغة العلم والمنطق .. لغة الحجة والبرهان .



ثلج حنّا الدافئ

نواف أبو الهيجاء

بعـــد « المصابيح الزرق » ، أصدر الروائي حنا مينه روايته الثانية « الشراع والعاصفة » حيث شرح ابعاد الحركة الاجتماعية من خلال انعكاس اجواء الحرب العالمية الثانية على قطاعات وطبقات المجتمع العربي في « اللاذقية ». شاهدنا الاندفاعات النضالية الفردية ، او الجماعية غير المنظمة ، ورأينا كيف بدأت تتوضح الخطوط الفاصلة بين الطبقات الاجتماعية ، ورأينا كذلك بداية تلك الصراعات الطبقية وهي تتضح وتأخذ كامل ابعادها . وتأتي اليوم روايته الثالثة « الثلج يأتي من النافذة » [1] لتضيف إلى انتاجه الروائي رواية ممتعة ، شيقة ، ومعالجة جريئة لأحدى أهم قضايا النضال الثوري في مجتمعنا خلال حقبة هامة من تاريخه .

فماذا قال حنا مينه في « الثلج يأتي من النافذة » ! ؟

وكيف قال ما قاله !؟

---

(١) حنا مينه ، الثلج يأتي من النافذة - رواية ، مطبوعات وزارة الثقافة دمشق ١٩٦٩ (٣٧٢) صفحة

وهل نستطيع اعتبار هذه الرواية تتمة - فكرية - أو الخلفية فكرية يسير على هديها هذا الروائي العربي !؟ أم هي عمل فني قائم لذاته ليست له أية علاقة بالروايتين السابقتين للمؤلف ذاته !؟

ربما كانت هذه هي أهم الاسئلة التي تخطر للقارىء قبل ، وربما بعد ، اتمام عملية قراءة الرواية . ومن حسن الحظ فإن القارىء يعثر على جميع الأجابات بسهولة ممتعة حقاً .

* * *

عملية تلخيص الرواية ، وهي العمل الفني المتكامل ، ضرب من الخيال الظالم ، ففيها يكمن الظلم الفادح للعمل الفني ، ولخالق العمل الفني ، وللقارىء ذاته أيضاً . لذا سألجأ هنا ، في محاولة فهم ابعاد الخطوط الأساسية للرواية ، إلى تحليل واف ، قدر المستطاع ، للشخصيات الرئيسية الثلاث في « الثلج يأتي من النافذة » .

آ - فياض :

« ها هو في بيروت الآن .. الطريق الطويل ليس طويلا ، وجدار المصاعب ليس عصياً . » (٢)

فياض ، كما نفهم ، في بيروت الآن ، ولكنه ليس لبنانيا . انه من سورية وجاء إلى بيروت ليختفي . لماذا !؟ لأنه هنا مطارد ، كما أنه جاء من دمشق هارباً من المطاردة ذاتها . إذن هو ثوري كما نفهم من سياق الرواية . وهو ليس ثوريا عادياً ، انه مثقف ، بل ويكتب . وهو« منفي على نحو ما »(٣) . وثمة عبارة

(٢) الثلج يأتي من النافذة : ص (١٥)
(٣) المصدر ذاته : ص (١٦)

تلخص قضيته وهذه العبارة جاءت في الصفحتين ١٦ – ١٧ من الرواية :

« علي ان احمل صليبي .. على الجدول ان يصب في النهر العظيم . »

في دمشق هو مطارد ، ورفاقه مطاردون ، وفي بيروت ، حيث الحرية مزعومة ، هو مطارد ورفاقه مطاردون ، والزمان بداية الخمسينيات .

ومشكلة فياض ليست هنا . انها مشكلة أهم واكبر . وإذا كانت عملية الهروب من ساحة النضال الأولى إدانة له ، فهي ليست ايضاً المشكلة رقم (١) بالنسبة له . انما المشكلة الأساسية هي في : كيف يصب الجدول في النهر العظيم !؟

كيف يعمل !؟ وماذا يعمل !؟

انه يحمل فكراً ثورياً ، والقضية لا تكمن في حمـــل الفكر الثوري فحسب ، بل هي في ممارسة هذا الفكر الثوري . صحيح انه ملتزم ، وصحيح أنه مثقف ، وانه يحمل فكر الطبقة الثورية العاملة ، ولكن الصحيح أيضاً هو انه ينبغي عليه ان يعمل وفق هذا الفكر - أن يمارس الفكر الثوري لأنه كان ومازال يكتب هذا الفكر الثوري . وكان العامل الثوري خليل يتساءل دائماً :

« هل يكتب ما هو مستعد للتضحية في سبيله ، ام ان الكتابة لا تكلفه شيئاً في الوقت الحاضر ؟ »(٤)

عليه ، اذن ، ان يصمد، ان يكون ذا نفس طويل ، طول نفس الطبقة الثورية ذاتها في استعدادها الدائم للتضحية ، في صبرها ، في نشاطها الدائم ، في حركتها التي لا تنتهي ، وفي ثقتها العجيبة بالنصر رغم جميع الانتكاسات التي تمنى بها .

فور وصوله يسجن في البيت ،ويعاني كثيراً . وتؤرقه مسألة البحث عن

---

(٤) المصدر ذاته : ص (٣٦ - ٣٧)

عمل . ويعاني من العذاب . ورداً على تضوره وشكواه يقول له خليل العامل :

« لا تزعل مني .. تتعذب ؟ واضح .. كثيرون يتعذبون .. كثيرون يتركون اعمالهم ويتشردون ، يدخلون السجن ويخرجون ، وقد يدخلونه مرات ويخرجون .. ثم يفرطون بقضيتهم فما السبب ؟ فكر .. انهم يفتقرون إلى روح المثابرة ، ينقصهم الصمود أمام المصاعب الصغيرة ، احيانا .. التجربة هي المحك ، فقبل التجربة جميع الناس مناضلون ، وربما ابطال ! » في هذه الكلمات تكمن جميع أسس نجاح أو فشل تجربة المناضل الثوري . روح المثابرة ، والصبر تعنيان التخلص من النفس القصير - البورجوازي حتى لو كان هذا البورجوازي يحمل فكراً ثورياً .

ويخرج فياض إلى تجربة العمل الأولى .. العمل الجسدي - لا الكتابة ولكنه لا يستطيع الصمود امام الاهانات التي يتلقاها . للمرة الأولى يستطيع كشف القناع ، ويكتشف الخبايا ، يكتشف ان الاعلانات واليافطات الخارجية لا تدل على المضمون . يكتشف انه لا يكفي لأن تدخل مطعماً مثلاً كتب عليه من الخارج « مطعم » حتى يكون المكان مطعماً فعلاً ، فثمة - قبو ، وثمة طابق آخر !! وامام الإهانة يترك عمله الأول . و « بيروت واسعة وبيروت ضيقة . فأين تذهب يا فياض ؟ حذار من المجازفـــة ، وحذار ان تركب موجة اليأس فترطمك على صخور التهلكة . نملة أنت بين هذا النمل . »[5] والنملة مشهورة بدأبها ومثابرتها . على فياض إذن ان يعمل من جديد ، فالعمل هو محكه ، هو محك ثوريته ونفسه . والغش في كل مكان ، هنا ، وهناك - وعلى فياض ان يعرف طريقه . ويعود فياض إلى سجن نفسه من جديد ، ولكن هذه المرة في مكان

(٥) المصدر ذاته - ص (٨٠)

آخر : عند جوزيف . هناك يجد وسيلة للعمل - الكتابة من جديد - العمل الفني - القصة ! ولكنه رغم ذلك يجد ان لا بد من الحرية ، حتى وإن كانت هذه الحرية في نقل الاخشاب ، والحجارة . وهكذا يخوض التجربة العملية الثانية من جديد .

« يافياض ! يافياض ! ياحديدة القيت في النار ، اصمد ، ولسوف ينصهر المعدن »[٦] هل ينصهر المعدن ؟ هل ينجح فياض في اكتساب التجربة ، في ممارسة الفكر الذي يحمله ؟ ذلك الفكر الذي يعني : العمل الدؤوب ، العذاب ، التحمل - الصمود ... الخ من الكلمات التي نعرفها جميعاً . وعاش فياض فترة كما يعيش العمال ، اولئك الذين يناضل معهم ومن اجلهم ، ومن اجل مستقبل افضل له ولهم وللاجيال المقبلة . ولكن المطاردة مستمرة .

ويعمل فياض في مكان آخر ، عند بورجوازي صغير مريض لاأمل له الا هذه الآلة المتهالكة التي صنعها ، آلة قص المسامير - آلة (ابو روكز) . ويحبه ابو روكز ويعتبره جزءاً من مشاريعه المستقبلية الكبيرة . وأمام المطاردة يضطر فياض إلى ترك العمل ثانية والعودة الى السجن الاختياري . وهناك يكتشف فياض نفسه حقيقة :

« انت يافياض لاتفتح طريقاً ، لكنك تسير في طريق وعرة .. انت حجر ككل الحجارة التي رفضها البناؤون وصارت رؤوس زوايا .. امض في طريقك امض .. بدون زاد ، بدون مأوى ، بدون حب .. دع دينيز تحلم بالفارس كما في الكتب ، لانها لو رأتك في معمل المسامير لصاحت . « رباه ! إنه انسان عادي ! » دع والدتك في حنانها العاجز ، فانما والدك في ضلاله أكثر

---

(٦) المصدر ذاته ص (٢٠٣)

جراءة على الحياة منها ، واذ تستشعر الألم تذكر انك واحد من ملايين يتألمون مثلك يسيرون في الطرق الوعرة ليشقوا طرقاً جديدة » .[٧] وامام هذا الإدراك العميق لكينونته اضحى الطريق أمامه واضحاً كل الوضوح. النضال في كل مكان هو ذاته نضال من أجل سعادة الملايين .. ومن أجل إزالة الظلم الفادح الذي أصاب الملايين ويصيبهم . امام هذا الادراك ؛ الذي جاء يزيد في وعيه وبعمقه نتيجة ممارسته العملية لفكره الثوري لايجد الا ان يعود إلى دمشق ..

أجل فالنضال في دمشق هو ذاته نضال في بيروت . وإذا كانت الإدانة في البداية مبررة فإنها الآن غير مبررة ولهذا فلقد عاد إلى دمشق :

« اغمض عينيه على هناءة الراحة بعد تعب . في مدينته سيعيش ، وفي مدينته سيكتب ، وفيها سيكافح .. وشعر بسعادة غامرة ، بسعادة من يستقبل الدنيا بصدره ، واعداءه بصدره ، واصدقاءه بصدره ايضاً ، وهتف كأنه يقسم :

– أبداً لن اهرب بعد الآن ! أبداً لن اهرب بعد الآن . »[٨]

ب - خليل

هو العامل ، الفقير ، الثوري الحقيقي . الإنسان الذي يتمتع ، بحكم انتمائه الطبقي ، وبحكم وعيه ، وبممارسته ، والتزامه الثوري ، بقدرة الطبقة العاملة ذاتها على الجلد والمثابرة والمقدرة على الاستمرار في درب النضال حتى آخر الشوط : واكثر من ذلك ، نفهم ان لخليل هذا تاريخاً حافلاً بالاعمال الثورية . لنقرأ ماذا يذكر عنه فياض :

« خليل : ياخليل ! في حينا ذاك كنت المجنون الأول . كانوا يقولون

---

(٧) المصدر ذاته : ص ٣٤١

(٨) » » – ص ٣٧٢

هذا الولد يناطح الصخر ! قال سنديكا قال ! »[٩]

ونرى خليل منذ البدء يحاكم فياض المثقف الكاتب . ونراه أيضاً يعمل في النقابة مكافحاً مع رفاقه من اجل الحصول على مكاسب اجتماعية واقتصادية وسياسية لهم . وفي البيت يكافح ضد سقطات الحركة الثورية وانعكاسات ذلك على العائلة .. الفقر والمطاردة ، وحكاية فياض ، و :

« خليل في نقطة الخطر من كل هذه القضية ، سيكون كذلك لأنه عضو في لجنة الإضراب ، ولانه مناضل . لقد تمرس بذلك حتى بات يرى الأشياء طبيعية مهما تكن قاسية .. خمسة وعشرون عاماًأوأكثر ، من اجتماعات المغائر إلى اليوم ، فأي نفسه طويل وأي صبر ! »[١٠]

هكذا إذن هو خليل . مناضل عريق ، ثوري حقيقي .. يمارس ما يفكر فيه ، ما يؤمن به، ما يعتنقه من عقيدة ثورية وهو فوق هذا وذاك إنسان بكل معنى الكلمة، ولعل حنا مينه وضعه هنا ليكون المثال الذي ينبغي لفياض ان يصبح مثله : صبوراً ، ممارساً حقيقياً للفكر الثوري الذي يحمله . تعود خليل الا يرضخ أمام الصعاب لأنه يثق بنفسه، ويثق بعقيدته وبحتمية انتصارها لانها عقيدة الشغيلة والطبقات المحرومة .

وهو يعرف دائماً كيف يستشرف آفاقاً جديدة في عمله . وهو الذي يقول لفياض في آخر مواجهة :

« انت الذي اخترت هذا الطريق ، وما عليك إلا ان تواصل السير » .

---

(٩) المصدر ذاته : ص ٣٤٠

(١٠) المصدر ذاته : ص ٢٢٤

(١١) المصدر ذاته : ص ٣٦٣

حـ ـ جوزيف :

أما جوزيف فهو شخصية أخرى ، تختلف عن كل من فياض وخليل .

هل هو ثوري ! ؟ فكراً وعملاً !؟ ام ماذا !؟

جوزيف هو الثوري فكراً ، وهو الانسان الذي لا يستطيع الخلاص من تطلعاته البورجوازية ، ولا من النفس البوارجوازي القصير . نفهم انه مثقف . وانه يملك طاقات هائلة ، ولكنها مهدورة ، لالشيء الا لأنه لا يعرف شيئاً اسمه الصبر والمثابرة ، لأن نفسه قصير . وهو يمارس فكره الثوري الذي يحمله في ذات الوقت الذي يقفز في عمله هنا وهناك لتوفير الحاجات البورجوازية التي جاءت نتيجة اقترانه بزوجه البسيطة ، ولكي يجاري البورجوازية في مظاهر البذخ والحياة المرفهة بالدّين ! ـ

فياض وجد طريقه . تخلى عن كل شيء في سبيل ان يكتب . . وخليل قاد اضراباً فاشلاً ولكنه سيقود اضرابات ناجحة ، أما انا ! ؟ . كان مستعداً ان يموت الآن ، في هذه اللحظة ولكن في هذه اللحظة لا سواها .»(١)

لماذا !؟ لانه يتمتع بنفس البورجوازية الوطنية الصغيرة . مشكلته إذن تكمن في إيجاد ذلك النفس الطويل الذي لن يوجد عنده مادام لا يستطيع ان يمارس فكره الثوري بممارسة يومية ، حتى في علاقاته الاجتماعية وفي الاشياء البسيطة التي تحدث له .

* * *

أهذه هي شخوص الرواية فقط ؟ كلا ، فثمة شخصيات اخرى تعمل على اتمام اللوحة مثل : ام خليل ، ام بشير ، ابو روكز وغيرهم . هؤلاء يضيفون

---

(١٢) المصدر ذاته : ص : (٣٠٨)

الألوان ويوضحونها أكثر، وجميع هؤلاء اناس طيبون ، جاء بهم حنا مينه كتحية للشعب اللبناني ، كاثبات مادي ملموس على طيبة هؤلاء الناس . حتى ابو روكز كان على استعداد لايواء خليل ، ولم يكن على استعداد لتسليمه لرجال الأمن . وام بشير جاهدت من أجله، كذلك ام خليل ، كذلك زوجة جوزيف. ويعطينا حنا صورة حية لواقع – الخبايا – الكامنة خلف اللافتات والمظاهر في بيروت. يرينا صوراً حية من حياة الخداع الرأسمالي ، ومن حياة البيع والشراء ، و كذلك من حياة الطبقة المسحوقة دائماً هناك .

* * *

كيف قال حنا مينه كل هذا !؟

في هذه الرواية لم يعمد حنا مينه الى التسجيل ، ولا الى كتابة السيرة الذاتية كما قد يخيل الى البعض لأول وهلة. في روايته السابقة « الشراع والعاصفة» كان يلجأ كثيراً الى التقرير لا سيا عندما يتحدث عن الاوضاع السياسية في البلاد زمن الحرب العالمية الثانية ، او عندما يتحدث عن احياء مدينة اللاذقية – أما في روايته هـذه – الثلج يأتي من النافذة – فلم يلجأ الى التقرير الا مرة او مرتين وبصورة فنية مقبولة .

رأيت حنا مينه في « الثلج يأتي من النافذة » اكثر حداثة مما كان عليه في « الشراع والعاصفة » . لقد نجح في استعماله السريع الفني للمنولوج ، وحتى الديالوج أما « الفلاش باكس[1] » التي عمد اليها في لحظات معينة فلقد كانت اقرب الى «تيار الوعي » الانسيابي منها الى « الفلاش باك » . أما اللغة فاعتقد ان الاعجاز في هذا

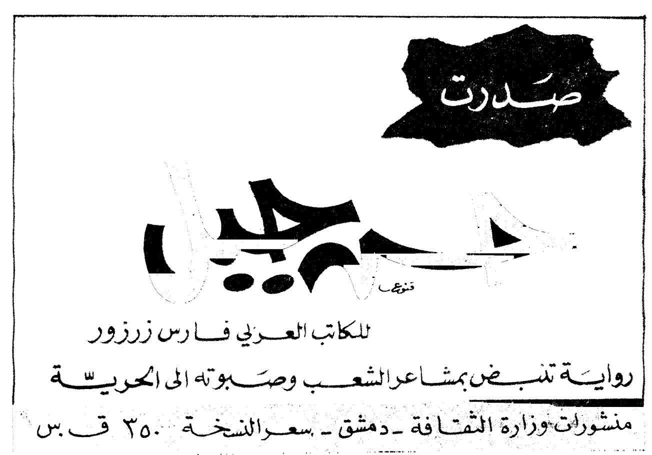
(١) « Flashback » اصطلاح يعني ومضة الاسترجاع يستعمل عادة في اللقطات السينائية .

العمل يكمن في تلك اللغة البسيطة جداً والغنية جداً والتي لم نلحظ فيها أية محاولة للتصيد « الصوري ، والتعبيري » ، لغة تنساب بهدوء وتعبر بهدوء وبوضوح .

شيء واحد آخذه على حنا مينه في « الحوار » . جاء حوار الشخصيات متشابهاً الى حد كبير ، اي ان القارىء لا يستطيع التمييز بين قولين لشخصيتين من خلال حوارهما . . ولعل هذه هي الهنة الوحيدة التي اسجلها على حنا في هذه الرواية . اذا ماقارنت ، كقارىء ، حوار « الثلج يأتي من النافذة » بحوار « الشراع والعاصفة » لوجدت تشابهاً غريباً ، لماذا !؟

اما الاجابات المطلوبة على التساؤلات المطروحة في البداية فأعتقد انها توضحت من خلال العرض السريع للشخوص .

وكلمة أخيرة اسوقها ، في هذه العجالة ، ان رواية « الثلج يأتي من النافذة » تضيف شيئاً جديداً الى عالم الرواية العربية ، شيئاً له قيمته الحضارية والفنية . وآمل ان لا اكون قد ظلمت الرواية من خلال عرضي السريع هذا لأنني لا اكتب نقداً بأية حال من الأحوال ، وانما اكتب دائماً في محاولة فهم فقط .



دعوة إلى السينما

... وأزمة اصدار الكتب الفنية

عادل ابو شنب

من بين الملامح البارزة لأزمة النشر في القطر العربي السوري .. غياب الكتاب الفني غياباً دائماً [1] .

إن مانقرؤه من كتب تعالج قضايا فنية .. مستورد ، في الغالب ، من لبنان ومصر ، وهو لايحمل أية صفة محلية ، ولم يكن قط رد فعل لقضية من قضايانا الفنية التي تستأهل أن يدور حولها نقاش ، أو أن تؤلف بسببها كتب . إن أزمة نشر الكتب الفنية لصيقة الصلة ، في الأسباب والنتائج ، بأزمة النشر عامة ، لكن في النهر ماءً قليلاً - كما يقولون - عندما يرد الى الأذهان موضوع الكتب الأدبية والفكرية ، وليس فيه ماء قط إذا مافكرنا بالكتب الفنية ..

ولست أريد أن أعالج أسباب الأزمة ومظاهرها ، في هذا المقال ، وإنما

(١) في احدى الاحصائيات ان عشرة كتب فنية قد صدرت خلال السنوات العشر - مرحلة الستينات - في القطر . أكثر من نصفها اصدرته وزارة الثقافة خلال السنوات الثلاث الاولى من هذه الفترة .

كان استهلالاً لابد منه . أن أشير الى الأزمة ، وأنا بصدد التهليل لكتاب فني صدر في القطر[٢] بعد طول انتظار ، وبعد أن أصبح غياب الكتاب الفني قاعدة وحضوره استثناء .

إن مبادرة شخصية ، فردية ، حولت الكتاب المخطوطـــة الى وثيقة سينمائية مطروحة في السوق ، وقد تكون هذه المبادرة .. شجاعة ، لكنها ، في الوقت نفسه ، مأزق للجميـع ، لمن يملكون نشر الكتب الفنية ولا يفعلون . للقراء الذين تعودوا على قراءة الكتب الفنية المستوردة . للناشر الذي غامر فنشر ، وأخيراً المؤلف الذي لايملك إلا معرفته بالفن الذي يكتب عنـه ، وشجاعته ، لأنها ـ أي المبادرة ـ تضع الملح على الجرح ، وتعري القحط الذي تعاني منـه في هذا المجال ، فكأنها صيحة في واد .

هدف الكتاب :

قسم الاستاذ صلاح دهني[١] كتابه « دعوة الى السينما » الى خمسة عشر قسماً ، عالج فيها ما اذا كانت السينما فناً أم لا ؟ مسلياً أم ذا هدف ؟ وحدد فيها علاقة السينما بالمسرح والأدب والفكر ، وبيّن المسؤولية الاجتماعيـــة للسينما ، ولم ينس أن يتحدث عن المُشاهِد الذي يُعتَبَر ، هو أولاً ، رأسمال السينما . وبطبيعة الحال . وضع العرب أمام السينما . في آخر اقسام الكتاب ، وهو الهدف الرئيسي الذي رمى اليـــه . وربما أدرك القراء من عنوان الكتاب هذا

---

(٢) « دعوة الى السينما » من منشورات مكتبة النوري — دمشق (١٩٢ صفحة من القطع المتوسط) تأليف الاستاذ صلاح ذهني .

(١) الأستاذ صلاح دهني مؤلف الكتاب . مخرج . ومدير الشؤون الفنية سابقاً في المؤسسة العامة للسينما بسورية .

المغزى الذي اراده المؤلف . لقد جعل نفسه داعيـة لفن السينما الذي لم نكن نحن العرب قد استوعبناه كوسيلة إعلامية تخاطب أوسع القواعد ، وتتسلل الى جميـع أنماط البشر ، حتى الأميين . فدعوته الى السينما .. دعوة تعريف علمي بها وبدورها ، ودعوة الى الأخذ بيدها واعطائها دوراً اكبر في أقطـارنا العربية ، وتحويلها إلى لغة نخاطب بها انفسنا ، ونخاطب بها العالم . وفي حـدود القطر .. الدعوة دعوة لمسؤوليه ومثقفيه وناسه للاهتمام بالسينما من جميـع الوجوه : تصنيعها ، والاكثار من صالات العرض ، وانتاج المزيد من الأفلام ، وتطوير الثقـافة السينمائية لرفع مستوى الجمهور .

واذا كان هذا هو الهدف الرئيسي من الكتاب .. فالمؤلف لم يعطه فجأ ، وإنما أعطاه بعد عرضٍ شبه تاريخي لفن السينما ، ولآراء كبار الكتاب فيـه ، توصل بنا ، بنتيجته ، الى ان فن السينما هو « فن عظيم لأنـه أكمل فن جماهيري عرفه الانسان ، لايوجه الى فئة ولا الى طبقة »[٢] .

السينما والفنون الأخرى :

ومن أمتع اقسام الكتاب .. تلك التي تحدد العلاقة بين السينما والفنون الأخرى كالمسرح والأدب ، ولأن المؤلف سينمائي ، شديد الحماسة لفنـه الذي أعطاه حياته ، فقد غلب فن السينما على جميـع الفنون الأخرى ، وجعله سيدها ، وخلاصتها جميعاً ، وإن كان يعترف بتأثيرات الأدب والمسرح فيـه أحياناً ، مستشهداً بمقالة أحـد الكتاب : « السينما هي أبي . انها تمنح الأدب دماً وأرجواناً[٣] » . لكنه يجعل تأثير السينما في الأدب والمسرح أكبر وأعمق .

---

(٢) صفحة – ٨٢ –

(٣) صفحة – ٨٦ –

اجتماعية السينما :

يقول الاستاذ دهني في كتابه : في السينما إذن تحققت المساواة بين البشر ، وتقاربت أفكارهم ،وأصبحت السدود المنيعة التي كانت تفصل مابينهم .. كرتونية هزيلة (١) » .

ويقول : « والفيلم يجمع الاندفاعات والرغبات والأفراح وحماسات الجماهير ، عندما تتحد هذه الجماهير ، وهو يحقق في مدى ثوان ، أو دقائق ، أو ساعة ، اشتراك مجموعة من الناس في عاطفة من نوع واحد (٢) » .

ومع أن فكرة اجتماعية السينما ليست جديدة ، كتب فيها ، من قبل عشرات الكتاب والنقاد ، فإن التأكيد عليها في « دعوة الى السينما » يعطي الكتاب نكهة متممة لشموله ، ولطموحه لاحتضان جميع هموم السينما ، ذلك أن اهمال الدور الاجتماعي للسينما - وهو مالم يحصل في الكتاب - يفقد السينما خاصيتها الأولى : جماهيريتها ، ويجردها من أهم أدوارها واخطرها . ولعل المبرر الأول لكتابة هذا الكتاب ونشره هو جر الفكر العربي الحديث الى الانتباه الحاسم الى خطر السينما من الزاوية الاجتماعية .

* * *

إن الحديث في اقسام الكتاب قد يفقدها حرارتها التي لايمكن لقارىء أن يلمسها إلا بقراءة متكاملة . فإذا اكتفينا بهذا التلخيص السريع وجدنا أنفسنا أمام ملاحظة هامة نسوقها فيما يلي :

---

(١) صفحة - ٩٦ -

(٢) صفحة - ١١٢ -

ان الحجم الذي خصصه المؤلف من كتابه للدراسات السينمائية المستنبطة من واقعنا المحلي ، داخل القطر ، أقل مما كان متوقعاً ، وعلى العكس .. كان الحجم المكرس للدراسة النظرية ، ان صح التعبير ، هو الأكبر . وربما اعوزت المؤلف الوثائق والاحصائيات التي لابد منها ، والتي لاوجود لها أصلا [٣] ، أو ربما خشي أن يقوده بحث الارقام والاحصائيات إلى جفاف لايريده لكتابه .

وفي جميـع الأحوال .. يظل هذا الكتاب الهام ، الذي بزغ في السوق المحلية كنجم مفتقد .. من أهم الكتب التي تسد ، بظهورها، فراغاً في المكتبة العربية ، وتنبه الى اهمية السينما ، فناً وصناعة ، ووسيلة اعلامية شديدة النفوذ ، في حياتنا المعاصرة التي تتحكم فيها التكنولوجيا والآلية .

---

(٣) ثمة احصائيات لليونسكو ، واحصائيات لمركز التنسيق العربي عن السينما في سورية ، واغلب هذه الاحصائيات مصدرها المؤلف الذي له صـــلة بمراكز السينما ومؤسساتها .

اخبار ثقافية

مؤتمر الآثار الكلاسيكية التاسع :

ستنشر مجلة (المعرفة) في العدد القادم دراسة طويلة عن المؤتمر الدولي التاسع للآثار الكلاسيكية الذي أقيم في دمشق (١١ - ٢٠ تشرين الأول « أكتوبر » المنصرم) . ضم المؤتمر أكثر من ٣٥٠ عالماً يمثلون حوالي ٦٠ مؤسسة علمية من بينها :

الاكاديمية البولونية ، أكاديمية العلوم في النمسا ، الكوليج دي فرانس ، أكاديمة الكتابات والآداب في فرنسا ، الأكاديمية الأمريكية في روما ، المعهد الفرنسي للآثار في بيروت ، معاهد الآثار في أثينا وجامعة لندن والسوربون وألمانيا الديمقراطية ، مركز آثار البحر المتوسط في بولونيا ، المعهد السويسري في روما ، معهد أمريكا الأثري ، المتحف الوطني في الدانمارك ، متحف اللوفر ، متحف كيلسي في جامعة ميشيغان الأمريكية ، جمعية الاستشراق في ألمانيا الاتحادية ، جمعية النحتيات الأمريكية ، الجمعية الأثرية في أثينا ، جمعية الدراسات السالونيكية في اليونان .

وفي الخطاب الذي افتتح به وزير الثقافه باسم رئيس الدولة العربية السورية هذا المؤتمر ، قال الوزير :

« اننا برغم الظروف التي نعيش شروطها بمرارة وقسوة ، وبرغم وجود العدوان واستمراره فوق ترابنا العزيز ، وبرغم التهديدات الكبيرة التي تلحق بنا كل يوم والتي تستهدف وجودنا كأمة ... فاننا نصر ، وبجزم وعزم وتصميم ، على أن نتابع مسيرتنا الحضارية فنبني انساننا العربي الجديد ، بناء الانسان الجديد في كل ما لهذه الكلمة من معان ، فنؤكد مرة أخرى للعالم أن دور العروبة في بناء الحضارة لما ينته ولن ينتهي .. وسوف نعلّم هذا الانسان كيف يعمر بيد ويدافع باليد الأخرى » .

« ان بلداً ، ظل طوال خمسة آلاف عام حلقة أساسية في الوصل بين الحضارات ، وواجهة مشرقة على البحر الأبيض المتوسط ، قلب العالم القديم والحديث ، بلداً تعايشت فوق تربته الديانات ، وتفاعلت فيه الثقافات ، لهو بلد يحمل رسالة خالدة في تقاليد التسامح والتفاعل والتفهم المتبادل والايمان بمثل الانسانية العليا : الحق والخير والجمال » .

« ولقد حرصنا على صيانة هذا التراث الحضاري وإغنائه ، لأن اعتقادنا الراسخ هو أن هذا كله ليس لنا وحدنا بل للانسانية جميعها . ونحن مقتنعون ، تماماً بأن أي عدوان يقع على أي أثر حضاري ، هو عدوان على الحضارة كلها ، بل هو موجه ضد الانسانية جمعاء » .

وقال رئيس المؤتمر المدير العام للآثار والمتاحف :

« ان المؤتمر الدولي التاسع للآثار الكلاسيكية يتسم بطابع متميز يعطيه ألواناً تزيد في تطوير هذه المؤتمرات وتجديدها . وهو أول مؤتمر دولي

للآثار الكلاسيكية ينعقد خارج نطاق اوروبا يجمع شمل العلماء من أساطين المؤرخين وقمم الأثريين من مختلف الجنسيات واللغات والديار ، كما أنه أول مؤتمر دولي للآثار يتصدى لموضوع رئيسي يعتبر من أجل الموضوعات الأثرية التاريخية وأكثرها شأناً في فهم تطور الحضارة الانسانية وتتبع مسارها ونموها في عهود وفترات هامة من عهود التاريخ البشري الطويل »

وقال الأستاذ (بول كولار) أمين السر العام للرابطة الدولية للآثار الكلاسيكية :

« تبدو لنا سورية منذ أبعد العصور أرض تلاق للحضارات ، ويؤهلها لذلك موقعها الجغرافي ، فهي بوقوعها في نقطة التقاء القارات الثلاث بين وادي النيل ووادي الفرات وحوض البحر المتوسط شهدت نشوء وازدهار أقدم الحضارات. كما أن الطرق التي تربط بين هذه المناطق من العالم القديم تمر وتتصالب حتماً فوق أرضها ، فلابد من عبورها من الطرف الى الطرف الآخر للانتقال من الشرق الى الغرب ومن آسيا الصغرى الى افريقيا . وكانت سورية مرات عديدة عبر العصور التاريخية مسرحاً لهجرات الشعوب ، تلك الهجرات التي لم تكن دوماً بالضرورة هجرات غزو وفتوح » .

عالج المؤتمر المواضيع الرئيسية التالية :

١ – التأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب في العهد الكلاسيكي .

٢ – التنقيبات الأثرية الكلاسيكية في القطر العربي السوري وفي بلدان الشرق الأدنى .

٣ – العمارة الكلاسيكية ومعضلاتها في الشرق الأدنى .

٤ – أثر النزعة الكلاسيكية في العالمين البيزنطي والاسلامي .

بيّن العالم الايطالي (رانو كسيو بيانشي باديتيلي) في محاضرته عن (التأثيرات المتبادلة بين الشرق والغرب في العهدين الهيليني والروماني) أن فن العمارة في الغرب تبنى الأشكال الجديدة التي نشأت وتطورت في الشرق ، في هذين العهدين . فقد انتقلت بنية فن الشرق ، رغم الزخرفة المختلفة التي كسا بها فن الغرب هذه البنية . ذلك أن فن العمارة يرتبط بارادة الجماعات القائدة في المجتمع ، ولا تتبع اليد العاملة تقليداً معيناً إلا في تنفيذ الفنون التشكيلية .

وأضاف العالم الفرنسي (أماندري) أن أواني السيراميك الروديسية ، في القرن السابع قبل الميلاد ، كانت متأثرة بالفن السوري .

وذكر العالم البلجيكي (جان شارل بالتي) ان الحفريات الأخيرة تدل على أن مدينة (أفاميا) السورية سُكنت بين سنة (٥٠٠٠٠ - ٣٢٠٠٠) قبل الميلاد .

نشيد الشباب العربي :

نظمت جامعة الدول العربية مسابقة لإعداد نشيد للشباب العربي ، لالقائه في المهرجانات والاحتفالات والدورات الرياضية ومخيمات الشبيبة المحلية والعربية والدولية . ويشترط في هذا النشيد أن يكون صادق التعبير عن معاني العروبة وأصالتها وآمال الشعب العربي واعتزازه بأمته العربية وقيمها ، وأن يؤكد الترابط والأخوة العربية ، وأن يكون بسيط العبارة سهل الفهم والاستيعاب والانشاد والترنيم ، مع الصحة اللغوية والسلاسة في النطق ، وأن يتكون من بحور قصيرة تتوافر لحروفها وكلماتها الطواعية الكاملة للموسيقا الجماعية والايقاع الجماعي ، وان يتكون من عدد قليل من المقاطع الصغيرة .

ستمنح جائزة لصاحب النشيد الفائز قدرها ٣٠٠٠ جنيه مصري ، ويجوز للجنة التحكيم أن تقترح منح مكافأة تشجيعية لنشيدين آخرين .

الذكرى الخامسة لمصرع فان تروي :

صادف ١٥ تشرين الأول (أكتوبر) الماضي ، الذكرى الخامسة لمصرع البطل الفيتنامي نجوين فان تروي . ولد هذا البطل الشهيد في أول شباط (فبراير) ١٩٤٠ في فيتنام الوسطى . وكان أبوه عضواً في المقاومة ، وتبعه الى سايجون لمواصلة نشاطه الثوري . وفي أيار (مايو) ١٩٦٤ قرر ماكنمارا - وزير الدفاع الامريكي آنذاك - زيارة سايجون حاملاً مخططاته الرامية الى توسيع نطاق الحرب في فيتنام الجنوبية . فوافقت منظمة تحرير فيتنام الجنوبية على الخطة التي وضعها تروي لنسف جسر (كونج لي) الذي سيمر فوقه ماكنمارا في طريقه من مطار (تان سون نهوث) الى سايجون ، وأصر تروي على أن يقوم بنفسه بتنفيذ الخطة ، رغم ان زواجه كان سيتم بعد أيام قليلة ، ورهن خاتم زواجه لشراء السلك الكهربائي اللازم لتمديدات المتفجرات . لكنه وقع في ايدي العدو عندما كان على وشك تنفيذ الخطة في ٩ أيار وتعرض لأقسى أنواع التعذيب للبوح بأسماء رفاقه ، غير أنه تحمل مسؤولية العمل وحده . وحاول أن يهرب من سجنه ليواصل النضال ، وقفز من الطابق الثاني في مبنى ادارة الشرطة ، لكنه سقط على سيارة منطلقة في الشارع في تلك اللحظة ، فكسرت ساقه ، وأعيد الى السجن والتعذيب حتى اصيب كل جسده بالشلل . وفي ١٠ آب (أغسطس) حكم عليه بالاعدام ، وتقرر اعدامه في اوائل تشرين الأول . ولكن جبهة التحرير الوطنية الفنزويلية ، اعتقلت المقدم الأمريكي سمولين في قلب كارا كاس ، وأعلنت

أنه سيموت بعد ساعة واحدة من اعدام تروي . فأجل تنفيذ حكم الاعدام الى أجل غير مسمى ، وفي ١٤ تشرين الأول أطلقت جبهة تحرير فنزويلا الوطنية سراح ممولين وفي اليوم التالي أعدم نجوين فان تروي . ومنحه مجلس رئاسة اللجنة المركزية للجبهة الوطنية لتحرير فيتنام الجنوبية ، لقب « بطل » ووسام « الحصن النحاسي » من الدرجة الأولى .

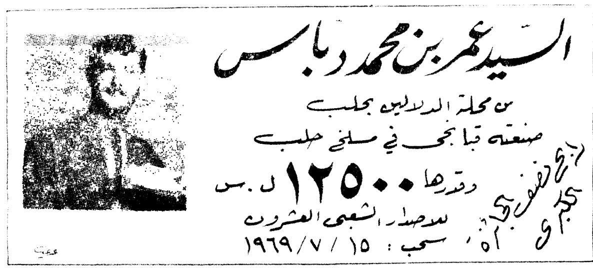
يانصيب معرض

يقدم

١٠٠٠٠٠
٦٠٠٠٠
٢٥٠٠٠
٢٥٠٠٠

جوائز اليانصيب

تؤمن لك ولأسرتك السعادة



يجري سحب الاصدار العادي التاسع بتاريخ ٤ تشرين الثاني ١٩٦٩

الفهرس



٧